آفاق

في الفكر الإسلامي

الدكتور فاروق السامرائي

رئيس جامعة الإسراء في ولاية منيسوتا الأمريكيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

آفاق في الفكر الإسلامي

٢٠٢٠م - ١٤٤٢ هـ

كل الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله؛ وبعد:

فإنَّ هذا الكتاب يحوي في طياته آفاقًا في عالم الفكر الإسلامي آنَ لأصحاب الألباب أن يُحَلِّقُوا في سمائها ويبلغوا قمة المعالي في عليائها. إنَّ أعظم شيءٍ في الحياة هو أن يعيش الإنسان الحقيقة بصفائها وأسوأها أن يعيش الوهم ويمضي خلف سراب الجهل والغواية. أَمَّا أغلى شيءٍ فيها، فهو أن تكون للإنسان كرامة الاختيار وصراحة الرأي وحرية الكلمة حتى يعيش الحقيقة دون تزييفٍ، والواقع دون تمثيلٍ، والسبيل دون إكراهٍ!

إِنَّها آفاقٌ في عالم الفكر أردت من خلالها أن أجوب في موضوعاتٍ أرى في ذكرها وتنبيه القارئ الكريم إليها أهميةً كبيرةً في توسيع المدارك، كي نعلو في آفاق الحَقِّ ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

لم أجعل هذا الكتاب مُرَتَّبًا في فصولٍ أو مباحث لأنَّ موضوعاته تحمل طابع الاستقلالية، ولذلك جعلت كل عنوانٍ مستقلًّا بذاته حتَّى تُشَكِّلَ هذه القضايا والموضوعات -بمجموعها- موسوعةً فكريةً تشمل كثيرًا من جوانب الفكر الإسلامي الذي ربما يُشكِلُ في عنوانه على أكثر النَّاس، وحتَّى أدفع بتنوع هذه الموضوعات السَّآمة والملل اللذين قد يحصلان للقارىء الكريم.

هي منظومةٌ من الموضوعات يحويها الفكر الإسلامي، أعرضها بطريقةٍ فكريةٍ تربويةٍ تحليليةٍ ما استطعت لذلك سبيلًا، لعلي أُشَكِّلُ بعض القناعات من أجل تقريب الحقيقة التي أهدف

الوصول إليها. فإن وفقت في مسعاي فذلك من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علي، وإن كان غير ذلك فهي محاولةٌ نحو طريق البناء التربوي في عالم الفكر الإسلامي الشامل جمعًا بين الأصالة والتجديد.

وأخيرًا، فإني أسأل المولى القدير أن يسدد كتابي هذا وأن يشرح صدري بالقدر الذي أخلصت فيه لربي، إنَّه عليمٌ بذات الصدور. وصَلَّى الله وسَلَّمَ على الحبيب محمدٍ وعلى آله وصحبه ومن سلك هديه إلى يوم الدين.

مفهوم الفكر التربوي

يُعَدُّ مصطلح الفكر الإسلامي بشكلٍ عامٍ من المصطلحات الجديدة التي لم تكن معروفةً عند القدماء، وهو يَختَصُّ بكل «ما أنتجه فكر المسلمين عبر العصور من المعارف الكونية العامَّة المتصلة بالله ﷻ والعالم والإنسان، والذي يُعَبِّرُ عن اجتهادات العقل الإنساني في تفسير تلك المعارف في إطار المبادئ الإسلامية في العقيدة والشريعة والسلوك»[١]. وقيل أيضًا بأنَّ الفكر الإسلامي يشمل «المحاولات العقلية والجهود العلمية التي بذلها المسلمون منذ انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وذلك من أجل فهم الإسلام وعرضه ومواجهة المشكلات الواقعية وفق أصوله ومبادئه»[٢].

أمَّا الفكر التربوي الإسلامي، فنعني به التصور الشامل لعناصر المنهج الرباني والفقه التربوي الأمثل لنصوص الوحي (من الكتاب والسُّنَّةِ) من أجل استنباط واستخراج القيم التربوية الشاملة وتفعيلها في واقع المسيرة التربوية وفق أفضل الأساليب والوسائل الممكنة، وذلك من أجل تحقيق كمال الأداء جمعًا بين التأصيل والتجديد.

ويبدو أنَّ الفكر الإسلامي يُعَبِّرُ عن النتاج المعرفي الشامل الذي قام به المسلمون والذي امتدَّ زمنه حتى يومنا هذا. وتضمن هذا النتاج فهم الإسلام، وتكوين المعارف المتصلة به، ومواجهة المشكلات الواقعية التي مازجت حياة المجتمعات في ضوء الأحكام الشرعية التي حكمت أداء النَّاس.

---

[١] الفكر الإسلامي: تقويمه وتجديده، محسن عبد الحميد، ص ٧.

[٢] محاضرات في التربية الإسلامية، راشد رشوان، ص ٧٨.

وينبغي هنا التمييز بين الإسلام والفكر الإسلامي، فالإسلام كيانٌ مستقلٌّ بذاته حدوده الوحي الإلهي ونصوصه محفوظةٌ موثقةٌ تنظم حياة الإنسان على أكمل وجهٍ، وهي قادرةٌ على مواجهة المستجدات. ولا يوقف الإسلام عن غايته اتساع مكانٍ أو امتداد زمانٍ. وهناك من يرى بأنَّ الإسلام -ضمن مصدرية الكتاب والسُّنَّةِ- هو اللغة الإلهية، وهي «لا تقع تحت تأثير الزمان والمكان ولا تحت تأثير التطور، وهي لغةٌ خالدةٌ لا يعتريها القِدَمُ ولا تقع تحت قوانين الحياة والموت، وإنما تستوعب الحياة وتمدها بالجدَّة والحيوية، وهي لغةٌ غنيةٌ شاملةٌ يستطيع كل جيلٍ من الأجيال البشرية أن يستخرج منها المعاني والتوجيهات التي تشبع حاجاته وتطلعاته القائمة»[١].

أمَّا الفكر الإسلامي فأساسه الوحي الإلهي وظلاله عطاء العقل البشري وتصورات النَّاس واجتهادات المجتهدين التي نتج عنها ذلك التراكم المعرفي الذي نما وتوسع عبر القرون. فهو إذًا جهدٌ بشريٌّ ومحاولةٌ عقليةٌ لفهم النصوص، ومن ثَمَّ جعلها فاعلةً في حياة النَّاس ضمن حتمية المتغيرات التي تفرز بين الحين والآخر ما يسمَّى بالمستجدات. وفي ضوء هذا يصبح فقه واقع الناس أمرًا لازمًا للفقه الإسلامي الشامل نتيجةً لتفاوت الأفهام والعقول والأزمنة واختلاف نمط التفكير من جيلٍ لآخر.

ويستحيل تصور الفكر الإسلامي على أَنَّهُ الإسلام ذاته، لأنَّ الإسلام يمثل الثبات ولا يطرأ عليه التغيير والتبديل، خصوصًا وأنَّ الله ﷻ قد تكفل بحفظه، قال تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

---

[١] فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، ص ٢٧٢.

ﱡٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَﱠ [الحجر: ٩]. أمَّا الفكر الإسلامي فهو في الغالب يتأثر بالمتغيرات وإن كانت أصوله ثابتةً. ويعزو بعض الباحثين سبب ذلك إلى أَنَّ:

١- الفكر البشري على عمومه يكتنفه القصور وهذا أحد براهين نفي العصمة عن غير الأنبياء، والفكر الإسلامي جزءٌ من هذا الفكر البشري.

٢- الفكر الإسلامي محكومٌ بزمانه لدى كل جيلٍ، فمهما كانت بصيرة المفكِّر نافذةً نحو المستقبل، فهي محكومةٌ بقدراته المحدودة.

٣- الفكر الإسلامي مطالبٌ بقضايا زمانه، ومن المعلوم والمقطوع بعلمه أن لكل زمانٍ قضاياه ومشكلاته وسياساته.

٤- استقراء التاريخ والواقع دَلَّ على ركود الفكر الإسلامي وتقادمه في فتراتٍ عديدةٍ، ولذلك فإنَّ من أخطر الأمور أن تتحول الأفكار والحلول الآنية إلى دينٍ مقدسٍ لأنَّ ذلك سيؤدي إلى إقحام الفكر البشري في الوحي الإلهي[١].

إِنَّ رحلتنا لا تنتهي عند عطاء الأقدمين، ولعلمائنا السابقين التقدير وليس التقديس. إننا نحترم عطاءهم ولكن لا نجعله نهاية مطاف الاجتهاد، فرحمهم الله ﷻ على ما قدموه للأمة ورحم الله من أضاف خيرًا إلى خيرهم، فصوابهم مشكورٌ وخطؤهم مردودٌ، ولا عصمة من الخطأ إلَّا لمن كان معه وحي الله ﷻ وقد انقطع بعد وفاة الحبيب محمد ﷺ؛ فلا عصمة لمخلوقٍ بعده ولا تقديس إلَّا للثابت من شرعه، والحَقُّ أجدر بالاتباع والباطل أجدر بالاجتناب، ولا يعلو على الحَقِّ إِلَّا الأَحَقُّ، فمن كان معه الحَقُّ فله الفوقية ومن كان دونه كان الأدنى، ولا عبرة بالمواقع

[١] انظر: تجديد الفكر الإسلامي، محمد ابراهيم الكتاني وآخرون، ص ١٨/١٩.

على حساب المواقف، فلربَّ موقفٍ لله ﷻ ساد فيه صاحبه على غيره، والأمور بمقاصدها والأعمال بنياتها.

نظرة عامة في مسيرة الفكر التربوي

تأثر الفكر التربوي عند العرب قبل الإسلام بشكلٍ كبيرٍ بنمط حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حيث هيمنت العادات والتقاليد على نمط سلوكهم الاجتماعي والتربوي، ولم تشهد أرضهم تطورًا حضاريًّا ملحوظًا خلافًا لما كانت عليه دولتا فارس والروم. لقد شهد العرب كثيرًا من الممارسات السلبية بسبب التخلف الحضاري الذي مازج حياتهم والصراعات القبلية التي أودت بكياناتهم، ومن هنا فإنَّ القرآن الكريم يقرر واقع النقلة الحضارية التي عاشها المجتمع العربي بعد أن مَنَّ الله ﷻ عليه برسالة الإسلام، قال تعالى:﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومن هنا فقد أدرك أفراد المجتمع آنذاك حجم الانقلاب الحضاري الذي أحدثه الإسلام ومدى تأثيره في حياة الفرد والجماعة. فبالإسلام أشرقت شمس الحضارة والقيم على أرض الجزيرة العربية، وأحدث الدين الجديد آثارًا تربويةً لا نظير لها في حياة الشعوب؛ فمن غير المعقول أن يصبح البدوي –الذي مازجت أنفاسه رمال الصحراء وعصفت به رياح الجاهلية وبراثين الوثنية– سَيِّدَ الحضارة ومنبع الثقافة والنهضة، خصوصًا بعدما أزالت تعاليم الإسلام عجمة العرب الحضارية فأخرجتهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم ومن همجية الممارسات إلى مثالية السلوك.

يقول قتادة بن دعامة السدوسي البصري[١]:«كان هذا الحي من العرب أكثر الناس ذلًّا، وأشقاه عيشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينه ضلالًا. من عاش معهم عاش شقيًّا، ومن مات منهم ردى في النار، يُؤكَلُونَ ولا يَأكُلُونَ، والله ما نعلم قبيلًا من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أَشَرَّ منزلًا منهم حتى جاء الله بالإسلام فَمَكَّنَ به في البلاد ووَسَّعَ به في الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله مارأيتم فاشكروا الله على نعمه فإنَّ ربكم منعمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيدٍ من الله»[٢].

ومنذ بداية الرسالة الإسلامية، شرع النبي ﷺ يعلم الناس أمور دينهم ويرسي لهم قواعد العلم والمعرفة، قال تعالى:﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، فكان التعليم الإسلامي جسر العباد إلى معرفة أحكام الدين ووسيلة الأتباع إلى تحقيق العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأكمل صورها المقدَّرة في حياة البشر. ولقد حوت الرسالة الإسلامية جمهرةً كبيرةً من النصوص التي تحث على التعلم وترغب في طلبه، ولا يسعنا ذكرها هنا لكثرتها وتنوعها، ويمكن لمن أراد الاطلاع على بعضها مراجعتها في مصادرها ومراجعها[٣].

---

[١] من أعلام المفسرين والمحدثين (توفي سنة ١٨٨هـ)، انظر ترجمته في: البداية والنهاية لابن كثير ٣١٣/٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٦٩/٥-٢٧١.

[٢] تفسير ابن كثير ج٢/ص٣٠١.

[٣] راجعها: في القرآن الكريم (سورة آل عمران: آية ٧، ٨١، ٩٧؛ وفي سورة النساء: آية ١٦٢؛ وفي سورة الكهف: آية ٦٥؛ وفي سورة يوسف: آية ٦، ٦٨، ٧٦؛ وفي سورة الإسراء: آية ١٠٧؛ وفي سورة النمل: آية ٤٠؛ وفي سورة القصص: آية ٨٠؛ وفي سورة العنكبوت: آية ٤٩؛ وفي سورة المجادلة: آية ١١؛ وفي

إِنَّ مسيرة التعليم في الإسلام بدأت منذ اللحظات الأولى من الدعوة، فجاءت افتتاحية هذا الصرح العظيم في ذلك الإعلان الرباني الذي هتف به الوحي الإلهي في غار حراء، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، فارتكز هذا الصرح منذ أول يومٍ على أسسٍ ثابتةٍ وقيمٍ راسخةٍ.

وهكذا انطلق رسول الله ﷺ يعلم أصحابه ما يتلقاه عن ربه سبحانه وتعالى على الرغم من الصعوبات التي كانت تواجهها الجماعة المستضعفة من المسلمين على أرض مكة المكرمة. وكانت الدعوة إلى الإسلام ومواجهة المجتمع بحقيقة الدين الجديد وبلورة عقيدته تمثل المحور الأساس في حركة التعليم في مكة المكرمة لأنَّ الحالة السياسية هناك وهيمنة المشركين على زمام الأمور لم تفسح المجال لعناصر التعليم الإسلامي لأن تتبلور بالصورة التي شهدتها بعد ذلك في المدينة المنورة.

ودخلت التربية الإسلامية مرحلةً جديدةً بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، وبدأت عناصرها تأخذ دورها الطبيعي في ظل دولة الإسلام. وقد سارع النبي ﷺ منذ وصوله إلى المدينة المنورة إلى بناء مسجد قباء الذي وردت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ثُمَّ تلاه بالمسجد النبوي الشريف. وبذلك فقد دخل المسجد تاريخ مسيرة الفكر التربوي الإسلامي واستمر تأثيره التربوي إلى يومنا هذا.

سورة طه: آية ١١٤؛ وفي سورة فاطر: آية ٢٨). وفي السنة النبوية: صحيح البخاري: ١/٢١-٤٢؛ وجامع العلوم والحكم لابن عبد البر ١/٧-٥٩ (حيث جمع أحاديث كثيرة عن منزلة العلم ومعلمه وطالبه)، ومدارج السالكين لابن القيم ٢/٤٦٤-٤٨١.

وكان المزيج الاجتماعي الإيماني في المدينة المنورة -المكوَّن من الأنصار والمهاجرين وممن دخل معهم في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- هو لحمة المجتمع المدني، وكانت جهود هؤلاء عظيمةً في إرساء قواعد الدولة ونشر دعوة الإسلام وكذا نقل الموروث المعرفي الذي تلقوه عن الرسول ﷺ إلى النَّاس، قال تعالى في الثناء عليهم:﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

أَمَّا في عصر الخلفاء الراشدين، فقد أخذت الدائرة التربوية والتعليمية طريقها في التوسع حيث تعددت مراكزها بانتشار الصحابة في الأمصار، وكان لهم دورٌ كبيرٌ في تعليم النَّاس أمور الدين الإسلامي وإتمام المسيرة التي أرسى قواعدها نبينا الكريم ﷺ، فقد كان الدافع التعليمي عندهم دينيًّا خالصًا، يُبتغى من ورائه وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والدار الآخرة.

وبعد الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، واصل علماء التابعين المسيرة التربوية، واتسمت موضوعات التعليم في عصرهم بسمةٍ مشابهةٍ لتلك التي كانت في عصر الصحابة وذلك بسبب التداخل والتقارب بين الجيلين وقوة الاتصال التعليمي بينهم من غير فوارق زمنيةٍ أو مكانيةٍ في غالب الأحيان، حيث كان من اليسير على التَّابعي أن يلتقي بأصحاب رسول الله ﷺ.

وبقيت التشعبات في موضوعات التعليم الإسلامي في عصر التابعين يسيرةً إذا ما قورنت بالتنوع المتزايد الذي شهدته العصور التي تلت عصرهم، فبعض العوامل التي أدت إلى توسع دائرة الفكر التربوي بعد عصرهم -مثل نشأة الجوامع الكبيرة ومؤسسات التعليم الأهلية أو الحكومية- لم تكن مُهَيَّأَةً في عصرهم بمثل تلك الصورة. أمَّا من حيث سمة الفكر التربوي في عصر التابعين،

فقد كان الطابع الفقهي هو الأظهر في هذا العصر الذي اعتمد فيه العلماء الأصول الفقهية في الاستنباط والتنظير. وأمَّا العقيدة الإسلامية، فقد كانت تمثل أساس ومنطلق الحركة الفكرية.

وبسبب عالمية الرسالة الإسلامية، فقد وسعت خيمة التعليم جميع أصناف البشر بكل طبقاتهم بغض النظر عن الألوان والأجناس. ولهذا فإننا نجد أنَّ كثيراً من فقهاء الأمصار في جيل التابعين كانوا من الموالي[١]. ومن الشواهد على ذلك أنَّ عثمان بن أبي عطاء روى عن أبيه أنه قال:«دخلت على هشام بن عبد الملك بالرصافة فقال: يا أبا عطاء، هل لك علمٌ بعلماء الأمصار؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين، قال: فمن فقيه أهل المدينة؟ قلت: نافع مولى بن عمر، قال: فمن فقيه أهل مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا بل مولى، قال: فمن فقيه أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا بل مولى، قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟ قلت: يحيى بن كثير، قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا بل مولى، قال: فمن فقيه أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا بل مولى، قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا بل مولى، قال: فمن فقيه أهل خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا بل مولى، قال: فمن فقيه أهل البصرة؟ قلت: الحسن وابن سيرين، قال: موليان أم عربيان؟ قلت: لا بل موليان، قال: فمن فقيه أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي، قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا بل عربي، قال: كادت تخرج نفسي ولا تقول واحدًا عربيًّا»[٢].

---

[١] وهو الاسم الذي أطلقه المؤرخون على غير العرب.

[٢] بغية الطلب في تاريخ حلب ج١٠/ص٤٥٢٨.

وكان للمؤسسات التربوية التي سبقت ظهور المدارس الإسلامية أثرٌ واضحٌ في تحقيق الأهداف التربوية والتعليمية. فمثلًا، ساهمت دار الحكمة التي أنشأها الخليفة العباسي المأمون[١] في مدينة بغداد في تنشيط حركة الثقافة؛ فقد ضمَّت أُلُوفًا من الكتب المتنوعة جُمِعَت لها من مختلف المدن والأمصار، وقام العلماء فيها بالنسخ والترجمة وتدريس مجموعةٍ من العلوم. وبقيت هذه الدار تؤدي دورها الثقافي حتى سقطت بغداد على يد هولاكو في القرن السابع الهجري.

وساهمت المكتبات الإسلامية في رفد حركة التعليم حيث زُوِّدَت بها المساجد والمدارس ودور العلم، وأُنشِئَت الخوانق والزوايا والربط وأَمَّهَا كثيرٌ من طلبة العلم، فكانت عاملًا مساعدًا يَسَّرَ على الطالب مواصلة تعليمه وتحقيق مبتغاه من طلب العلم. وساهم أيضًا العلماء والموسرون بقسطٍ كبيرٍ في دعم حركة التعليم وذلك من خلال إنشائهم للمدارس والمؤسسات الإسلامية والنفقة عليها. وحظي التعليم بدعمٍ كبيرٍ من قبل الدولة وبدأ ذلك يتبلور بوضوحٍ في منتصف القرن الخامس الهجري عندما أنشأ الوزير السلجوقي نظام الملك[٢] مدارسه النظامية، وكانت أشهرها المدرسة النظامية بمدينة بغداد.

وكان لوجود مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية الذي كفلته العدالة الاجتماعية في الإسلام أثرٌ واضحٌ في إثراء الفكر التربوي الإسلامي وتحقيق أهدافه إذ هيأ فرصة التعلم بل والإبداع والتميز

---

[١] هو عبد الله بن هارون الرشيد (انظر ترجمته في: تاريخ الطبري ٤٧٨/٨، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٤٤/١، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٢٧٢/١٠، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٠٦).

[٢] هو الحسن بن إسحاق بن العباس الطوسي الشافع، الذي تُنسَبُ إليه المدارس النظامية. وُلِدَ بطوس سنة (٤٠٨ هـ) وتوفي سنة (٤٨٥هـ) على مقربةٍ من نهاوند حيث اغتاله رجل ديلمي (انظر ترجمته في: وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٩/١، والبداية والنهاية لابن كثير ١٤٠/١٢، والأعلام للزركلي ٢٠٢/٢).

للجميع. ولقد أحدث وجود الحرية التعليمية التي كان يتمتع بها طالب العلم في اختيار المادة التي يرغبها والشيخ الذي يأنس فيه العلم والفضل تنافسًا شديدًا في الإقبال على العلم والرغبة في الاستمرار في تحصيله. وساعد ذلك أيضًا على تنمية المواهب وتفجير الطاقات، ومن ثَمَّ الإبداع في مجال التعليم والتأليف.

لقد كانت مسيرة الفكر التربوي الإسلامي قديمًا تمثل انعكاسًا حقيقيًّا لتفاعل الوعي الإسلامي مع واقع الحياة. أمَّا القرون الثلاثة الأولى –وهي القرون المشهود لها بالخيرية[١]– فقد كانت تمثل الواقع المثالي للفكر التربوي الإسلامي، حيث بلغ فيها سلوك المجتمع أعلى درجات الفهم والأداء في منهج الله سبحانه وتعالى.

وبسبب ما حَلَّ بالعالم الإسلامي من نكباتٍ –كان أشدها سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد في القرن السابع الهجري– فقد ضعفت مسيرة الفكر وساد الجهل بين أبناء المسلمين، وهوت الحياة الثقافية إلى أدنى مستوياتها حتَّى بات العالم الإسلامي على حافة الهاوية وأخذ الشموخ الحضاري لأمة الإسلام يتضاءل، خصوصًا بعدما أُحرقت وأُغرقت المكتبات وقُتِلَ العلماء والأئمة والخطباء.

وبالرغم من كل ما حدث، فالله سبحانه وتعالى لم يدع الأمة تستقر على ما آلت إليه من أوضاعٍ، فبعث من يعيد لها الأمل بعد انهيار كيانها ودمار سلطانها وخراب أرضها، فبدأت حركات النهضة الإسلامية بالتململ والنمو البطيء بالرغم من صعوبة الحال، لكنَّ نواميس الله سبحانه وتعالى وأقداره في

---

[١] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خَيرُكُم قَرنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»، صحيح البخاري ج٥/ص٢٣٦٢، وصحيح مسلم ج٤/ص١٩٦٤.

الأمة تجعل بعد العسر يسرًا وبعد الكربة تفريجًا. ولقد تقدَّم طريقَ الإصلاح جمهرةٌ من العلماء الصادقين والدعاة العاملين، فتصدروا مسيرة الفكر التربوي الإسلامي وأرسوا قواعد التجديد وأعادوا الوعي الثقافي إلى ميادين ومؤسسات التربية والتعليم.

وفي القرون المتاخمة لقرننا الحالي، بدأت معالم المد والجزر للفكر الإسلامي تلوح في الأفق، فكانت النهاية أن تُوِّجَت جهود الأعداء ومؤامرات الكائدين لدين الله سبحانه وتعالى في إزالة المظلَّة الأخيرة للخلافة الإسلامية وذلك بإسقاط الخلافة العثمانية. فبدأ الاتجاه التغريبي في ميادين التربية والتعليم يتنامى واتسعت دائرته إلى حد مخيفٍ، وتعاظم الفكر العلماني العلماني حتَّى انتشر في أوساط الطبقة المثقفة كانتشار النار في الهشيم! وسعى أيضًا الاستعمار الغربي إلى وضع برامج ومخططاتٍ هدفت إلى محو معالم التربية الإسلامية فعبث في مناهج التعليم وأدخل فيها ما يُحَقِّقُ أهدافه وغاياته، فكانت له الهيمنة على مقدرات الأمة والسيطرة على مفاصل السياسة والحكم والتحكم في حياة الناس، فعاشت الأمة الإسلامية إثر ذلك حالةً من الفوضى الفكرية واضطراب المفاهيم واختلال القيم.

وفي مسيرة التأصيل والتجديد، فقد أصبح من الضروري ضبط المصطلحات المتصلة بالواقع التربوي للأمة وبيانها بطريقةٍ تنسجم مع خصائص وسمات فكرنا التربوي الإسلامي. وإذا أردنا أن نسلك طريق التغيير نحو الأفضل، فلا بُدَّ لنا من فهمٍ سليمٍ وشاملٍ لعناصر الفكر التربوي الإسلامي من أجل توعية المصلحين قبل غيرهم لأنَّ الفهم الصحيح هو الذي يوجه الأمة نحو النجاة ويبعث في عروقها روح الحياة؛ وبسبب غياب الفهم الدقيق لعناصر الفكر الإسلامي، فقد تبددت جهود الأمة وهُدرت طاقاتها. ولذلك فقد أصبحت الحاجة شديدةً إلى فقهٍ عميقٍ

شاملٍ ومتوازنٍ نتوسط من خلاله بين الأخذ والأداء بغية الحيلولة دون حدوث خللٍ في التعامل مع الواقع.

ومع أنَّ الواقع التربوي قد أحيط بكمٍّ هائلٍ من التراكمات المعرفية التي كان مبعثها عطاء ماضينا، إلَّا أنَّ مخلفات الفكر التربوي الغربي عسرت تأصيل وتجديد عناصر الفكر عندنا. لقد شغل هذا الاضطراب التربوي حيزًا كبيرًا من مخاوفنا، وشهد واقع الأمة خللًا واضحًا في مسيرتها التربوية والتعليمية حتَّى بات من العسير تجاوز الأزمة التربوية بأطروحاتٍ عارضةٍ تنقصها الدراية والمنهجية وتغيب عنها الرؤية السديدة. ونشأت في ظل هذا الواقع الأزمات الثقافية وزادت ممارسات السَّاسة في كبت حريات الناس وخاصَّةً أهل الإبداع والتميز منهم، فدفع هذا الوضع المؤلم بالعقول النيرة إلى أن تعمل في غير أرضها وتبدع في غير واقعها، إمَّا بسبب هجرتها أو تهجيرها!

تعزيز فقه الواقع في ضوء الفكر التربوي الإسلامي

نعني بفقه الواقع الفهم الدقيق لحياة الناس ضمن خصائصهم وسماتهم وفي ضوء تفاعلهم مع منهج الله سبحانه وتعالى، وذلك لإيجاد أكبر قدرٍ ممكنٍ من التفاعل بين متطلبات المنهج وبين أداء المكلَّفين من أجل تحقيق أعلى مراتب العبودية لله سبحانه وتعالى. لقد اهتمَّت الشريعة الإسلامية بهذا الجانب وأولته رعايةً كبيرةً في تقرير الأحكام، فلا يمكن إغفال ذلك في فقه الدين والتدين وواقع التعامل مع أحكامه. فمثلًا: كانت الغاية من تقرير جواز الإفطار في المرض أو السفر هو تيسير أمور العباد بسبب تغير ظرفهم وحالهم، فالأصل في الحكم هو الصيام والاستثناء هو الإفطار، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ فحال المقيم غير حال المسافر، ولذلك تقرر الحكم الآخر المرتبط بظرفه ليتحقق مراد الله سبحانه وتعالى المتفق مع مصالح عباده، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

واللفظ القرآني الذي جاء في هذه الآية هو «بِكُم» وليس «لَكُم»، فاللامُ لَامُ المصلحة وقد تخص ذات الشخص الذي أخذ بالرخصة. وأمَّا البَاءُ في كلمة «بِكُم» فهي متصلةٌ بالأداة، فإذا قال أحدهم «كتبت بالقلم»، فالقلم يرمز للأداة التي كتب بها القائل؛ ومن هنا نفهم أنَّ الحَقَّ سبحانه وتعالى أراد منَّا حينما نأخذ بالرخصة أن نكون قدوةً لغيرنا في التيسير على عباده، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، فالدين أصله التيسير، ومن سلك طريق التعسير على العباد فقد خالف الأصل وتجاوز المصلحة لأنَّ أحكام الله سبحانه وتعالى ترتبط بمصالح العباد.

وهذا الأمر يشمل كذلك حكم تخفيض عدد الركعات في الصلاة بالنسبة للمسافر وعدم وجوب صيام شهر رمضان بالنسبة للمرأة الحامل حفاظًا عليها وعلى جنينها، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَضَعَ عَنِ المسَافِرِ الصَّومَ وَشَطرَ الصَّلَاةِ وَعَنِ الحَامِلِ أَوِ المرضِعِ الصَّومَ»[١]. ويشمل هذا الأمر أيضًا حكم الهدي في الحج، قال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وهكذا بيَّنت الآية الكريمة أنَّ الحكم الآخر قد ترتب عند عدم المقدرة على أداء الحكم الأول المذكور في الآية. وجاءت القواعد الفقهية الكلية -مثل قاعدة «المشقة تجلب التيسير أو كلما ضاق أمرٌ اتسع»- مبنيةً على النصوص والشواهد الصحيحة من كتاب الله ﷻ وسنَّة رسوله الكريم ﷺ.

وهناك بعض الأحداث في السيرة النبوية التي عززت ضرورة اعتبار مصالح العباد في الأخذ بالأحكام وفق القاعدة الأصولية التي تقول «الضرورات تبيح المحظورات»، ومن ذلك ما روي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: «احتَلَمتُ فِي لَيلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ فَأَشفَقتُ أَن أَغتَسِلَ فَأَهلِكَ، فَتَيَمَّمتُ ثُمَّ صَلَّيتُ بِأَصحَابِي الصُّبحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا عَمرُو، وَصَلَّيتَ بِأَصحَابِكَ وَأَنتَ جُنُبٌ؟ فَأَخبَرتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الاغتِسَالِ وَقُلتُ إِنِّي سَمِعتُ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ

---

[١] سنن أبي داود: كتاب الصوم، رقم الحديث (٢٤٠٨)؛ وسنن النسائي: كتاب الصيام، باب ذكر وضع الصيام عن المسافر، رقم (٢٢٧٤)؛ وسنن الترمذي: باب ما جاء في الرخصة في الإفطار للحبلى والمرضع، رقم (٢٢٧٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ وَلَم يَقُل شَيئًا»[١]؛ فدلَّ ضحكه على إقراره لاجتهاد عمرو بن العاص رضي الله عنه ورضاه بما فعل باعتبار حكم الضرورة ومراعاة الواقع.

ومما لا شكَّ فيه، فإنَّ لمراعاة الطبيعة البشرية للإنسان اعتبارٌ عند الشارع في تقرير الأحكام التي جاءت متناغمةً مع هذه الطبيعة ضمن حدودها وطاقاتها وذلك من رحمة الله سبحانه وتعالى بالعباد، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وضمن واقع صفاتها كما أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦]، وفي قوله أيضًا: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. فبالرغم من أنَّ طبيعة المنهج الإلهي تمثل صورةً مثاليةً رفيعةً تهدف إلى تحقيق الكمال البشري، إلَّا أنَّ المكلَّف مهما ارتقى في الأداء فسيبقى متأثرًا بعوامل أخرى، ولهذا لزم أن يكون الاجتهاد في الأحكام ضمن فقه الواقع من أجل تمكين العباد من أداء التكاليف في حدود طاقتهم؛ فخير العباد بعد رسول الله ﷺ هم أصحابه رضي الله عنهم وهم الذين برهنوا صدق التعامل مع منهج الله سبحانه وتعالى في أتم وأكمل صورةٍ قُدِّرت لأجيال المكلفين. ومع ذلك فإنهم لم يسلموا من التأثر بالعوامل البشرية التي أحدثت خللًا ولو يسيرًا على أرضية التطبيق، ولقد خاطبهم الله سبحانه وتعالى بعد معركة أُحُدٍ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

---

[١] صحيح البخاري ١/٤٥٤، باب: إذا خَافَ جُنُبٌ على نفسه ... يتيمم.

إنَّ المجتمع البشري -مهما بلغ في سُلَّمِ الطاعات- فهو مزيجٌ من الصفوة التي تلتزم المثل العليا ومن هم دون ذلك مِمَّن يُحَقِّقُ صفة الإسلام، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنَّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال: «أَرَأَيتَ إِذَا صَلَّيتُ المكتُوبَاتِ، وَصُمتُ رَمَضَانَ، وَأَحلَلتُ الحَلَالَ، وَحَرَّمتُ الحَرَامَ، وَلَم أَزِد عَلَى ذَلِكَ شَيئًا، أَأَدخُلُ الجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيئًا»[١].

ضرورة فقه الواقعة من خلال السؤال والاستفسار:

يصعب إصدار الحكم لمجرد ظاهر الصفة، وإن كان الحكم على الواقعة وفق ظاهرها لا خلاف فيه إلَّا أنَّ بعض أحكام الشريعة راعت فقه الواقع في وجهة الحكم. ففي عصر السيرة النبوية كان رجلٌ من الأنصار يَؤُمُّ الناس في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورةً يقرأ لهم بها في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤] حتى يفرغ منها ثم يقرأ سورةً أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعةٍ، فكلمه أصحابه فقالوا: «إِنَّكَ تَفتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجزِؤُكَ حَتَّى تَقرَأَ بِأُخرَى، فَإِمَّا أَن تَقرَأَ بِهَا وَإِمَّا أَن تَدَعَهَا وَتَقرَأَ بِأُخرَى، فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِن أَحبَبتُم أَن أَؤُمَّكُم بِذَلِكَ فَعَلتُ، وَإِن كَرِهتُم تَرَكتُكُم، وَكَانُوا يَرَونَ أَنَّهُ مِن أَفضَلِهِم، وَكَرِهُوا أَن يَؤُمَّهُم غَيرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُم النَّبِيُّ ﷺ أَخبَرُوهُ الخَبَرَ، فَقَالَ: يَا فُلَان، مَا يَمنَعُكَ أَن تَفعَلَ مَا يَأمُرُكَ بِهِ أَصحَابُكَ؟ وَمَا يَحمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكعَةٍ؟ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ: حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدخَلَكَ الجَنَّةَ»[٢].

---

[١] صحيح مسلم ١/٤٤.

[٢] صحيح البخاري ٣/٣٤٧، وصحيح مسلم ١/٥٥٧، والترمذي (٢٩٠١) واللفظ له.

ولا يخفى علينا ذلك البعد التربوي في أسلوب رسول الله ﷺ وهو يعالج هذا الموقف ليؤكد لأصحابه رضي الله عنهم أهمية الوقوف عند مقاصد العباد قبل إصدار الحكم عليهم، فصحة الحكم لا تكون إلا بعد كمال التصور. لقد حالت محبة سورة الإخلاص في قلب الصحابي الجليل رضي الله عنه دون وقوع اللوم عليه، ولم يكن ذلك ليتحقق إلَّا بعد سؤال رسول الله ﷺ وهذا من فقه الحدث الذي يمثل صورةً من صور الواقع. وفي بعض الأحيان، يكون لفقه الواقع أثرٌ كبيرٌ في تغيير وجهة الحكم لتقرير حكمٍ آخر رغم وجود النص الدال على الحكم الأول وذلك مراعاةً لضرورة واقع الحدث، فأحكام الله سبحانه وتعالى قد تقررت لمصلحة العباد ولتيسير حياتهم، قال تعالى:﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إنَّ أحكام الله سبحانه وتعالى «ما شُرعت إلَّا لمصالح العباد، وحيثما وُجدت المصلحة فَثَمَّ شرع الله»[١]، ولا شكَّ أنَّ شريعة خالقنا سبحانه وتعالى «كلها مصالحٌ، إمَّا درء مفسدةٍ أو جلب مصلحةٍ»[٢].

وعن جابرٍ بن عبد الله رضي الله عنه قال:«خَرَجنا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأسِهِ ثُمَّ احتَلَمَ فَسَأَلَ أَصحَابَهُ وَقَالَ: هَل تَجِدُونَ لِي رُخصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ قَالُوا مَا نَجِدُ لَكَ رُخصَةً وَأَنتَ تَقدِرُ عَلَى الماءِ، فَاغتَسَلَ فَمَاتَ. فَلَمَّا قَدِمنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَخبَرنَاهُ بِذَلِكَ فَقَالَ:قَتَلُوهُ قَتَلَهُم الله، أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَم يَعلَمُوا

---

[١] الموافقات، للشاطبي ٦/٢.

[٢] القواعد، للعزِّ بن عبد السلام ٩/١.

فَإِنَّمَا شِفَاءُ العَيِّ السُّؤَال؟ وَإِنَّمَا كَانَ يَكفِيهِ أَن يَتَيَمَّمَ ويَعصِبَ عَلَى جُرحِهِ خِرقَةً ثُمَّ يَمسَحَ عَلَيهَا وَيَغسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ»[١].

لم يكن الصحابة رضي الله عنهم يجهلون حقيقة هذا الحكم، ولكن الخطأ كان في الاجتهاد اللازم لمراعاة ظرف الحدث ومقتضى التيسير على الصحابي رضي الله عنه. ومن هنا فقد عكست الرواية ما يلي:

أَوَّلًا: جاء سؤال الصحابي رضي الله عنه عن الرخصة في التيمم لاعتقاده أنَّ الأمر يتطلب ذلك إذ العبرة ليست بوجود الماء فحسب، بل بوجوده مع إمكانية استعماله من غير ضررٍ على المكلَّف.

ثانيًا: كان سؤال الصحابي رضي الله عنه عن الحكم نابعًا من شدة حرصه على كمال الأداء الشرعي في مراعاة أحكام الله سبحانه وتعالى، وهو الأمر الذي عكس فاعلية تقوى الله سبحانه وتعالى في قلوب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستحكامها على سلوكهم وأدائهم.

ثالثًا: إنَّ اجتهاد أصحاب الفتوى لا يخلو في ظاهره من الاستناد إلى القاعدة الشرعية التي تقول: «إذا وُجد الماء بطل التيمم»، ولكنَّ الأمر الذي جعل الحكم يتغير ضمن تقرير الشارع هو واقع الحدث الذي لم يراعى من قبل أصحاب الفتوى في هذه الحادثة، فدلَّت فتواهم على جهلهم بشمولية مقتضيات الحكم، وهو المعنى الذي نفهمه من قوله صلى الله عليه وسلم فيهم:«أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَم يَعلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ العَيِّ السُّؤَال؟». فلا بُدَّ إذًا من فقه الحدث والسؤال عمَّا أشكل فيه قبل التصدر للفتوى؛ وأعني هنا ضرورة الجمع بين الدرايتين: دراية النص «أو فقه الحكم» ودراية العمل بالنص «أو فقه الواقع».

[١] سنن أبي داود، رقم الحديث (٣٣٧- ٣٣٦)، وذكره الألباني في صحيح سنن أبي داود ٦٨/١، رقم (٣٢٥-٣٢٦).

بين الأصالة والتأصيل

كَثُرَ الحديث بين الناس عن مصطلح «الأصالة» وذهبوا في تعريفها مذاهب شتَّى، بين علمانيٍّ لا يرى في الدين والعقيدة أساسًا لأصالة الأمة وبين متشددٍ في الدين يريد أن يجعل من الماضي صورةً شاخصةً تعيش حاضر الناس -بالرغم من وجود التغير الكبير في واقع البشر والتبدل الهائل في نمط حياتهم- فألبس القديم هالةً تحول دون التجديد والإبداع. ومن هنا فقد بات من الضروري بيان هذا المصطلح ضمن المفهوم الذي ينسجم مع الثوابت في منطلقات الأمَّة وبين ما هو قابلٌ للتغيير والتجديد، بعيدًا عن التقوقع المخلِّ أو الانفلات المضل.

ويعني مصطلح «الأصل» في اللغة أسفل كل شيءٍ، وجمعه أصولٌ. وأَصُلَ الشيء أي صار ذا أصلٍ، ويقال: رجلٌ أصيلٌ، أي ثابت الرأي عاقلٌ، ويقال مجدٌ أصيلٌ أي: ذو أصالةٍ، وتأصيل الشيء هو جعله ذا أصلٍ ثابتٍ، وتأصيل النسب هو تبيان أصله وأصالته[١].

وفي الاصطلاح نعني بالتأصيل التوجه نحو أصالة الأمة وتفعيلها في أرض الواقع لنجعل منها قيمًا مؤثرةً في حياة الناس وممارساتهم، فيمتد الحاضر نحو ماضيه ويتصل به امتداد قيمٍ لا امتداد زمنٍ.

ومن هنا ينبغي الحذر من أن يجرنا عشق الماضي إلى عزلةٍ ممقوتةٍ فنعيش الوحشة مع الواقع وبالتالي التقوقع على الذات. إنَّ كياننا لا يقوى إلَّا بتفعيل وجودنا مع غيرنا مع الحفاظ على سماتنا وخصائصنا؛ ولذلك فإننا نريد تأصيلًا يجعلنا أُمَّةَ تآلُفٍ مع الحياة لا أُمَّةَ تنافرٍ وتعاندٍ معها حتَّى نستطيع التواصل مع الشعوب والأمم تواصل تعايشٍ، فإن لم يتحقق ذلك بسبب تباين

---

[١] انظر: لسان العرب، لابن منظور ١١/١٦-١٧.

السمات والخصائص، فلا أقل من أن يكون التواصل بقدر حاجتنا للعيش المشترك ولتحقيق المصالح وفق الضوابط التي تحمي ذواتنا من الذوبان أو الانهيار.

علينا ألَّا نعيش قيم الأصالة في ظلال زمانها لأنَّ ذلك الزمن قد مضى ولن يعود، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، ونحن في ذات الوقت لا نريد أن نشاطر الماضي آلامه وأحزانه، بل تكفينا أحزان زماننا التي أثقلت كواهلنا، قال ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

معوقات حركة التأصيل:

لقد اكتنفت طريق التأصيل معوقاتٌ ومشاكل كثيرةٌ حالت دون انسيابية التعامل والاستفادة من تراثنا الإسلامي فأصبح من العسير على قادة الفكر الإسلامي تحقيق وجهة التأصيل. وبسبب فقدان القدرة على ضبط هذه الوجهة وضعف إمكانيات الأُمَّةِ في تحديد متطلباتها المعرفية، فقد حدثت هُوَّةٌ كبيرةٌ بين معطيات الأصالة وبين مقتضى التجديد، ممَّا انعكس بشكلٍ سلبيٍّ على الواقع الحضاري للأمة الإسلامية.

وهنا نذكر بعض الجوانب من هذه المعوقات على سبيل المثال:

أوَّلًا: تأثر بعض الباحثين المسلمين بالفكر الغربي المستورد وبأفكار وآراء فلاسفة الغرب، فأصبحوا يبصرون ماضيهم بعيون غيرهم ويفسرون أحداثه بعقول وأفهام من نصب لنا ولديننا العداء، فأحدث هذا الانسلاخ خللًا في وجهة التأصيل المطلوبة، لا سيما وأنَّ من هؤلاء من تبوأ مناصب تربويةً وثقافيةً عاليةً، ممَّا زاد من حجم المشكلة.

ثانيًا: ظهور كتاباتٍ كثيرةٍ في الفكر لا تستند في تقرير المبادئ والقيم على الأسس السليمة، بل نجد مساحة التأصيل فيها مليئةً بالغث ولا تستند في تقرير القيم التربوية إلى النصوص الصحيحة، بل فيها الكثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وتضمنت أيضًا نصوصًا من التراث تجافي الحقيقة، ممَّا تسبب في تشويه صورة التأصيل.

ثالثًا: عجز المؤسسات الفكرية والثقافية عن تحقيق الغاية من ربط واقع الأمة بأصالتها، ممَّا أحدث قطيعةً موهومةً بين حاضرنا وماضينا.

رابعًا: تفاقم النزعات الانتمائية وطغيان المصالح السياسية لدى القيادات المعوَّل عليها في عملية إصلاح الواقع، ممَّا أوجد خللًا في الجهود وتشتُّتًا في الغايات، فباتت الأمَّة الإسلامية رهينةً لعوامل الهدم لا البناء، والانحدار لا الصعود والارتقاء.

خامسًا: ضعف النتائج التي تمخضت عن محاولات التأصيل بسبب ضعف أسس التعامل مع تراثنا أو بسبب رغبة بعض الناس في الجمود على القديم خشية الانزلاق في الواقع بحجة الإبقاء على هيبة التراث وأصالته. ولا أدري ما الخطأ في دعم وجهة التأصيل ضمن الحدود الممكنة طالما كانت هذه الوجهة ضروريةً لتفعيل قيم الأصالة في واقع حياتنا بدل أن نعيش على هامش الحضارة، لا نجد لنا حيزًا نتنفس فيه الصعداء!

عوامل تساعد على تجاوز المشكلة:

أَوَّلًا: تلزمنا نيةٌ حقيقيةٌ صادقةٌ في تأصيل قضايا الواقع لا على أساس الرغبة في كل ما هو قديم لمجرد قدمه، وإنَّما لجعل ثوابت الدين مرتكزًا نحو الأداء ومنطلقًا نحو التجديد، خصوصًا تلك الثوابت التي أرساها وحي ربنا ﷻ والتي تفاعلت بكل مصداقيةٍ مع قدرات البشر.

ثانيًا: العمل الجادُّ على تجاوز مخلفات الواقع التربوي السلبية وتقوية الجوانب الإيجابية فيه مهما قلَّت، وكذا معالجة النتائج التي تمخضت عن سياساتٍ تربويةٍ خاطئةٍ وفق منهجٍ تربويٍّ يجعل من ثوابتنا منبع استقاءٍ، ويجعل من المتغيرات معين إبداعٍ، ويجعل من صدق التوجه إلى الله ﷻ نبراس المسار.

ثالثًا: ضرورة إعداد فريقٍ من العلماء المتخصصين في جميع المجالات المتَّصلة بوجهة التأصيل، وينبغي أن يكونوا ممَّن يملكون القدرة والمرونة على الأخذ من دائرة الأحكام الشرعية بما يتلاءم مع إمكانية التغيير والإصلاح، وأن يكونوا من أهل الدراية في معرفة أسباب الحدث أو الحكم أو النص وممن لديهم القدرة على الموازنة بين فقه الثوابت وفقه المتغيِّرات. وستمكنهم هذه الدراية من القياس الصحيح بين الحالات والمواقف ذات العلل المتشابهة ومن معالجة المتغيرات في حياة الناس التي تكون بسبب اختلاف الزمان والمكان. ولا مجال لأن يعجز أهل التخصص عن إيجاد الحلول لكل المشاكل التي تعتري مسيرة الأداء في واقع الأمَّة، فنحن لا نستطيع أن نقول للناس بأنَّ الإسلام صالحٌ لكل زمانٍ ومكانٍ وأنه الأمثل بين الأديان لقيادة الحياة ثُمَّ لا يجد الناس فينا القدرة على تلبية حاجياتهم في ظلال منهج الله ﷻ.

أهمية الأصالة في مستقبل الأمة:

قامت على وجه الأرض منذ زمنٍ بعيدٍ أُمَمٌ وحضاراتٌ عدَّة، وكان لها تاريخها ومجدها، وحافظت على ذلك فترةً من الزمن ثُمَّ ما لبثت أن تلاشت ولم تقم لها قائمةٌ بعد ذلك. وهذا لا يعني بالضرورة أنَّ نسلها البشري انقطع واندثر، فأجيالها ما زالت تتوالد وتتكاثر، ولكن يعني أنَّ شخصيتها القومية ومقومات حضارتها قد بادت واندثرت، ففقدت أجيالها القدرة على حفظ

تراثها ومن ثَمَّ نقله إلى الأجيال التالية. فمثلًا: لقد ازدهرت الحضارة الفرعونية والبابلية في زمنٍ غابرٍ حتَّى بلغتا أوجًا حضاريًّا وعمرانيًّا قلَّما نجد له نظيرًا في تاريخ الأمم القديمة، ومع ذلك لا نكاد نجد لهذه الكيانات وجودًا اليوم!

ويعلل الأستاذ أبو الأعلى المودودي سبب غياب واختفاء مثل تلك الحضارات بقوله: «لأنَّ أجيالها التي توالت كانت قد فقدت الكفاءة التي تستطيع بها نقل ما توارثته عن أسلافها إلى أخلافها، وقد ثبت من ذلك أنَّ أجيال شعبٍ من الشعوب إذا فقدت شخصيتها القومية وانصهرت في بوتقة شخصيةٍ أخرى فهذا يعني أنها اندثرت وفنيت»[١]، وفي نفس السياق يلقي الأستاذ المودودي الضوء على بعض الشواهد التاريخية التي تعزز مثل هذا التصور حيث شهد التاريخ العالمي غياب اثنتي عشرة قبيلة من بني إسرائيل عن الوجود، ولم يُعثَر لها عن أثرٍ حتَّى هذه الساعة، وهذا الأمر قد لا يفسر على أنَّ هذه القبائل قُتلت عن آخرها واقتلعت جذورها من الأرض إلى الأبد، فقد يكون المراد من ذلك أنه قد مات في هذه القبائل الوعي الإسرائيلي ولم ينتقل إلى أجيالها المتعاقبة.

إنَّ من أعظم المخاطر التي تتهدد مستقبل أمتنا أن يفقد أبناؤنا الأصالة الإسلامية التي حافظت على كيان أمتنا وشخصيتها قرونًا طويلةً. ولهذا فإن أيَّة سياسةٍ تربويةٍ لا تستهدف بعث روح الأصالة في الأمة هي خيانةٌ وغدرٌ وهدمٌ لكيانها وانحلالٌ لشخصيتها، خصوصًا وأنَّ الإسلام عَزَّزَ فينا روح الإبداع واستقلالية الذات ووحدة الهدف وكفاية المنهج، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

---

[١] دور الطلبة في بناء مستقبل العالم، المودودي ص٢-٣.

إنَّ الإسلام لا يحول بيننا وبين ما عند غيرنا، وإنَّما يمنعنا من التأثر والذوبان في شخصيتهم. فلنا نهجنا المستقل الذي لا لبس فيه، ولنا طريقنا الواضح الذي لا عوج فيه، ولنا عقيدتنا السمحة التي صانها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بوحيه، ولا يُقبل من هذه الأمة أن تنحدر من الثُّريا إلى الثَّرى، قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

التجديد بين الرغبة والضرورة

لقد ظهرت في هذا الميدان عدَّة مدارس بين من يدعو للتَّجديد في ميدان علمنة الحياة ومن ثَمَّ خلع ثوب الماضي الذي يزعم هؤلاء أنه أثقل كاهل الأمَّة، وبين من يرى التجديد ضرورةً لتحقيق عالمية الفكر الإسلامي. لا نريد أن ننتصر لأحدٍ، بل نريد الوقوف بجانب من وافق الحَقَّ والصواب بطريقةٍ علميةٍ نحقق من خلالها العدالة والموضوعية، لا سيما وأَنَّنا نعيش في عالمٍ شهد خللًا واضحًا في مسيرة التجديد بسبب ضعف الرؤية الواعية واختلال التوازن في ميادين الفكر الإسلامي.

ولسنا هنا في إطار النَّقد دون طرح الحلول، ولكن ليس من السهل تجاوز الأزمات الفكرية بحلولٍ عارضةٍ لا تنشأ عن درايةٍ كافيةٍ وتتبعٍ منهجيّ دقيقٍ، خصوصًا وأنَّ الخلل عندنا بدأ في الذات قبل الواقع وفي التكوين قبل التمكين، فعشنا في منظومةٍ تربويةٍ هي أقرب إلى التعاند مع سُنَنِ الله سبحانه وتعالى منها إلى التساند معها. ولهذا فقد عكست النتائج جانبًا كبيرًا من واقعنا، فَسُنَنُ الله سبحانه وتعالى جاريةٌ لا تتغيَّر، قال تعالى:﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وبالرغم من وجود حساسيةٍ شديدةٍ من وجهة التجديد خصوصًا عند بعض أهل التدين، فلا ريب في أنَّ هذه المخاوف ستضمحل إذا سددنا المقاصد وأحسنا التعامل مع أصول ديننا وذلك من خلال التعامل مع أحكام الله سبحانه وتعالى في إطارها السليم مع مراعاة قدسية الثوابت ومرونة العمل بمقتضاها، متجنبين في ذلك سطحية الفهم وهلامية الأداء وهشاشة التطبيق، وذلك بأسلوبٍ متوازنٍ لا نئد فيه ماضينا من أجل حاضرنا ولا نعتزل به واقعنا من أجل ماضينا.

فالماضي بالنسبة لنا جذورٌ لحاضرنا، وحاضرنا يمثل وعاء حياتنا التي نحياها ولا يمكننا العيش خارجه.

وكما أنَّ منهج الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى هو قدرنا وغاية وجودنا، فكذلك الواقع الذي نعيشه بكل ملابساته وإشكالاته وإيجابياته وسلبياته، فهو قدرنا في حياتنا ولا يسعنا إلَّا أن نعيش أقدارنا، فلنحياها بأسلوبٍ ومنهجٍ يُحَقِّقُ لنا غاية الوجود وبوعيٍ يُحَقِّقُ لنا سلامة الوجود، قال تعالى:﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، على أن تكون الثقة بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى مدد العارفين ويكون الصبر على قضائه سبيل القاصدين، قال تعالى:﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. ومن هنا فقد وجدت من الضروري أن أتحدث عن مفهوم التجديد باعتباره من أبرز القضايا الشائكة التي شغلت أصحاب الرأي وقادة الفكر في واقعنا الحالي سواءٌ في ميدان الثقافة أو في محيط الدين والتدين.

المعنى اللغوي للتجديد:

التجديد لغةً **هو تَغيُّرُ الشيء من حالٍ سابقٍ إلى حالٍ لاحقٍ أفضل**. ووردت كلمة «جديد» في القرآن الكريم في عدَّة مواطن[١]، قال تعالى:﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [فاطر: ١٦]، وقال أيضًا:﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥]. أمَّا

[١] في السور التالية:(الرعد- آية:٥ وإبراهيم- آية:١٩ والسجدة- آية:١٠ وسبأ- آية:٧ وفاطر- آية:١٦ وق- آية:١٥).

لفظ «المجدد» فقد جاء ذكره في حديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَن يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»، وفي روايةٍ: «مَن يُجَدِّدُ لَهَا أَمرَ دِينِهَا»[١].

المعنى الاصطلاحي للتجديد:

أمَّا اصطلاحًا، فقد ذهب بعض العلماء في تعريف التجديد على أنه «إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسُنَّةِ والأمر بمقتضاهما وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات»[٢]. ويرى آخرون بأنَّ التجديد هو تنقية واقع المجتمع المسلم من كل جزءٍ من أجزاء الجاهلية، ثُمَّ العمل على إحياء الدين خالصًا محضًا على قدر الإمكان[٣].

وقد يكون المجدِّد فردًا أو جماعةً أو هيئةً[٤]، ويؤيد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرجِعُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصلِحُونَ مَا أَفسَدَ النَّاسُ مِن بَعدِي مِن سُنَّتِي»[٥]، فذكرهم بالجمع لا بالإفراد وهذا يَدُلُّ على أنَّ التجديد قد يكون في جماعةٍ من أهل العلم، ولا ينحصر في واحدٍ منهم.

---

[١] رواه أبو داود في السنن ج٤/ص١٠٩، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ج٤/ص٥٦٧، وصححه السخاوي في المقاصد الحسنة (رقم ١٤٩)، كما صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٥٩٩).

[٢] انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، العظيم أبادي ١١/٣٨٥.

[٣] انظر: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، المودودي ص ٤٤.

[٤] انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٢٣/١٨٠، والبداية والنهاية لابن كثير ٦/٢٥٦، وفتح الباري لابن حجر ١٣/٢٩٥.

[٥] سنن الترمذي ج٥/ص١٨، وقال عنه: حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ.

ولا نعني بتجديد الدين تبديلًا في ذاته أو تغييرًا في عناصره، بل هو إصلاحٌ وتجديدٌ لعلاقة المسلمين بدينهم وحسن التعامل مع أصوله لتحقيق الهداية المطلوبة. ولا يمكن للتجديد الذي نعنيه أن يشمل ذات القيم الأساسية والثابتة في الدين، وإنَّما يختص بالجوانب القابلة للتغيير والتطور؛ فلكل عصرٍ خصوصيته ولكل مرحلةٍ سماتها المميزة التي يجب أخذها بعين الاعتبار من أجل التعامل السليم مع نصوص الشريعة. فليس هناك تجديدٌ في أركان الإسلام ولا في جوهر الإسلام ولا في عقائد الإسلام، وإذا كان هناك تجديدٌ في هذه الثوابت فيكون في إزالة ما زاد عليها الناس من بدعٍ وخرافاتٍ لأنَّ تنقية الأصول تكون فقط بإزالة ما علق بها من غبار أهل البدع والأهواء. ويذهب بعض المفكرين إلى تشبيه التجديد بالسيف إذا علاه الصدأ، فإنَّ تجديده لا يعني تغيير السيف وإنَّما إزالة الصدأ الذي علا هذا السيف حتَّى يعود له المضاء وتعود فاعليته من جديد[١].

أما الأحكام الاجتهادية وخاصةً في فروع الدين وفي أحكام السياسة والشورى وأنظمة الحكم الخاضعة للاجتهاد والنظر والقياس، فلا بأس في التجديد والتطور فيها لأن الإنسان فيها عاملٌ مُهِمٌّ وهو قابلٌ للخطأ والصواب، ويخضع في إبداعاته لحاجيات العصر واختلاف المجتمعات؛ فبالثوابت نصون الأصول من التحريف والتغيير، وبما هو قابلٌ للتجديد نبقي عالمية الإسلام شامخةً وصالحةً لكل زمانٍ ومكانٍ.

ومع قناعتنا بقدسية نصوص الوحي –وهذه القناعة هي جزءٌ لا يتجزأ من عقيدتنا– فإنه لا يمكننا أن نُقِرَّ بقدسية فهم الناس للنصوص أو اجتهاد المجتهدين فيها خصوصًا ما كان من

[١] من محاضرات المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة (وهي منشورةٌ على اليوتوب).

المتشابه أو غير المحكم منها، وإلَّا لما وجدنا خلافًا لدى المجتهدين من العلماء والفقهاء في كثيرٍ من فروع الدين والمسائل الفقهية.

ومع أنَّ وجهة التجديد أصبحت ضرورةً يفرضها الواقع المتغير المتبدل، إلَّا أنَّ هناك من يرى بأن هذه الوجهة تفتح بابًا للتغيير والتبديل والتحريف، فتعاظمت خشية هؤلاء على أصول الدين وتراث الأُمَّة. ومن هنا أردت أن أزيل ستار الإشكال في ذلك من غير أن أبخس حَقَّ الخيرين من الناس في التجديد أو أن أتهم عشّاق الماضي بالمغالاة والتَّزَمُّتِ لأنني لا أجد في الغالب إلا النوايا الحسنة عند الفريقين، خصوصًا إذا استبعدنا الفئة التي لا تريد الخير لدين الله ﷻ ولا لأمة محمد ﷺ.

أساس حاجتنا للتجديد:

وتظهر هذه الحاجة في عدة أمورٍ، أذكر منها:

أَوَّلًا: بسبب تغير أحوال الناس بين زمنٍ وآخر، فإنَّ كثيرًا منهم سيكونون عاجزين عن العمل بأحكام الله ﷻ إمَّا بسبب جهلهم بالدين أو بسبب إغفالهم لحاجيات الواقع، وسوف تتعرض الأمة الإسلامية للركود الحضاري وسوف تبعد عن فاعلية روح الدين الإسلامي. وهذا الأمر سيؤدي إلى انتكاسة الأمَّة وظهور الفوضى الدينية وانتشار البدع والخرافات في حياة النَّاس، ممَّا سيتطلب حتمًا ظهور من يجدد للمسلمين أمر دينهم.

ثانيًا: إنَّ حاجتنا إلى التجديد تفرضها طبيعة هذا الدين لأنه باقٍ إلى يوم القيامة، وهو الدين الوحيد الذي استغرق الزمان والمكان حتَّى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها. فنصوص الشريعة محدودةٌ، أمَّا الحوادث فلا حدَّ لها وهي تتجدد وتتنوع بتبدل حياة النَّاس، ممَّا قد يؤدي

إلى اندراس كثيرٍ من معالم الدين الإسلامي، فالمجدِّد يسعى إلى إحياء ما اندرس منها وتجديد ما جَمُدَ في التعامل معها.

ثالثًا: الحاجة إلى توسيع دائرة الفكر التربوي الإسلامي ليستوعب المتغيِّرات في سلوك النَّاس- مع تجديد الخطاب الديني- لأنَّ الإسلام في عمقه هو حوارٌ مستمرٌ بين النصوص الدينية من جهةٍ وبين الحياة الواقعية المتغيرة من جهةٍ أخرى. وقد تنبه العلماء قديمًا إلى أهميَّة التجديد في الفكر الإسلامي فكانت لهم محاولاتٌ عديدةٌ في هذا الاتجاه، وكان من بينهم الإمام الغزالي رحمه الله (المتوفَّى سنة ٥٠٥ هـ) الذي ألَّف كتاب «إحياء علوم الدين»، وهو أشهر كتبه. ومن اسم الكتاب نفهم أنه كان محاولةً لتجديد الدين من خلال وجهته نحو إحياء ما اندرس من علومه، ليكون ميدان تفاعلٍ وأداءٍ يمسُّ حياة الشخصية الإسلامية بكل جوانبها. ومع مراعاتنا لِحَقِّ النَّقد عند بعض الباحثين لما احتوى عليه كتاب الإحياء من جوانب جعلته عرضةً للنقد، لكن يبقى الخير متصلًا بعمومه وبتنوع موضوعاته.

ثمَّ جاءت مدرسة الإمام ابن تيمية رحمه الله (المتوفَّى سنة ٧٢٨هـ) فكانت من أقوى المدارس التجديدية في مسيرة الفكر الإسلامي حيث شملت جوانب كثيرةً من علوم الشريعة وبيَّنت علاقة هذه الجوانب بفقه واقع النَّاس. ولهذا فإنَّ مؤلفاته كانت مستقاةً من منابع الأمَّة الصافية، ولقد ارتوى منها أهل الفكر والدعوة من بعده لأنها جمعت بين أصول الدين وواقع الحياة. وبالرغم من اختلاف النَّاس في جهود هذا العالم الجليل، فلا أتصور أنَّ أحدًا من العلماء المنصفين المجددين في غنًى عن عطائه الأصيل.

وأكمل ابن قَيِّم الجوزيّة رحمه الله (المتوفَّى سنة ٧٥١هـ) هذه المسيرة الخيرة بعد وفاة شيخه ابن تيمية رحمه الله، فكان خير خلفٍ لخير سلفٍ. ولم تتوقَّف مسيرة التجديد عبر عصور الإسلام إلى يومنا هذا، وتاريخنا الثقافي شاهدٌ على ذلك، ومكتبتنا الإسلامية خير دليلٍ على خيرية هذه الأمة في ميدان الثقافة والفكر.

ما الذي يحتاجه المجدِّد؟

في الوقت الذي نؤكد فيه على أهمية التجديد، يلزمنا التنبيه إلى حاجة المجدِّد إلى الأمور التالية:

أَوَّلًا: أن تكون له القدرة على الموازنة بين نصوص الدين ومتغيِّرات الحياة، على ألَّا يجعل ثوابت الدين محل اجتهادٍ، خصوصًا ما يتصل بالإيمان والعقيدة والأخلاق وكذلك الأحكام التشريعية المجمع عليها والتي مصدرها المحكم من نصوص القرآن والسُّنَّةِ ومقاصد الدين الثابتة. أمَّا الأحكام الاجتهادية، وبالأخص تلك التي اختلف فيها الفقهاء على أقوالٍ متنوعةٍ وتفصيلاتٍ متفرعةٍ، ففيها من الثراء والخصوبة والمرونة ما يمكن أن تعالج من خلاله النوازل والمستجدات في حياة الناس، بشرط أن تراعى في ذلك مصالح العباد وأعراف الناس وعاداتهم على ألَّا يفهم من ذلك أنَّ الإسلام محكومٌ بتلك المتغيّرات، بل هو مقوِّمٌ لها وداعمٌ للصحيح منها، وهو أيضًا معالجٌ

للمعوجِّ منها ومتمِّمٌ لما نقص من مكارم الأخلاق في حياة الناس، قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخلَاقِ»[١] وفي روايةٍ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخلَاقِ»[٢].

ثانيًا: يلزم المجدِّد أن يتجاوز الكثير من الجزئيات لأجل الكليَّات، وأن يبدأ بالأهمِّ قبل المهمِّ وبالأصلح قبل الصالح وبالأقرب قبل القريب، على أن تبقى حركة الإصلاح أو البناء قائمةً في ظلال الهدي الإلهي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثالثًا: أن يحسن المجدِّد الاختيار والانتقاء بما يحقق المصالح المعتبرة في نظر الشارع، وذلك بعد التمييز بين الحسن والقبيح وإخضاع عناصر الاقتباس عن غيرنا لقيم العقيدة وضوابط الشريعة التي تحفظ للأمة الإسلامية الأصالة والذاتية، ومن ثمَّ تفعيل القيم التي خضعت لهذه الضوابط في واقع النَّاس؛ وحتَّى وإن كانت هناك قواسم حضاريةٌ مشتركةٌ بينها وبين الأمم الأخرى، فإنَّ ذلك لا يعني تشابه الذوات أو اتحاد السمات لأنَّ خصائص الأمة الإسلامية مبنيةٌ على الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ولهذا فإن المصالح الأخروية تأخذ في تصور المؤمن نصيبًا كبيرًا من المقاصد والأهداف.

رابعًا: أن يحسن المجدِّد التعامل مع المكتبة الإسلامية التي تُعَدُّ وعاء التراث الإسلامي لأهميتها البالغة في تأصيل وجهة التجديد. ولا أظن أن المخاوف من تجديد أسلوب التعامل مع معطيات التراث الإسلامي تحول دون حتمية التغيير في نمط الاكتساب المعرفي العام أو داخل

---

[١] مسند أحمد ج٢/ص٣٨١، وذكره العجلوني وقال عنه: «رِجَالُهُ رِجَالُ الصحيح»، انظر: مجمع الزوائد ج٨/ص١٨٨.

[٢] سنن البيهقي الكبرى ج١٠/ص١٩١.

مؤسسات الفكر الإسلامي، خصوصًا وأنَّ مفهوم المكتبة الإسلامية وأسلوب التعامل مع محتوياتها قد طرأ عليه تغيرٌ كبيرٌ في ضوء الثورة المعرفية الهائلة التي أحدثها عالم الكومبيوتر، فقد أصبحنا نتعامل اليوم مع آلاف الكتب من خلال شرائح صغيرةٍ لا تتجاوز رأس الأصبع ولا يكاد وزنها يذكر. أمَّا عن مضمون المكتبة الإسلامية، فلا شكَّ أنَّ المخاوف تزداد بسبب ضخامتها وتزايد محتوياتها. ولقد نتجت عن هذا حالةٌ من الفزع لدى الجيل المعاصر عندما توجه أفراده نحو التعامل معها، خصوصًا إذا علمنا أنَّ معظم مصادر التراث قد كُتِبَ بلغةٍ قويةٍ جزلةٍ يصعب فهمها على غير المتخصص.

وأخيرًا، فإنَّ الفرصة العادلة لم تُتَح لعناصر التراث في أن تعيش ثوبها المتجدد ولا للقيم الإسلامية في أن تعيش واقع الناس لتعكس صدق فاعليتها ومصداقية أصحابها، فبات الإسلام غريبًا بين أهله! وغربته هذه ليست غربة وجودٍ، فالقرآن بين أيدينا وسُنَّةُ رسوله الكريم ﷺ قد تزيَّنت بها مكتباتنا، وإنَّما هي غربة تعاملٍ وتعايشٍ!

نظرة في التراث الإسلامي

التراث لغةً هو ما يخلفه الرجل لورثته ويشمل المال والجاه والحسب. ولقد وردت كلمة التراث ومرادفاتها في القرآن الكريم في عدَّة مواطن، منها قول الله ﷻ: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩]، أي تأكلون الميراث أكلًا لَمًّا[١]، وجاء هذا المعنى أيضًا في حديث رسول الله ﷺ حين قال: «إِنَّ أَغبَطَ النَّاسِ عِندِي مُؤمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ ذُو حَظٍّ مِن صَلاةٍ، غَامِضٌ فِي النَّاسِ لَا يُؤبَهُ لَهُ، كَانَ رِزقُهُ كَفَافًا وَصبَرَ عَلَيهِ، عُجِّلَت مَنِيَّتُهُ وَقَلَّ تُرَاثُهُ وَقَلَّت بَوَاكِيهِ»[٢].

ووردت كلمة التراث أيضًا بمعنى الدين والعقيدة والنبوة، قال الله ﷻ في وصفه لدعاء زكريا عليه السلام: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ [النمل: ١٦]، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

والوارث صفةٌ من صفات الله ﷻ وهو الباقي الدائم بعد فناء الخلق وهو الذي يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، أي هو الذي يبقى بعد فناء كل شيءٍ، ويفنى من سواه فيرجع ملك العباد إليه وحده لا شريك له.

---

[١] انظر: تاج العروس ج٥/ص٣٨٠-٣٨٣، ولسان العرب (مادة ورث) ٦/٤٨٠٨-٤٨٠٩، ومختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢/٦٦٧-٦٦٨ و٢/٤٤٣.

[٢] سنن ابن ماجه ج٢/ص١٣٧٨ (واللفظ له)، والمستدرك على الصحيحين ج٤/ص١٣٧، وسنن الترمذي ج٤/ص٥٧٥.

أَمَّا معناه في الاصطلاح، فقد تباينت الآراء في بيانه والذي يهمنا في هذا الصدد هو تحديد مفهومه الشامل من أجل التعامل مع مجموع عناصره. ومن هذا المنطلق فإنَّ التراث يعبِّر عن تراكم الموروث الفكري الذي قدَّمته الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة -من علومٍ وحضارةٍ وفِكرٍ واجتهادٍ- عبر قرون الحضارة الإسلامية العظيمة ليكون امتدادًا للمعارف الإسلامية ورافدًا للثقافة في حياة المسلمين. ولقد تأسست هذه المعارف التي ربطت بين الأصالة والتجديد على أصولٍ ثابتةٍ تناقلتها الأجيال المسلمة على امتداد مسيرة الفكر الإسلامي. وبسبب شدَّة اعتزاز بعض الناس بتراثهم، فإنهم لا يرون فيه سمة القِدَم، بل يرونه حاضرًا ينبض بالحياة وتاريخًا يتجدَّد في الواقع.

ولعلَّ في رواية أبي هريرة رضي الله عنه ما يزيل اللبس عن أذهان بعض النَّاس، فقد ورد أنه مرَّ بسوق المدينة فوقف عليها فقال:«يا أهل السوق ما أعجزكم؟ قالوا وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال ذاك ميراث رسول الله ﷺ يُقَسَّمُ وأنتم ها هنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعًا إلى المسجد ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة، فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نَرَ فيه شيئًا يُقَسَّم، فقال لهم: أما رأيتم في المسجد أحدًا؟ قالوا: بلى، رأينا قومًا يصلون وقومًا يقرؤون القرآن وقوما يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة رضي الله عنه:وَيحَكُم! فذاك ميراث رسول الله ﷺ»[١]. والعلماء هم ورثة الأنبياء، قال النبي

[١] المعجم الأوسط ج٢/ص١١٤-١١٥، ومجمع الزوائد ج١/ص١٢٣، والترغيب والترهيب ج١/ص٥٨.

ﷺ:«إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَم يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَن أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[١].

وضابط المفهوم الشامل للتراث إزاء خطر وعواقب الخلط في التعامل بين الوحي وغيره هو التفريق في النظرة وطريقة التعامل بين الوحي الإلهي وبين المنجزات البشرية الحضارية منها والثقافية على أنَّ الوحي الإلهي لا يقبل الانتقاء، أي لا يقبل الاختيار منه وترك الباقي أو محاولة تطويعه للواقع أو التفكير بتوظيفه لتحقيق مصالح خاصَّةٍ أو عامَّةٍ، بل هو إطارٌ يحكم الحياة ثُمَّ يدعها تتطور داخله، فإذا انفلتت خارجه فقد وقع انحرافٌ لا بُدَّ من تقويمه. ولقد حذَّر القرآن الكريم من محاولة الانتقاء في دين الله ﷻ، قال تعالى:﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]. وأمَّا المنجزات البشرية الحضارية والثقافية، فإنَّها قابلةٌ للانتخاب والتوظيف وفق الرؤية المعاصرة وحسب الحاجة والمصلحة[٢].

ضوابط التعامل مع التراث:

لا بُدَّ من ضوابط تحكم من يتعامل مع تراثنا الإسلامي سواءٌ على مستوى الأفراد أو الجماعات أو المؤسسات، أذكر هنا أهمها:

---

[١] الترمذي، كتاب العلم (حديث رقم ٢٨٩٨)؛ وأبو داود، كتاب العلم (حديث رقم ٣٦٤٣)؛ وابن ماجة، كتاب المقدمة (حديث رقم ٢٢٨)؛ ومسند أحمد (حديث رقم ٢٢٣٤٧).

[٢] التراث والمعاصرة للدكتور أكرم العمري ص٢٧-٢٨.

أَوَّلًا: ضابط انتقاء الفئة التي تتعامل مع التراث وما يجب أن تتصف به من صفاتٍ، مثل سلامة الاعتقاد وتقوى الله ﷻ وخشيته والتزام الأمانة العلمية في انتقاء النصوص والتعامل معها -خاصةً نصوص الوحي- ثم اتساع دائرة المعرفة بأحكام الشريعة، وذلك لنتمكن من تحقيق النظرة الكلية الشاملة قبل تقرير القيم وتحديد الوجهات ورسم معالم الطريق.

ثانيًا: ضابط انتقاء عناصر التراث في إطار فقه الأولويات تجنُّبًا لبعثرة الجهود وتشتُّت القيم حتَّى نعطي كل ذي حَقٍّ حَقَّه. وعلى هذا الأساس يكون الاهتمام أولًا بنصوص القرآن الكريم ثُمَّ بنصوص السُّنَّةِ النبوية المطهرة ثم بسيرة وآثار الصحابة رضي الله عنهم.. وهكذا كلٌّ بحسب مرتبته.

ثالثًا: ضابط انتقاء الأساليب والوسائل لتيسير الإفادة من التراث وذلك بتوفير أكبر قدرٍ ممكنٍ من الخبرات والاستفادة من مناهج السلف في الاستنباط والفهم وكذا الاسترشاد بالعلماء المتخصصين.

رابعًا: على الباحث أيضًا أن يتجاوز حاجز زمن التراث كي يجعل من قيمه واقعًا متجددًا ينتقل من عالم الورق إلى أروقة العالم، ومن سبات القيم إلى حركتها في الحياة، ومن جمود الكلمات إلى نطق العبارات، وهذا سيتطلب منه التأني والتأمل والصبر الجميل.

خامسًا: يلزمنا تجنب النظرة المتطرفة والتي أحدثت خللًا في التوازن الفكري والمنهجي، ويكون ذلك من خلال تحقيق مبدأ التوسط في تناول عناصر التراث كي نحمي أنفسنا من هاوية التطرف في الفهم ومن الآثار السلبية المترتبة عن العمل بمقتضاه، يقول الشاعر أبو أوسٍ الطائي:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت ... بها الحوادث حتَّى أصبحت طرفًا[١]

---

[١] الكشاف للزمخشري ج١/ص٢٢٤.

من معوقات التعامل مع التراث:

أَوَّلًا: زيادة الانحدار التربوي ومغايرة توجهات معظم الناس لوجهة الدين وأخلاق الإسلام حتَّى أصبح من الصعب أن نجد لمحصلات التراث أرضيةً واقعيةً نختبر فيها مصداقية التعامل.

ثانيًا: استحالة الإحاطة الشاملة بقضايا التراث وما ارتبط به من عناصر الفكر الإسلامي على مرِّ العصور، فقد انتشر الإسلام سريعًا في القرون الأولى وامتدَّت ظلاله في فترةٍ وجيزةٍ «من أطراف خراسان الشرقية حتَّى أفريقية ومن شرق الأناضول حتَّى البحر العربي، ومساحة هذه المنطقة تبلغ ثلاثة ملايين و ٥٠٠ ألف ميل مربع»[١] واتسعت هذه المساحة أكثر فيما تلاها من قرون الإسلام.

ثالثًا: مع اتساع دائرة الفكر الإسلامي، ضمَّت المكتبات الإسلامية كمًّا هائلًا من مصادر التراث وقدرًا لا يَقِلُّ أهميةً عن سابقه من المراجع والأبحاث في مجال الدراسات الاسلامية، ممَّا شكَّل هالةً عظيمةً أخذ نطاقها يتسع يومًا بعد يومٍ أمام الباحثين في قضايا التراث، فأصبح من العسير على الباحث الإلمام بحدود المصادر والمراجع، خصوصًا مع ضعف تنسيق الجهود.

رابعًا: لقد تطلبت كثرة الروايات والآثار التي تضمنتها مصادر الفكر الإسلامي–بما فيها ما هو متوفرٌ من غير تصنيفٍ أو تبويبٍ وتنظيمٍ– جهدًا كبيرًا من الباحث في تحرِّي صحَّة النصوص واعتماد السليم منها، ولذلك يتوجب البحث الشامل في مصادر التراث واعتماد أفضل الوسائل لغربلته وتمحيصه.

---

[١] التعليم في عصر السيرة والراشدين، أكرم العمري، بَحثٌ منشورٌ في «المؤسسات والممارسات»، المجلد الأول، (المجمع الملكي– الأردن).

خامسًا: تساهل كثيرٍ من الباحثين والمؤلفين في مجال الفكر الإسلامي في ذكر الشواهد والأحداث، مثل الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة دون التنبيه إلى ذلك أو الاعتماد على رواياتٍ لأحداثٍ لم تثبت تاريخيًّا، وكذلك ذهاب بعضهم إلى تقرير أسسٍ ومبادئ تربويةٍ تتَّسم بالقصور دون استقصاءٍ أو تحليلٍ علميٍّ دقيقٍ ومتكاملٍ للشواهد والأحداث، ممَّا أدَّى إلى زعزعة الثقة بتراثنا الإسلامي.

سادسًا: عدم وجود خُطَّةٍ موحدةٍ وشاملةٍ لعرض عناصر التراث، ممَّا أدَّى إلى تداخلٍ كبيرٍ في الآراء والاتجاهات وإلى تكرارٍ مملٍّ، فغالبًا ما يأخذ بعض المؤلفين من غيرهم دون إضافةٍ علميةٍ مفيدةٍ، فتضخمت بذلك المكتبة الإسلامية دون إضافة عطاءٍ علميٍّ جديدٍ يتناسب مع اتساعها.

سابعًا: مع تزايد الاهتمام بجهاز الحاسوب لخدمة الباحثين، فقد تكاثرت أعداد البرامج التي خدمت قضايا التراث الإسلامي بمختلف أنواعه، وذلك لتيسير التعامل مع عناصره بسرعةٍ فائقةٍ وإتقانٍ كبيرٍ. لكن وللأسف، فما زال كثيرٌ من المختصين في علوم الشريعة والمهتمين بقضايا التراث الإسلامي لا يهتمون بهذا الأمر الاهتمام المطلوب بالرغم من وجود شدَّة الحاجة إليه لاختصار الجهد والوقت، إمَّا بسبب عوامل اقتصاديةٍ أو لضعف الرغبة في التعامل مع معطيات التكنولوجيا الحديثة، ولهذا فإن كثيرًا منهم لم يطَّلعوا على تفصيلاتها ولم يقدِّروا مدى حاجتهم إليها.

ما الذي يلزمنا؟

أَوَّلًا: يلزمنا البدء بتكوين قاعدةٍ علميةٍ منضبطةٍ في الأخذ عن التراث، ولا ضير في أن نوجد أسلوبًا ومنهجًا يَتَّسِمُ بالعدالة والموضوعية في التعامل مع اجتهادات العلماء مهما تنوعت

على أن نميّز بوضوحٍ بين خلاف الأئمة واختلاف الأمَّة؛ فالأول يمثّل الاتساع في عناصر التراث الفقهي الإسلامي وزيادة مساحة الاختيار فيه وإمكانية الترجيح بين الدلالات والأحكام في اجتهادات العلماء من أجل الأخذ بما يحقق المستوى الأكمل للأداء في محيط التكليف، أمَّا الثاني فقد يقودنا إلى التباين الفكري السلبي وإلى إحداث خللٍ في وحدة المسلمين.

ثانيًا: من أجل سلامة النظرة إلى قضايا التراث، لا بُدَّ أن نحرِّر عقولنا من أسر الفكر الغربي وترسباته حتى ننطلق نحو تراثنا بفكرٍ حرٍّ، لا سيما ونحن نعيش في زمنٍ زاد فيه إعجاب المسلمين بحضارة الغرب وانجرف كثيرٌ منهم في سيل التغريب والعولمة حتَّى بات الإسلام غريبًا بين أهله وكأنه غصَّة تقدمنا ونمونا الحضاري، فعكس هذا الواقع صدق إخبار النبي الكريم محمد ﷺ حين قال: «بَدَأَ الإِسلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ»[١]. وكيف يمكننا أن نبصر ماضينا بعيون غيرنا أو أن نفقه أحداثه بعقول وأفهام من نصب لنا ولديننا العداء؟ لا بُدَّ لنا من نظرةٍ واعيةٍ نحو تراثنا لكي نرفد الحاضر بقيم الماضي ونُلبس القديم ثوبه المتجدِّد.

ثالثًا: علينا صياغة المنطلق في حدود دائرة الإيمان والثقة المطلقة بالله سبحانه وتعالى حتَّى لا تكون مخاوف الإحباط وآلام الهزيمة من معوقات مسيرة التأصيل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

رابعًا: يلزمنا تجاوز حاجز زمن التراث لنعيش بقيمه واقعنا المتجدِّد، ولن يكفي الأُمَّةَ أن تمتلك المنهج القويم، بل لا بُدَّ من رجالٍ مخلصين يحملون راية الأداء ومسيرة العمل في ظلاله، وهذا سيتطلب منَّا الصبر الجميل حتى لا نقع في الكلل أو الملل، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ

---

[١] صحيح مسلم ج١/ص١٣٠.

﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وسيتطلب منَّا أيضًا يقينًا جازمًا بوعد الله ﷻ وأن نتجاوز خلافاتنا من أجل ديننا ثُمَّ من أجل وحدتنا ومستقبلنا.

وأخيرًا، فيؤسفني أن يقال:«لقد شغلنا أنفسنا زمنًا طويلًا في الخلاف حول حكم المسح على الخفين والقَدَمِ حتَّى لم يبق لنا على وجه الأرض موطئُ قَدَمٍ». وقديمًا قالوا:«ما هكذا تورد الإبل يا سعد!!».

بين عطاء الماضي وحاجة الحاضر

إنَّ التعامل مع الماضي قد يوجد شعورًا عميقًا بالصحبة وحب التقليد فينسى الإنسان عصره وهو في نشوة عشق ماضيه، فتختلُّ بذلك الموازنة بين ما هو واقعٌ معايشٌ وبين ما هو ماضٍ مشرقٌ. ولهذا ينبغي ألَّا يحول التعامل مع الماضي دون التفاعل الهادف مع معطيات الواقع، وينبغي أيضًا ألَّا تدفعنا عواطف الانتماء للتعلق بالماضي لذاته، بل لا بُدَّ من الانبساط في ظلال القيم التي نتجت عن إشراقة الماضي، خصوصًا وأنَّ ماضينا الإسلامي عكس ممارسات المجتمع المسلم في واقعٍ إسلاميٍّ تفاعل مع منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فبانت في ظلاله معالم الهدى والنور.

وعندما يكون الخطأ في ممارسات البشر فإنه يجب أن يُرَدَّ إلى ذات الممارسات وليس إلى منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأنَّ شرع ربنا قد أُحكِمَ وسُدِّد، قال تعالى:﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. من أجل ذلك فإنه ينبغي علينا التفريق بين فاعلية القيم الإسلامية –في كونها خصائص ذاتية– وبين أثرها في واقع المجتمعات التي تعاملت معها؛ فالأول يمثل الأصل والمصدر، والثاني يمثل التجربة وتراكم الخبرة والمعرفة، ولكل مجتمعٍ نصيبٌ ممَّا كسب على أن تبقى بصائر أهل الإيمان والدراية أداة غربلةٍ وتمحيصٍ، قال تعالى:﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وليس من الضروري –ونحن نمضي في مسيرة التأصيل– أن نكون صورةً عن ماضينا أو جذوةً منه لأنَّنا إن قصدنا الماضي فذلك من أجل تعزيز منظومة العقيدة والعبادة والأخلاق في حياتنا، خصوصًا وأنَّ المجتمعات الإسلامية في القرون الأولى كانت متميزةً في ذلك وصالحةً لأن تكون منابع استقاءٍ لأبناء الأمَّة. إنَّ مبتغانا هو الأخذ عن الماضي وليس الماضي في حد ذاته

لأنَّ الإبداع سيكون في حياتنا عندما تمتزج قيم أصالتنا بواقعنا، وذلك مع مراعاتنا لضرورة التجديد الذي يقرره أهل الإيمان لا الذي يفرضه أهل الفسق والفجور! فإذا رغبنا مثلًا في تفعيل قيم وأنماط التربية السلوكية كما هي في حياة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ، فلا يلزمنا أن تكون حياتنا من خلال الأخذ بها متطبعةً في الأداء بنفس الطابع الذي تمثل في سيرته، فواقع عصره له مميزاته وخصائصه؛ وهذا لا يمسُّ بسوءٍ منظومة الحَقِ التي عاشها سلفنا الصالح، فَالحَقُّ حَقٌّ ولو كان قديمًا، والباطلُ باطلٌ ولو كان حديثًا.

ومع اعتزازنا بماضينا إلَّا أنَّ جهود الإصلاح لا بُدَّ أن تتوجه نحو صياغة الواقع ومن ثَمَّ الإعداد للمستقبل، لذا ينبغي ضبط حركة التأصيل والتجديد وفق هذا التوجه. وإذا أردنا أن نعالج الأخطاء والسلبيات، فَلنَصُبَّ جميع الجهود في معالجة الحاضر وسلبياته وليس الماضي، فالماضي لن يعود، ولكن يجب علينا ألَّا نفقد العبرة والعظة من أحداثه حتى يكون منطلقًا نحو تصحيح الواقع وإصلاحه. وليس من الضروري أن نجعل لأنفسنا في كل حادثةٍ مضت موقعًا نتحدَّى من خلاله العالم ونحن لا نجد لنا في عالم اليوم موطئ قَدَمٍ!

لا نريد أن نتهم عشاق التراث -ونحن أيضًا من عشاقه- بالتعصب والمغالاة، لكنَّ تجاوز منظومة العدل في التعامل مع أحداثه تبعث على الغرابة والاستهجان، وكياسة المؤمن أجدر بأن تحكم في مثل هذا الموطن. ولذلك فإنه ينبغي ألَّا يكون تعاملنا لذات التراث فحسب، بل للدخول إلى عالم الواقع من خلاله بعد أن يسلم المنطلق ببركة الإخلاص وصدق النية ويتَّضح الطريق بنور الهداية لتلوح كرامة الأمَّة في هذا العالم ببركة وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي لا يخلف وعده، قال تعالى:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وما دامت الأرض باقيةً فالاستخلاف قائمٌ بشرطه، ألا وهو الإيمان والعمل الصالح. فلنبحث عمَّن يحقق الشرط قبل أن نتطلع إلى الاستخلاف والتمكين! وليس غريبًا أن يتمثل البعد الحضاري في سلوك وعطاء أتباع الدين الإسلامي، بل هو من مستلزمات عالمية الإسلام، ولذلك لا يجوز أن تستهوينا العواطف المجردة عن التفاعل مع الواقع أو أن تنأى بنا الغفلة فتجعلنا في عزلةٍ عنه وفتورٍ في التفاعل معه؛ ولا أعني بذلك التعايش مع كل ما يتصل بالواقع دون اكتراثٍ بالقيم الإسلامية، وإنَّما أعني الرغبة في تحقيق الوراثة الإيمانية التي أشار الله سبحانه وتعالى إليها في قوله:﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

بين التربية والتعليم

لقد ورد لفظ التربية في القرآن الكريم بمعنى الزيادة والنمو، قال تعالى:﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وورد كذلك بمعنى النشأة والرعاية[١]، قال سبحانه وتعالى على لسان فرعون عندما خاطب موسى عليه السلام:﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، وقال أيضًا:﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤].

وفي المعنى الاصطلاحي، فإنَّ غالبية العلماء يتركز حديثهم عندما يتحدَّثون عن التربية الإسلامية على صيانة الإنسان وصلاحه وتقويمه منذ نشأته وحتَّى نهايته، وذلك وفق تعاليم وتوجيهات الشريعة الإسلامية[٢]. ومن هنا نرى أنَّ التربية لا تنحصر مسؤوليتها في مؤسسات التعليم فحسب، وإنَّما تشترك معها جميع مصادر العملية التربوية الأخرى.

لقد استُخدمت في الدراسات التربوية السابقة عدة كلماتٍ بدل كلمة «التربية»، ومنها كلمة «الإرشاد»[٣] وكلمة «التهذيب»[٤]. ومعلومٌ أيضًا أنَّ العلماء القدامى كانوا يعالجون موضوع

---

[١] انظر: لسان العرب لابن منظور ١٤/٣٠٤- ٣٠٥.

[٢] انظر: التربية وبناء الأجيال لأنور الجندي ص ١٦٠، ومشاهير الفكر التربوي لصالح سالم والآنسي ص١٥٨، والنظرية التربوية الإسلامية لآمال حمزة ص ٨٦.

[٣] كما في كتاب رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي.

[٤] كما في كتاب «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه.

التربية تحت اسم «تأديب الصبيان»[١]، وقد وردت كلمة التربية عند ابن خلدون بمعنى التنشئة، وذلك من خلال كلامه عن مراتب الملك والسلطان والألقاب[٢]. وهناك من قَسَّمَ التربية في إطار مفهومها العام إلى الأنواع التالية:

١- التربية البدنية: التي تُعنى بتنمية جسم الإنسان.

٢- التربية الأدبية: التي تَختَصُّ بتقويم اللسان وإصلاح البيان.

٣- التربية العقلية: التي تَهتَمُّ بتثقيف العقل وتسديد الفكر وإحكامه.

٤- التربية العلمية: التي تُزَوِّدُ الإنسان بالمعلومات الصحيحة النافعة.

٥- التربية المهنية: التي تُرَوِّضُ الإنسان على وسائل الكسب والعيش.

٦- التربية الفنية: التي تُوقِظُ في الإنسان الشعور بجمال الكون والتعبير عنه.

٧- التربية الاجتماعية: التي تُعَرِّفُ الفرد بحقوق المجتمع الذي يعيش فيه وبنظمه وعاداته.

٨- التربية الإنسانية: التي تُوَسِّعُ أفق الإنسان ليشعر بالأخوة العالمية.

٩- التربية الخلقية: التي تُوَطِّنُ الإنسان على سنن الاستقامة لتتكون عنده العادات الصالحة والأخلاق الحميدة الراسخة.

١٠- التربية الدينية: التي يسميها البعض بالتربية الروحية، وهي التي تسمو بالإنسان إلى الأفق الأعلى بإطلاقٍ[٣]، وهي«التربية الروحية للإنسان وتهذيب أخلاقه، وذلك لا يكون إلَّا

[١] انظر: جوانب التربية الإسلامية، مقداد يالجن ص٢١، والتربية الإسلامية: محمد مرسي ص ٥٢.

[٢] انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ٢٣٥.

[٣] دراسات في العلاقات الاجتماعية، محمد عبد الله دراز، ص ١٢٤ (بِتَصَرُّفٍ).

بنور الوحي السَّماوي الذي يوضح للإنسان طريق السَّعادة ويرسم له الخطط الحكيمة في كل ميادين الحياة الدنيا والآخرة ويجعله على صلةٍ بربه»[١].

أما لفظ التعليم، فأصله في اللغة من العلم وهو نقيض الجهل، وقد ورد في أسماء الله سبحانه وتعالى اسم «العليم» في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]، وورد لفظ «العالِم» في قوله تعالى:﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وورد لفظ «العَلاَّم» في قوله تعالى:﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]. ويقال: عَلِمَ وفَقِهَ أي تَعَلَّمَ وتَفَقَّهَ. ويقال :عَلُمَ وفَقُهَ أي ساد العلماء والفقهاء[٢].

وفي الاصطلاح، يُقصد بالتعليم نقل المعرفة من المعلِّم إلى المتعلِّم باعتبارها وسيلةً للتربية، وتكمن عملية التعليم في تفاعل المدرس والطالب مع موضوعات التعليم لإحداث التغيير المرغوب في سلوكه وتحصيله[٣].

ويمثل التعليم في الإسلام المحور الأساس للعملية التربوية التي تُعنى بإعداد الإنسان الصالح المصلح وفق سياسةٍ تعليميةٍ تستند في جميع عناصرها إلى المنهج الرباني الذي أساسه وحي الله سبحانه وتعالى. ولا يجب أن يُنظر إلى التعليم الإسلامي من خلال مؤسسات التعليم التي ظهرت في

[١] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن المختار الشنقيطي، ج٣/ص٥٠٥.

[٢] انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/٤١٦- ٤١٧.

[٣] انظر: أسلمة المناهج، حمدي أبو الفتوح ص ١١٤.

الإسلام أو من خلال مناهجه وطرق تدريسه فحسب، بل يجب الأخذ بعين الاعتبار انعكاسات جميع التفاعلات التربوية للمجتمع المسلم في واقع حياته[١].

ويبدو لبعض الباحثين أنه لا فرق في المفهوم الاصطلاحي بين «التربية» و«التعليم» بينما يرى آخرون أنَّ التربية أعمُّ وأشمل من التعليم وأنَّ صلة التعليم بالتربية هي صلة الخاص بالعام؛ فالتعليم قد يختص بجانبٍ واحدٍ من جوانب الإنسان -ألا وهو العقل- ومن أجل ذلك يُعَدُّ جانبًا من التربية.

---

[١] للتوسع في المفهوم، يمكن الرجوع إلى: جوانب التربية الإسلامية، مقداد يالجن، ص ٢٦؛ ومصادر التربية الإسلامية، سعيد اسماعيل ص ١٢٩ ؛ وفي التربية الإسلامية، عبد الغني عبود، ص ١٠٣- ١٠٤؛ والتربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، اسحاق الفرحان ص ٣٠؛ والفكر التربوي في الأندلس، الخولي، ص ١٤- ١٥؛ ومدخل إلى التربية الإسلامية، للباني، ص ٢٤-٢٦.

نظرة في دراسة السيرة النبوية

لقد أضحت وجهة التأصيل من القضايا التي تطرق أذهان المصلحين بإلحاحٍ كبيرٍ، فتراثنا الإسلامي يَضُمُّ كَمًّا هائلًا من المعارف التي تنقصها النظرة الموضوعية في التعامل مع عناصرها، وهذه المعارف تفتقر إلى تتبعٍ دقيقٍ وفق منهجيةٍ علميةٍ تحقق الفائدة المرجوَّة. ولذلك بات من الضروري دراسة السيرة النبوية من خلال ثوبها التربوي الإيماني لنتجاوز البعد التاريخي للحدث حتَّى نصل إلى شفافية التطبيق من أجل ترسيخ القيم العليا في حياة المسلمين.

تمثل السيرة النبوية وعاء الأحداث في عصر النبي ﷺ، فقد صاغها وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتفاعل المؤمنون في ظلالها مع عناصر المنهج الرباني الذي تتابع نزوله منجَّمًا حسب الأحداث ووفق متطلبات المجتمع المسلم ليتمكن أفراده من الأداء الأمثل في أجواء إيمانيةٍ رَقَت بهم من فقه الدين إلى فقه التدين[١].

وتُعَدُّ السيرة النبوية من أهمِّ ركائز الفكر التربوي الإسلامي، وتأتي أهمية دراستها بقصد النهوض بواقع النَّاس من حسن التنظير إلى سلامة التطبيق، ومن واقع الابتداع إلى كرامة الاتباع، ومن عتمة الضلال إلى نور الهداية. ولا ينبغي لنا أن نجرِّد أحداث السيرة النبوية من أسلوب عرضٍ مشوِّقٍ من خلال استخدام الأسلوب الأدبي الرَّفيع، وذلك من أجل إظهار المؤثرات في المواقف وبيان روح الحدث الفاعلة في النفس البشرية لنتجاوز جفاء السرد التاريخي الذي لا يرفد المسيرة التربوية بالمطلوب من العبر والعظات.

---

[١] نعني بـ:«فقه الدين» فقه منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمومًا وفقه أحكام الدِّينِ -على وجه الخصوص- المستقاة من أصولها (الكتاب والسُّنَّة). أمَّا «فقه التَّدَيُّنِ»، فنعني به فقه العمل بالدين، أي فقه التطبيق والأداء.

لقد عكست أحداث السيرة النبوية صورةً متكاملةً لحركة المؤمن في الحياة، فكانت معالمها مستقاةً من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وكان منهجها وحي السماء ورائدها رسول الله ﷺ ثُمَّ أصحابه رضي الله عنهم الذين جابوا الآفاق في ظلال توجيهاته وتعليماته. لقد كان سلوك النَّبي ﷺ وأقواله وأفعاله وتقريراته ترجمةً لعناصر المنهج الرباني وحُجَّةً على النَّاس في تقرير واقعية الدين في حياتهم، وجاءت بعده سيرة أصحابه الكرام رضي الله عنهم التي منحت كل تجمُّعٍ إيمانيٍّ فرصة التعبير عن المنهج وفق رؤيةٍ عمليةٍ جمعت بين كمال المنهج وسُمُوِّ الأداء.

وأحدث النهج التربوي الإسلامي تغييرًا هائلًا في حياة العرب وأدخلهم مدخلًا كريمًا في سجلِّ التاريخ، فعلى الرغم من تأثرهم بالطبيعة الجغرافية والمناخية وما صاحب ذلك من تقلُّبٍ في أنماط حياتهم الاجتماعية والسياسية إلَّا أنَّ القيم التي حملتها رسالة الإسلام أحدثت آثارًا إيجابيةً لا نظير لها في حضارات الأمم؛ فمن غير المعقول أن يصبح البدوي الذي أظلَّته خيمة وَبَرٍ ومازجت أنفاسه رمال الصحراء سَيِّدَ الحضارة ورائد الإنسانية، ولقد قَرَّرَ القرآن الكريم حقيقة هذه النقلة الحضارية التي شهدها المجتمع العربي آنذاك بعد أن مَنَّ الله سبحانه وتعالى عليه بالإسلام، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال أيضًا: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ولا يمكننا أن ندرس أحداث السيرة النبوية بعيدًا عن ظلالها الإيمانية، ولا يمكن للدراسات التربوية في مجال السيرة النبوية أن تبلغ الهدف ما لم يملك أصحابها قدرًا كافيًا من التفاعل الإيماني

الصادق مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومع سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكي يدركوا هيبة الأحداث التي صاغها الوحي الإلهي الذي قال عنه رَبُّنَا تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ فما كان لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يلحن في القول أو الأداء أو أن يخالف مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، فقد كان خلقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن الكريم[١].

وبسبب ضعف القاعدة الإيمانية عند بعض من يتصدر الكتابة في التاريخ الإسلامي عمومًا وفي السيرة النبوية خصوصًا، فقد شَطَّ بعض هؤلاء في تصوراتهم وتحليلاتهم للأحداث وفي تَلَمُّسِ دوافع السلوك التي تكمن وراء الحدث لدى أفراد المجتمع المسلم، فَتَأَثَّرُوا بالمظاهر الحضارية أكثر مِمَّا تأثَّروا بالعوامل الإيمانية أو بدوافع العقيدة الإسلامية في أحداث التاريخ الإسلامي. فَمَثَلًا يرى الكاتب آدم متز أنَّ القرن الرابع الهجري يمثل أوج العطاء للحضارة الإسلامية وأنه عصر النَّهضة في الإسلام[٢]. نحن لا ننكر مدى توسع الفكر الإسلامي في هذا القرن، لكن لا يجب أن يُعَدَّ هذا القرن أوج حضارة الإسلام، ذلك لأنَّ كمال العطاء الحضاري من الناحية العقدية

---

[١] كما أخبرت بذلك أُمُّ المؤمنين السيّدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عن سَعد بن هِشَام قال: «أَتَيتُ عَائِشَةَ فقلت: يا أُمَّ المؤمِنِينَ، أخبريني بِخُلُقِ رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: كان خُلُقُهُ القُرآن، أَمَا تَقرَأُ قَولَ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟ قلت: فإني أُرِيدُ أَن أَتَبَتَّلَ، قالت: لاَ تَفعَل، أَمَا تَقرَأُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، فَقَد تَزَوَّجَ رسول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد وُلِدَ له»، رواه أحمد بن حنبل في مسنده ج٦/ص٩١.

[٢] وهذا واضحٌ من توجهاته في كتابه «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام».

يكمن في تطابق المنهج الإسلامي مع واقع المكلفين وفي انسجام القيم العليا التي يحملها الأتباع مع ممارساتهم وسلوكياتهم. وعلى هذا الأساس، فإنَّ أوج العطاء الحضاري قد تحقق في حياة نبينا ﷺ حيث اكتمل الأداء البشري داخل محيط المنهج الرباني ولم تبلغ خيرية الأمَّة في أيِّ قرنٍ آخر ما بلغته في قرن السيرة النبوية –وهو القرن الأول الهجري– وهذا واضحٌ من شهادته ﷺ على خيرية قرنه حين قال:«خَيرُكُم قَرنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»[١].

إنَّ مقياس الشموخ الحضاري ليس في اتساع عناصره فحسب، بل في جعلها فاعلةً ومؤثرةً في حياة البشر فيرتقي بها المجتمع المسلم من مثالية الفكر إلى واقعية التطبيق؛ فليست غايتنا تخمة المعارف وإنما تفريغ عناصرها في أرض الواقع. يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه:«كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشرَ آيَاتٍ لم يُجَاوِزهُنَّ حَتَّى يَعرِفَ مَعَانِيهِنَّ والعَمَلَ بِهِنَّ»[٢]. ولذلك كان من الصعب على غير المؤمن أن يتحسَّس الأبعاد الإيمانية للسيرة النبوية وما ارتبط بها من قيمٍ تربويةٍ، بل لا يمكن إدراك دوافع السلوك لجيل الصحابة في ضوء المنهجية التاريخية المجردة عن تصورات العقيدة الإسلامية، فالوصف التاريخي قد يرسم معالم وحدود الحدث، لكنَّه لا يسفر عن الدوافع الإيمانية التي كانت تحكم مجريات الأحداث وتسيطر على مشاعر أبطالها.

السيرة النبوية وحدة قياسٍ تربويّ:

لقد تطابقت في السيرة النبوية عناصر المنهج الرباني مع الأداء البشري بأكمل صورةٍ قُدِّرَ لها في تاريخ الإسلام؛ فالنبي ﷺ كان خلقه القرآن وكان المبلِّغ لمنهج الله سبحانه وتعالى من أجل صيانة

---

[١] صحيح البخاري (رقم الحديث ٦٤٢٩) واللفظ له، وصحيح مسلم (رقم الحديث ٢٥٣٣).

[٢] جامع البيان للطبري ٨٠/١، ومقدمة تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١.

حركة المؤمنين في الحياة، وقد أمرنا الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن نجعله الأسوة الحسنة في حياتنا فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وكان أصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خير أجيال المكلفين، فقد تحققت في حياتهم جميع مستلزمات تطبيق منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى في وصفهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال أيضًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تزكيتهم: «خَيرُ القُرُونِ قَرنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»[١].

ومن هنا تكمن أهمية دراسة السيرة النبوية من خلال كونها وحدة قياسٍ تربويٍّ من أجل تحسين الأداء وبعث الفاعلية في روح الأتباع للارتقاء بالسلوك الإنساني إلى أعلى مراتبه. ويمكن أن تساهم هذه الأداة الرئيسية -التي اعتبرناها وحدة قياسٍ- في تقييم الحياة العملية للمجتمعات الإسلامية بشكلٍ كبيرٍ، وذلك بجعلها مقياسًا لمدى تفاعل النَّاس مع منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولتقويم سلوكهم وفق تعاليم الدين الإسلامي الذي كَمُلَت صورته بأعلى مراتب الأداء في حياة النَّبي محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ بأفضل صُوَرِ التطبيق لِلتَّجَمُّعِ البشري في حياة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

[١] سبق تخريجه.

أثر العقيدة في جيل الصحابة

لقد كان جيل الصحابة رضي الله عنهم جيل عقيدةٍ وولاءٍ وجيل طاعةٍ وبراءٍ. صنع الله سبحانه وتعالى منهم ثُلَّةً من الأَوَّلين السابقين وقدوةً حسنةً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين إلى يوم الدين. فكان الوحي الإلهي يوجه حياتهم نحو المثُل العليا ويقودهم إلى سبيل النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة، فأدركوا تمام الإدراك مكانة هذا الخير العظيم في حياتهم. ولهذا فقد كان يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يرمز إلى انتهاء نزول وحي الله سبحانه وتعالى، ممَّا أحدث عظيم الألم في نفوس المسلمين. ولعلَّ حجم هذا المصاب قد تجلَّى بوضوحٍ في موقف الصحابية الجليلة أُمِّ أيمن رضي الله عنها، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أنه قال:«قال أبو بكرٍ رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: انطَلِق بِنَا إِلَى أُمِّ أَيمَنٍ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَزُورُهَا، فَلَمَّا انتَهينَا إِلَيهَا بَكَت، فَقَالَا لَهَا: ما يُبكِيكِ؟ مَا عِندَ اللَّهِ خَيرٌ لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَت: مَا أَبكِي أَلَّا أَكُونَ أَعلم أَنَّ مَا عِندَ اللهِ خَيرٌ لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم وَلَكِن أَبكِي لِأَنَّ الوَحيَ قد انقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتهُمَا عَلَى البُكَاءِ فَجَعَلَا يَبكِيَانِ مَعَهَا»[١].

إنه لفقهٌ عجيبٌ وإنها لنظرةٌ بليغةٌ تلك التي كانت لدى أُمِّ أيمنٍ رضي الله عنها، فقد كانت تستشعر أهمية وحي الله سبحانه وتعالى في حياة المسلمين؛ هذا الوحي الذي وَجَّهَ الأمَّة إلى الصراط المستقيم وأرسى في حياتها عقيدة التوحيد فحوَّل أُمَّةً أُمِّيَّةً لا تقرأ ولا تكتب إلى أُمَّةٍ علَّمت البشرية قوانين الحَقِّ والعدل والخير. ولذلك لا بُدَّ لنا من دراسة الدوافع السلوكية لجيل الصحابة رضي الله عنهم وكيف أنَّ العقيدة الإسلامية كانت المحرِّك الأول لفاعليتهم دون منازعٍ. فالثواب الأخروي والتطلع إلى مرضاة

---

[١] صحيح مسلم ج٤/ص١٩٠٧.

الله ﷻ جعلهم في تسابقٍ دائمٍ نحو نشر الإسلام بالقول والعمل ومن ثَمَّ التضحية بالمال والنفس والأهل، بل وجعل كل ذلك رخيصًا من أجل الله ﷻ وفي سبيله.

لا ينبغي للإنسان مهما ارتقى في سُلَّمِ المغريات الدنيوية أن يجعل أيَّ شيءٍ يحول بينه وبين الأداء الأمثل لمتطلبات الإيمان الصادق. وقد ضرب لنا أصحاب النَّبي ﷺ في ذلك أروع الأمثلة في التضحية بالمال والنفس؛ فهذا أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه يُقَدِّمُ جميع ماله نُصرَةً لدين الله ﷻ، يقول عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:«أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَن نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا، فَقُلْتُ اليَومَ أَسبِقُ أَبَا بَكرٍ إِن سَبَقتُهُ يومًا، فَجِئتُ بِنِصفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:مَا أَبقَيتَ لِأَهلِكَ؟ قُلتُ: مِثلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكرٍ بِكُلِّ مَا عِندَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكرٍ، مَا أَبقَيتَ لِأَهلِكَ؟ قَالَ: أَبقَيتُ لَهُم اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلتُ: وَاللهِ لَا أَسبِقُهُ إِلَى شَيءٍ أَبَدًا»[١]. وعن تضحية عثمان بن عفان رضي الله عنه يروي الإمام البخاري رحمه الله أنَّ رسول الله ﷺ قال:«مَن يَحفِر بِئرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ، فَحَفَرَهَا عُثمَان، وَقَالَ مَن جَهَّزَ جيشَ العُسرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ، فَجَهَّزَهُ عُثمَان»[٢].

وكان الصحابي الجليل أنس بن النَّضر رضي الله عنه قد غاب عن معركة بدرٍ فقال:«غِبتُ عن أَوَّلِ قِتَالٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، لَئِن أَشهَدَنِي اللهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أُجِدُّ، فَلَقِيَ يومَ أُحُدٍ، فَهُزِمَ النَّاسُ فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعتَذِرُ إِلَيكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ – يَعنِي المسلِمِينَ – وَأَبرَأُ إِلَيكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ المشرِكُونَ، فَتَقَدَّمَ بِسَيفِهِ فَلَقِيَ سَعدَ بنَ مُعَاذٍ فَقَالَ: أَينَ يَا سَعد؟ إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى

---

[١] سنن الترمذي ج٥/ ص٦١٤ وقال عنه: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وسنن أبي داود ج٢/ص١٢٩.

[٢] صحيح البخاري ج٣/ص١٣٥١.

فَقُتِلَ فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِشَامَةٍ أو بِبَنَانِهِ وَبِهِ بِضعٌ وَثَمَانُونَ بَينَ طَعنَةٍ وَضَربَةٍ وَرَميَةٍ بِسَهمٍ»[١].

وكيف يمكننا تفسير دوافع سلوك ذلك الصحابي الجليل الذي رمى بتمراتٍ من يده في لحظةٍ يغشاه فيها الجوع ليسارع الخطى نحو طاحونة الجهاد ومركز المعركة ويصرخ قائلًا: «بَخٍ بَخٍ، إنَّها لحياةٌ طويلةٌ»؟ نعم، كان ذلك المشهد يوم معركة بدرٍ الكبرى، يوم التقى الجمعان، يوم ناداهم قائدهم رسول الله ﷺ نحو المعالي، يقول أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: «انطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا المشركِينَ إِلَى بَدرٍ، وَجَاءَ المشرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا يقدمَنَّ أَحَدٌ مِنكُم إِلَى شَيءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ، فَدَنَا المشرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرضُ. قَالَ عُمَيرُ بنُ الحُمَامِ الأَنصَارِيُّ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرضُ؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا يَحمِلُكَ عَلَى قَولِكَ بَخٍ بَخٍ؟ قَالَ: لَا وَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا رَجَاءَ أَن أَكُونَ مِن أَهلِهَا، قَالَ: فَإِنَّكَ مِن أَهلِهَا، فَأَخرَجَ تَمرَاتٍ مِن قَرنِهِ فَجَعَلَ يَأكُلُ مِنهُنَّ ثُمَّ قَالَ: لَئِن أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمرِ ثُمَّ قَاتَلَهُم حَتَّى قُتِلَ»[٢]. وهكذا فقد غشي ذلك الصحابي الجليل ساحة الوغى حتَّى أدركته مَنِيَّةُ الشهادة في سبيل الله سبحانه وتعالى ففارقت روحه الطاهرة مسرح الحياة ومعترك الأحداث لتستظلَّ في ظلِّ عرش الرحمن.

ونجوب في ظلال أحداث السيرة لنلتقي بِثُلَّةٍ من العاشقين للتضحية في سبيل الله سبحانه وتعالى. كان هؤلاء الصحابة يرغبون بصدقٍ في نيل شرف القتال مع رسول الله ﷺ فكانوا يتوسلون

---

[١] صحيح البخاري ج٤/ص١٤٨٧.

[٢] صحيح مسلم ج٣/ص١٥١٠.

إليه ليسمح لهم بالخروج معه إلى غزوة تبوك، فلا يجد ما يحملهم عليه من ركوب القتال ولا هم يملكون راحلةً وعُدَّةً للخروج، فيتولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألَّا يجدوا ما يحملهم لبلوغ غايتهم[١]، قال الله ﷻ في حقِّهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]. إنها الصورة الحية التي تعكس صدق المقاصد في ميدان الاعتقاد، يشعر أصحابها بشديد الآلام وعميق الأحزان لأنهم لا يملكون وسيلةً يشاركون بها مع رسول الله ﷺ وأصحابه في رحلة التضحية في سبيل الله ﷻ، وهي رحلةٌ تفتح لقاصديها أبواب الجنان وتكشف عنهم الستار لتنعم أبصارهم برؤية الله ﷻ. وهناك مواقف أخرى كثيرةٌ في سيرة الصَّحابة ﭫ -سواءٌ في تضحيتهم بأموالهم أو بأنفسهم في سبيل نصرة دين الله ﷻ- ولا مجال لسردها في هذا الموطن.

هذه هي عقيدة الإسلام التي أوقدت جذوة الإيمان في قلوب العارفين وطرقت أسماع الصاغين لصوت الحَقِّ، فأشرق بنورها ظلام الدنيا وأصبح أصحابها مناراتٍ في الأرض مستقبلةً لنور السماء وأصبح من يعشقها رهينةً لمحبوبات سيِّده وخالقه؛ والنَّفس الغالية على أصحابها المؤمنين هي رخيصةٌ في نظرهم عندما تُفنى في سبيل الله ﷻ.

وبمثل هذه الروح انتصر الإسلام وانتشر وبمثلها عَلَت كلمة الله ﷻ وساد العدل بين الناس. وعلى الأمَّة أن تأخذ العبر والعظات فيمن مضى من الصَّادقين من أمَّة محمَّدٍ ﷺ حتَّى تعيش

[١] انظر: تفسير ابن كثير ج٢/ص٣٨٣، والفتاوى لابن تيمية ج٢٩/ص٣٧٥.

روح الإسلام لا قالبه وأساس العقيدة لا دوافع الهوى والمصالح، على أن تكون التضحية ثمن صدق الصادقين وقبلة القاصدين ومنارة السَّاعين إلى مرضاة رب العالمين.

النظرة الواقعية لجيل الصحابة

من الخطأ أن نتصور جيل الصحابة ﷺ خارج بشريتهم وما لازمها من صفاتٍ، قال ﷻ مخاطبًا إيَّاهم:﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ [الأنفال: ٦٦]، وقال في بيان بعض أحوالهم:﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ولما كان جيل الصحابة ﷺ مجتمعًا بشريًّا فقد راعى الحقُّ ﷻ ذلك في منهج التغيير، فكان لتدرج نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ أثرٌ واضحٌ في حياتهم، ممَّا أدَّى إلى البناء التربوي المتناسق مع طبيعة المرحلتين خلال العهد المكي والمدني. وعلى هذا الأساس، فقد أكَّد الإسلام على أهميَّة التدرج المرحلي في عملية البناء التربوي ليبقى التوازن والتنسيق قائمًا بين مقدار الاكتساب وبين طبيعة البشر التي فطر الله ﷻ النَّاس عليها. وتعزيزًا لهذا المعنى في ما يَخُصُّ نزول القرآن الكريم قالت أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:«إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنهُ سُورَةٌ مِنَ المفَصَّلِ فِيهَا ذِكرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسلَامِ نَزَلَ الحَلَالُ والحَرَامُ، وَلَو نَزَلَ أَوَّلَ شَيءٍ لَا تَشرَبُوا الخَمرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُ الخَمرَ أَبَدًا، وَلَو نَزَلَ لَا تَزنُوا لَقَالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَد نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلعَبُ:﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وَمَا نَزَلَت سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِندَهُ»[١]. ومع أنَّ مجتمع الصحابة ﷺ قد بلغ في الطاعات مبلغًا عظيمًا لم يبلغه أيُّ تجمعٍ إيمانيّ آخر إلى يومنا هذا، لكننا نجد فيه من اكتفى بالأخذ بالحدِّ

[١] صحيح البخاري ج٤/ص١٩١٠.

الأدنى الذي يحقق صفة الإسلام، فعن جابرٍ بن عبد الله رضي الله عنه أنَّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال: «أَرَأَيتَ إِذَا صَلَّيتُ الصَّلَوَاتِ المكتُوبَاتِ وَصُمتُ رَمَضَانَ وَأَحلَلتُ الحَلَالَ وَحَرَّمتُ الحَرَامَ وَلَم أَزِد عَلَى ذَلِكَ شَيئًا، أَأَدخُلُ الجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شيئًا»[١].

وبالرغم من أنَّ واقع الصحابة يرسم صورةً مثاليةً في إخلاص النية وصدق التوجه إلى الله سبحانه وتعالى، لكنَّ ذلك لا ينفي تأثر بعضهم بالعوامل المحيطة بهم، ولقد كشف القرآن الكريم عن بعض أوجه الخلل التي اعترضت ممارسات الصحابة رضي الله عنهم، ومنها ما يلي:

أوَّلًا: اختلافهم في توزيع الغنائم بعد أن نصرهم الله سبحانه وتعالى في معركة بدرٍ الكبرى، فكان هذا الحدث سببًا لنزول سورة الأنفال، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

ثانيًا: رغبة بعضهم في الحصول على أموال قافلة قريش التي كان يقودها أبو سفيان دون الرغبة في الاشتراك في ذات الشوكة (وهي معركة بدرٍ الكبرى)، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٥-٧].

ثالثًا: مخالفة بعض الصحابة رضي الله عنهم لأمر النَّبِيِّ ﷺ في معركة أُحُدٍ بسبب رغبتهم في الغنائم قبل انتهاء المعركة ممَّا حال ذلك دون اكتمال النَّصر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم

---

[١] صحيح مسلم ج١/ص٤٤.

مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

رابعًا: إعجابهم بكثرة عددهم يوم حنينٍ مما أحدث خللًا في كمال التصور في عقيدة الجهاد، وهي العقيدة التي رسم معالمها القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، فتشتَّتت الجموع رغم كثرتها وقوتها وتراجعت أمام الأعداء، قال الحقُّ ﷻ في وصف هذا الحدث:﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

خامسًا: وجَّهَ الباري ﷻ في مطلع سورة الحجرات أصحاب رسول الله ﷺ إلى تصحيح الأخطاء التي وقعت من بعضهم في حضرة النبي ﷺ، سواءٌ تعلق الأمر برفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ كما أخبر تعالى عن ذلك في قوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، أو بمناداته من وراء حجرات أزواجه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤-٥].

سادسًا: تردُّد بعض الصحابة في الخروج إلى غزوة تبوك، حيث غلبت عليهم ثُقلَةُ الأرض ومغريات الحياة وتَخَلَّفُوا عن ركب الجهاد مع رسول الله ﷺ فنزلت آيات القرآن الكريم تصف حالهم وتنقل إليهم عتاب الله ﷻ لهم على موقفهم، قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا

قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩]، وقال أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وهكذا تنزَّلت الآيات القرآنية تبعًا للحدث لتصون جيل التنزيل ومجتمع القدوة ولتبلغ بهم حدَّ الكمال المقدَّر لأتباع الأنبياء في ظلال منهج الله سبحانه وتعالى.

أهمية دراسة السنن الإلهية

لقد وردت في معاجم اللغة تعريفاتٌ كثيرةٌ في بيان معنى السُّنَن، ويَصُبُّ معظمها في معنى عامٍ واحدٍ. فَالسُّنَنُ جمع سُنَّةٍ وهي الطريقة المعبدة أو السيرة المتبعة سواءٌ كانت حسنةً أو قبيحةً. وجاء هذا المعنى في حديث النبي ﷺ عن أهل المجوس «سُنُّوا بِهِم سُنَّةِ أَهلِ الكِتَابِ»[١]، أي خذوهم على طريقتهم[٢].

وقال ابن تيمية رحمه الله:«والسُّنَةُ هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى بالاعتبار فقال:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، والاعتبار هو أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أنَّ حُكمَهُ مثل حُكمِهِ»[٣].

وعلى هذا الأساس، فإنَّ سُنَّةَ الله هي النظام والقانون الإلهي الذي يحكم الله سبحانه وتعالى به خلقه ويُسَيِّرُ به كونه وهي أيضًا طريقة الحَقِّ سبحانه وتعالى المتَّبعة في معاملته للبشر وفقًا لسلوكهم وأفعالهم. والسنن بشكلٍ عامٍ على نوعين: السنن الكونية والسنن الشرعية:

ونعني بالسنن الكونية الأنظمة والقوانين الربانية التي يدير بها الحَقُّ تعالى كونه ويُسَيِّرُ بها شؤون خلقه وفق أمره ومراده. وهذه القوانين مهيمنةٌ لا تتغير ولا تتبدل إلى أن تقوم الساعة، وهي التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعة غالبًا. أمَّا السنن الشرعية، فهي

---

[١] سنن البيهقي الكبرى ج٧/ص١٧٢.

[٢] لسان العرب ج١٣/ص٢٢٥.

[٣] كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ج١٣/ص٢٠.

التي تتعلق بدين الله ﷻ وأمره ونهيه وما يترتب على ذلك من وعدٍ ووعيدٍ في الدنيا والآخرة، وذلك ترتيبًا على سلوك البشر وأفعالهم ومعتقداتهم.

إنَّ موضوع السنن الإلهية من أهمّ وأدق المواضيع المتعلقة بحياة النَّاس وبمصير الأُمَّةِ المسلمة ومدى واقعية التخطيط للقادم في مستقبلها. ومع ذلك، فإنه لم يأخذ نصيبه المطلوب في مجال البحث والتأليف -لا في الماضي ولا في الحاضر- خصوصًا إذا قِسنَا ذلك على العلوم المتنوعة في مجال الدراسات الإسلامية والتي غصَّت بها المكتبة الإسلامية وثَقُلَ بها التراكم المعرفي في ميدان التراث الإسلامي.

وانطلاقًا من ضروريات الفقه الإسلامي الشامل، فإني أرى ضرورة أن يعاد النظر في فقه الأولويات داخل منظومة التخصصات الدينية لا سيما أنَّ موضوع السنن الإلهية من الموضوعات اللصيقة بقضايا العقيدة، بل ومن أهمها بعد توحيد الله ﷻ. يقول ابن القَيِّم رحمه الله: «فَأَسعَدُ النَّاسِ فِي الدَّارَينِ أَقوَمُهُم بِالأَسبَابِ الموصِلَةِ إِلَى مَصَالِحِهِمَا وَأَشقَاهُم فِي الدَّارَينِ أَشَدُّهُم تعطِيلًا لِأَسبَابِهِمَا، فَالأَسبَابُ مَحَلُّ الأَمرِ والنَّهيِ والثَّوَابِ والعِقَابِ والنَّجَاحِ والخُسرَانِ. وَبِالأَسبَابِ عُرِفَ اللهُ، وَبِهَا عُبِدَ اللهُ، وَبِهَا أُطِيعَ اللهُ، وَبِهَا تَقرَّبَ إِلَيهِ المتقَرِّبُونَ، وَبِهَا نَالَ أَولِيَاؤُهُ رِضَاهُ وجِوَارَهُ فِي جَنَّتِهِ، وَبِهَا نُصِرَ حِزبُهُ ودِينُهُ وأُقِيمَت دَعوَتُهُ، وَبِهَا أَرسَلَ رُسُلَهُ وشَرَّعَ شَرَائِعَهُ، وَبِهَا انقَسَمَ النَّاسُ إِلَى سَعِيدٍ وشَقِيٍّ ومُهتَدٍ وغَوِيٍّ؛ فَالوُقُوفُ مَعَهَا وَالالتِفَاتُ إِلَيهَا وَالنَّظَرُ إِلَيهَا هُوَ الوَاجِبُ شَرعًا كَمَا هُوَ الوَاقِعُ قَدَرًا»[١]. ولهذا فإنه من الضروري على الباحثين التركيز على موضوع فقه السنن

---

[١] مدارج السالكين ج٣/ص٤٠٨.

الإلهية لما لها من أهميَّةٍ بالغةٍ في استشراف المستقبل والاستعداد للتعامل مع ما هو آتٍ وفق نظراتٍ صائبةٍ للقادم من الأحداث والأحوال.

وبخصوص استشراف المستقبل، فمنه ما يقع وقوعًا يقينيًّا لا تخمينيًّا مثل إخبار الله ﷻ عن انتصار الروم على الفرس في قادم الزمن، قال تعالى:﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥]، وقد وقع ذلك؛ فالوعد هنا كان صريحًا لا يحتمل الاجتهاد والنظر، وهذا الذي دفع أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه للجزم بوقوعه فراهن قريشًا عليه. ومثل هذا أيضًا دخول الصحابة رضي الله عنهم المسجد الحرام آمنين بعد أن وعدهم الله ﷻ بذلك في قوله:﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]. أمَّا الاستشراف التخميني فهو قائمٌ على النظر والاجتهاد في نواميس الله ﷻ، ومقدار المصداقية في تحققه يتوقف على قوة استقراء النواميس ودقة فهمها ومن ثَمَّ قدرة المجتهد على إسقاطها في أرض الواقع.

إنَّ فهم السنن الربانية خطوةٌ من خطوات الانتفاع بها والاستفادة منها، وإذا كنا نقول في مجال الحكم على الأشياء «إنَّ الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره»، فيمكننا أن نقول كذلك في ميدان السنن «إنَّ فهمها طريقٌ إلى تسخيرها وإنَّ إدراكها سببٌ موصلٌ إلى توظيفها»، وإلَّا فأنَّى للإنسان كائنًا من كان أن ينتفع بشيءٍ لا يدرك كنهه ولا يسبر غوره ولا يعرفه على حقيقته؟ إنَّ أوجب ما يجب على المسلمين هو أن يفهموا أولًا سنن الله ﷻ في الحياة والأحياء وأن يتعاملوا

معها على هذا الأساس؛ فأكثر المسلمين اليوم لا ينقصهم إخلاصٌ ولا إيمانٌ بقدر ما ينقصهم فهمٌ صحيحٌ لقضايا الدين وتَصَوُّرٌ سليمٌ لبعض المفاهيم والمصطلحات العامَّة مثل الدين والعبادة والحرية والتجديد.. إلخ. وينقص المسلمين في التعامل مع هذه المصطلحات فهم الضوابط التي تتيح لهم فرصة الانتفاع بحقيقة فهمها.

إنَّ صناعة النجاح جزءٌ من صناعة الحياة والتخطيط للمستقبل على أساس التوقعات المستندة إلى أسسٍ ثابتةٍ تربط المقدمات بنتائجها والأحكام بعللها، ولهذا فإنَّ فهم السنن والعمل بها جزءٌ كبيرٌ من النجاح في تحقيق الأهداف المرجوَّة. ولا شكَّ أنَّ السَّعي لاستشراف المستقبل من الأمور الضرورية التي يجب أن يحرص عليها أولئك الذين يملكون زمام القيادة في النَّاس.

إنَّ استشراف المستقبل لا يدخل في اليقينيات من الأمور لأنَّ الجزم به هو في علم الله ﷻ الغيبي، ولهذا تلزمنا قراءةٌ متأنيةٌ للقادم وفق مقدماتٍ وسننٍ تجعل من القادم أمرًا مرتبطًا بالواقع المعايش ومُتَّصِلًا به حتَّى لا نعيش المفاجآت غير المحسوبة ولكي ننأى بأنفسنا بعيدًا عن العشوائية والتخبط. ويساعد استشراف المستقبل على التخطيط للقادم وتجاوز أخطاء الحاضر إلى حدٍّ كبيرٍ، فنحن لا نستطيع أن نحدِّد النهاية ولكن نستطيع أن نختار طريق الوصول إلى النهاية. واستشراف المستقبل شبيهٌ بما تخبر به الأرصاد الجوية عن أحوال الطقس في الأيام القادمة، وهذه التنبؤات كثيرًا ما تصيب لأنها مستندةٌ إلى أسسٍ متينةٍ تُبنى عليها التوقعات القادمة. وكذلك استشراف المستقبل، فهو أمرٌ قائمٌ على سننٍ ثابتةٍ لا تَتَغَيَّرُ ولا تَتَبَدَّل.

دواعي دراسة السنن الإلهية:

وتكمن في الأمور التالية:

أَوَّلًا: للاعتبار والاتعاظ. ولذلك يلزمنا أخذ الحيطة والحذر من أن نقع فريسة الجهل بمنظومة السنن الإلهية فنجهل النتائج المرتبطة بالمقدمات. ومن هنا فإنَّهُ يلزم ولاة الأمر أن يفقهوا هذه السنن وينظروا إليها نظر اعتبارٍ وقياسٍ، فينطلقوا بسياساتهم من فقههم لسنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مدركين أنَّ هناك سُنَّةً جاريةً لا تتخلف وهي سُنَّةُ هلاك الظالمين ونصرة المظلومين وأنَّ الأيام دُوَلٌ، يومٌ لك ويومٌ عليك، ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك! قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وعند إدراك الحاكم لسنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه لن يخطط لمستقبله على أساس أنه مخلَّدٌ في الأرض ولا على أساس أنه مالكٌ لها لأنه سيعتبر من مآل ذلك الحاكم الجبار الذي سبق وأن ادَّعَى الألوهية، قال تعالى مُخبرًا عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، وادَّعَى الربوبية أيضًا، قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٦]، وادَّعَى الملكَ كذلك، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]. ولكن كيف كانت نهايته؟ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦].

والعبرة مدعاةٌ لأخذ الحيطة والحذر لمن جاء بعده، فسنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هلاك الظالمين جاريةٌ لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّل، وحيثما كان الظلم كان الهلاك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾

[هود: ٨٢-٨٣]. والذي أصاب فرعون من سخط الله ﷻ وغضبه هو نتيجةٌ لطغيانه وجهله بسنن الله ﷻ. ولهذا فإنَّ فقه السنن الإلهية هو من أجل الاعتبار وتدارك الأمر قبل فوات الأوان.

ثانيًا: للتخطيط للمستقبل. فنحن نخطط على أساس أنَّ هناك سُنَّةً إلهيةً جاريةً وماضيةً، لها مقدماتٌ ونتائج وأسبابٌ وعللٌ. وحينما نرى عالم اليوم وقد بلغ من القوة والهيمنة ما لم تشهده البشرية من قبل، فالأرض أخذت زخرفها وازَّينت وظنَّ ساستها ومن يملكون زمام أمرها أنهم قادرون عليها (وقد صرَّحوا بذلك)، عندها يغشانا سؤالٌ هامٌّ وهو: كيف يجب أن تكون نظرتنا إلى مستقبل البشرية وفق ذلك؟ وكيف يجب أن يكون تخطيطنا للمستقبل وفق فقه السنن؟

إذا نظرنا إلى الأحداث بعيدًا عن سنن الله ﷻ، فلا شكَّ أنَّ القلق سيتملَّك قلوبنا ولا شكَّ أنَّ الشعور بالهزيمة سَيَحُلُّ علينا قبل الدخول في ميادين الصراع، فكلما شمخ أهل الباطل شعرنا نحن بالتقزم والضياع ولم نجد لأهل الحَقِّ موطئ قَدَمٍ في عالمٍ تزاحمت فيه الأقدام. أمَّا المؤمن الذي يفقه نواميس الله ﷻ في حُكمِ الحياة فيعلم أنَّ الحياة تخضع لخالقها وحاكمها وليس لمن يحكمها أو يتحكَّم فيها من البشر، وعندها سيمضي في حياته بخطى ثابتةٍ وهو يعلم أنَّ ما يجري في هذا العالم من مظاهر وأحداثٍ إنَّما هي -بجميع أجزائها من مقدماتٍ ونتائج- ستخضع لقهر سنن الله ﷻ لأنَّ الله ﷻ غالبٌ على أمره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]. وجاء ذكر تفصيل الآيات هنا من أجل بيان

سُنَّةِ الله سبحانه وتعالى في هلاك الظالمين، خصوصًا وأنَّ الأرض كانت قد شهدت من قبل حضارةً وعمرانًا مازج الظلم أنفاسها حتَّى وقعت فريسةً لقهر سنن الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

ثالثًا: للتحوط والاستعداد للقادم، ليس على أساس علمنا بالغيب -فنحن عاجزون عن ذلك- وإنَّما على أساس الربط بين المقدمات والنتائج وفق نظام السنن الإلهية التي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، وذلك حتَّى يكون الاستعداد للتعامل مع الحياة في ظلال سنن الله سبحانه وتعالى والتحسب للزمن القادم وفق مقدماتها ونتائجها؛ فهي مدار الأمر ومعقد الأقدار ومنطلق الغايات، فلا نخرق الأرض لندنوها ولا نصعد في السماء لنعلوها، قال تعالى:﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

رابعًا: للوقاية من الوقوع فيما وقع فيه الأولون من مشاكسةٍ لسنن الله سبحانه وتعالى ومخالفةٍ لأمره. فإذا تحققت هذه الوقاية في حياتنا فلن يصيبنا ما أصابهم من سخط الله سبحانه وتعالى وغضبه، قال تعالى:﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ۝٤٥ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ۝٤٦ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٥-٤٧].

خامسًا: من أجل ضبط مسيرة الاستخلاف في الأرض وفق سنن الله ﷻ ونظامه الشرعي. وبذلك سيتحقق الهدف من الاستخلاف على وجهه الأكمل والأتمّ وستتحقق عمارة الأرض وفق قانون خالقها من أجل كمال الأداء البشري المقدَّر لهم من عند الله ﷻ.

سادسًا: لأنَّ فقه السنن سيزيدنا إيمانًا بالله ﷻ ويقينًا بوعده. وهذا اليقين الناجم عن فقه سنن الله ﷻ سيزيدنا رسوخًا في ديننا وعقيدتنا. وأمَّا الجهل بها، فقد يزيد البعض ريبًا وشكًّا بأفعال خالقنا سبحانه وقد يضعف ثقتهم بقضائه وقدره. والذي يفقه سنن الله ﷻ –الكونية منها والشرعية– لا يَغتَرُّ بمظاهر الأمور ولا يُخدَعُ بظاهر الأحداث لأنه ينظر بنور الله ﷻ ويُبصِرُ الأمور ببصيرةٍ إيمانيةٍ صادقةٍ، قال تعالى:﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

سابعًا: لأنَّ دراسة السُّنَنِ ستنقلنا من التخبط إلى التخطيط ومن التسليم للواقع إلى النهوض به. وبهذا سنعيش الحياة بأمل الوعد الإلهي ونمضي في مسيرتنا في ظلال التوكل على الله ﷻ بعد الأخذ بأسبابه وفق ناموس«اعقِلهَا وَتوَكَّل»[١]. ولا يسعنا بحالٍ الحكم على مظاهر الحياة ومجريات الأحداث فيها من غير فهمٍ عميقٍ لسنن الله ﷻ، فالجهل بها يُحدِثُ خَللًا في الحكم وسوء تقييمٍ وتفسيرٍ للأحداث.

ثامنًا: لأنَّ دراسة السُّنَنِ تجعل المؤمن أكثر واقعيةً في تقدير نتائج الأمور وأقرب إلى تحقيق الأهداف، فلا يسرف في التفاؤل ولا يقنط من رحمة الله ﷻ. وبقدر ما يكون المدخل الصادق

[١] من حديث أَنَس بن مَالِكٍ رضي الله عنه قال: قال رَجُلٌ:«يا رَسُولَ الله، أعقلها وَأَتَوَكَّل أو أطلقها وَأَتَوَكَّل؟ قَالَ: اعقِلهَا وَتوَكَّل»، سنن الترمذي ج٤/ص٦٦٨، وصحيح ابن حبان ج٢/ص٥١٠.

منطلقًا له يكون عندها المخرج الصادق ثمرةً ونتيجةً لمدخله، قال تعالى:﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

تاسعًا: لأنَّ السُّنَنَ الإلهية تفتح الآفاق لمن أراد أن يرى هذا العالم بأصله لا بزينته، فلا يسارع الخطى بغفلته ولا يصارع الأقدار بحماقته كما فعل فرعون، قال تعالى:﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٨-٧٩].

عاشرًا: بمعرفة المؤمنين لسنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تتحدَّد مواقفهم من الغير، فلا ينجروا بغفلةٍ لإقامة علاقاتٍ جوفاء ظاهرُها الرحمة وباطنُها من قبله العذاب! فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد كشف لعباده المؤمنين المستور ممَّا يضمره الأعداء تجاههم، قال تعالى:﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨]. وفي غفلة المسلم عن سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ستقع الأمَّة فريسة التبعية للغير، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم شِبرًا بِشِبرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَو دَخلُوا فِي جُحرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعتُمُوهُم»[١]، وفي روايةٍ أخرى عن أبي واقدٍ الليثي قال:«خَرَجنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبلَ حُنَينٍ فَمَرَرنَا بِسِدرَةٍ فَقُلتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، اجعَل لَنَا هَذِهِ ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لِلكُفَّارِ ذَاتُ أَنوَاطٍ، وَكَانَ الكُفَّارُ يَتَوَطَّنُونَ بِسِلاَحِهِم بِسِدرَةٍ وَيَعكُفُونَ حولَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:اللهُ أَكبَر، هَذَا كَمَا قَالَت بَنُو إِسرَائِيلَ لموسى﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، إِنَّكُم تَركَبُونَ سَنَنَ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم»[٢].

[١] صحيح مسلم ج٤/ص٢٠٥٤.

[٢] مسند أحمد بن حنبل ج٥/ص٢١٨.

وأخيرًا (وليس آخِرًا): لأنَّ فهم السُّنَنِ يساعد على استبعاد عنصر المصادفة، فمن المنطق الصحيح والعقل السليم ألَّا يرى أحدٌ للصدفة أثرًا في الخلق أو أفعال أو أشكال العباد؛ وهذا الإتقان والتكرار والشمول والاطراد في سُنَنِ الله ﷻ لا يمكن أن يكون من نتاج الصدفة، ولا يُقبل ذلك لا في الشرع ولا في المنطق.

التفسير المادي للتاريخ

يعكس التاريخ ماضي الأمم ويسجل أحداثها وحضارتها، وقد يكون لها وجهًا مشرقًا أو صورةً مُشَوَّهَةً. وقد زخر التاريخ الإسلامي على وجه الخصوص بأحداثٍ إنسانيةٍ لم تشهدها الأمم على مَرِّ العصور؛ فدراسته تعني دراسة القيم والمبادئ السامية والمثُل الإنسانية العليا. وبالرغم من وجود فجواتٍ تخللت تاريخنا الإسلامي بسبب تفاعل العنصر البشري الذي يكمن فيه الخير والشَّر، إلَّا أنَّ الأحداث التي شابت تاريخ أمَّتنا لن تغيِّر من وجهه المشرق لأنَّ الخطأ كان في ممارسات المسلمين وليس في قيم الإسلام ومبادئه.

لقد عكست الأحداث التي سجلها التاريخ الإسلامي أسباب الضعف والقوة ومواطن الخطر وبيَّنتها لأبناء الأُمَّة. وبما أنَّ المسلمين يمتلكون المنهج السَّدِيدَ المستَمَدَّ من روح الدين الإسلامي والذي من شأنه تقويم الأحداث مهما تنوعت وتعددت سلبياتها، فإنهم أقدر من غيرهم على تدارك الأخطاء وتصحيحها. وبما أنَّ التاريخ الإسلامي عكس منظومة القيم والمبادئ –التي مارستها المجتمعات الإسلامية على مرِّ العصور– وعكس أيضًا تأثير العقيدة والشريعة في خلق أبناء الأمة وسلوكهم، فلا يمكن أن نفسِّر أحداثه بمعزلٍ عن ذلك مهما تَأَثَّرنا بالعوامل المادية التي أَظَلَّت حياة النَّاس في أيامنا هذه. أمَّا التفسير المادي، فقد يتلاءم إلى حدٍّ كبيرٍ مع تاريخ الشعوب البعيدة عن تعاليم الوحي الإلهي والمتجردة عن المثل والقيم السماوية لأنَّ إطارها الفكري يبقى ملتصقًا بالقيم الأرضية ولا يتعدى حدودها.

ونَوَدُّ الإشارة هنا إلى شهادة المستشرق والفرد كانتول سميث على التاريخ الإسلامي، فقد قارب الصواب في شهادته التي جاء فيها ما يلي:«إنَّ المسلِمَ يُحِسُّ بالتاريخ إحساسًا جَيِّدًا. إِنَّهُ

يُؤمِنُ بِأَنَّ الله قد وَضَعَ نظامًا واقعيًّا يَسِيرُ البَشَرُ في الأرض على مقتضاه، ويحاولون دائمًا أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره. إنَّ المسلِمَ يعيشُ كُلَّ عَمَلٍ فرديٍّ أو جماعيٍّ وكُلَّ شعورٍ فرديٍّ أو جماعيٍّ بمقدار قُربِهِ أو بُعدِهِ من واقع الأرض لِأَنَّهُ قَابِلٌ للتحقيق. والتَّارِيخُ في نَظَرِ المسلم هو سِجِلٌّ للمحاولات البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض»[١].

وكما هو مُتَوَقَّعٌ، فقد حاول أعداء هذا الدين أن يضيفوا التفسير المادي إلى دراسة التاريخ الإسلامي في مناهج المؤسسات من منطلقاتٍ رأسماليةٍ ووجوديةٍ وماركسيةٍ، وذلك لتغرير الجيل الحالي وتضليله عن أهم عوامل نهضته. ويزعم هؤلاء الأعداء بأنَّ الإسلام انتشر بالسيف، وفي هذا قال المستشرق نلسون: «وأخضع سيف الإسلام شعوب أفريقية وآسية شعبًا بعد شعبٍ»، ويزعم لطفي ليفونيان بأنَّ تاريخ الإسلام كان سلسلةً مخيفةً من سفك الدماء والحروب والمذابح[٢]. وعرض المؤلفان بعض الافتراءات التي أصدرها المبشرون والتي تطعن في النبي ﷺ والقرآن الكريم والمسلمين والشريعة الإسلامية، وذلك من أجل تشكيك المسلمين بدينهم ونبيهم وقرآنهم[٣].

وفي العقود التي خلت من القرن الماضي، حاول المضللون من كتَّاب الفكر الماركسي تفسير التاريخ الإسلامي بمفهوم صراع الطبقات، ومن أخطر الشبهات التي طرحها الماركسيون محاولة تصوير عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم بأنَّ مسيرته كانت بسبب الصراع بين اليمين

---

[١] أوردها أنور الجندي في: سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، ص٢٩-٢٨.

[٢] التبشير والاستعمار في البلاد العربية، خالدي وفروخ، ص٤١.

[٣] راجع، ص٣٩-٤٥، وفيها بعض الردود عليهم.

واليسار في الإسلام، وأيضًا محاولة تصوير الإسلام على أَنَّهُ ثورةٌ اجتماعيةٌ واقتصاديةٌ وعلى أنَّ النَّبِيَّ ﷺ هو رسول الحريَّةِ والتَّحَرُّرِ. وحاول عبد الرحمن الشرقاوي في كتاباته تجريد دعوة النبي ﷺ من الوحي وتجاهل سِرَّ انتصاره في غزواته وأثر القوة الربانية التي كانت تسانده وترعاه[١].

وألَّف أحمد عباس صالح كتاب «اليمين واليسار في الإسلام» ولخص فيه تاريخ الإسلام على أَنَّهُ «كان صراعاً بين من يملكون ومن لا يملكون، وبين اليمين الغني بزعامة أبي سفيان واليسار الفقير الذي جاء بالإسلام، فكان ثورةً اجتماعيةً لانتزاع السلطة في مكة. ثم لما عجز اليمين أمام مَدِّ اليسار، أراد اليمين أن يُقَوِّضَ اليسار من داخله فأسلم أبو سفيان لينتزع السلطة ثُمَّ ليستولي على الحكم بعد وفاة الرسول ﷺ جناح الوسط بقيادة أبي بكرٍ ثم عمر الذي مال في آخر عمره لليسار، فتخلص منه اليمين باغتياله وبإحلال عثمان مكانه، والذي بدوره ثار عليه اليسار وقتله، فتولَّى عَلِيٌّ ليقيم اشتراكية الإسلام، إلَّا أنَّ اليمين لم يمهله وقضى عليه. واستولى على السلطة بنو أمية، واستمر الأمر لهم.. ولا زال الصراع مستمرًا بين اليمين واليسار ممثِّلًا عنصر الاستمرار في الحضارة الإسلامية وتاريخها»[٢].

وهكذا كان يُدَرَّسُ التاريخ الإسلامي بسموم الشيوعية والإلحادية، وتُدَرَّسُ سيرة الرسول ﷺ بشكلٍ لا يجعل منه أكثر من ثائرٍ يبتغي الإصلاح الاجتماعي وإذابة الفوارق وتوزيع الثروة توزيعًا عادلًا مع التشكيك بحقيقة الوحي وعزو ما كان يصدر عنه في جانب الوحي إلى عبقريته الفذة ومقدرته على الكلام. وكانوا يصوِّرون للسُّذج من الناس بأنه لا يوجد تعارضٌ بين الإسلام

---

[١] انظر: سموم الاستشراق والمستشرقين، أنور الجندي، ص٣٣-٣٦.

[٢] نحو منهج إسلامي في التربية، عباس محجوب، مجلة الجامعة الإسلامية ١٣٩٧هـ /ص ٢٩٣.

والشيوعية وأنَّ هدف الإسلام الأساسي هو قيام المجتمع الاشتراكي الذي يعمل لحسم الصراع لصالح الفقراء الذين يكونون قاعدة اليسار[١].

لقد غزا هذا الاتجاه الخطير بعض مدارس وجامعات العالم الإسلامي أعوامًا طويلةً وترك ركامًا هائلًا من الجهل بحقيقة الإسلام وأهدافه وطبيعته. وقد تمخَّض عن هذا الاتجاه جيلٌ علمانيٌّ لا يُكِنُّ للإسلام أيَّ ولاءٍ أو محبَّةٍ، وهو جيلٌ لا يرى في الدين إلا مصدرًا للتخلف وضياعًا للطاقات وتبديدًا للجهود. وللأسف، فَإِنَّ هذا الجيل العلماني ينظر إلى دينه على أَنَّهُ أسطورةٌ تاريخيةٌ طواها الزمن وليس لها أَيُّ تأثيرٍ في واقعنا المعاصر. ومن هنا، فقد كانت الحاجة شديدةً إلى كتابة التاريخ من جديدٍ على أساس روح الإسلام ومبادئه، مع ضرورة الربط بين ماضي الأمة وحاضرها لتتوارث أجيالها منظومة القيم التي صنعت أجمل الصفحات المشرقة في تاريخها.

ويجب التنبيه إلى خطورة الطعن في تاريخ المسلمين من قبل أعدائهم وإلى النوايا الخبيثة التي تكمن وراء ذلك والتي تستهدف القضاء المبرم على شخصية الأمَّة وإماتة جميع دوافع البناء التي من شأن تاريخنا أن يبعثها في نفوس أبنائنا بغية العودة إلى مصدر القوة والمنعة ومواجهة التحديات المعاصرة التي تتهددنا بالخطر.

ومن خلال دراسة وتتبع التاريخ الإسلامي عبر قرونه، سنعرف من هم أعداء الإسلام وكم هو حجم المكائد والدسائس التي خَطَّطَ لها هؤلاء من أجل القضاء عليه، وكذا المؤامرات التي حاكوها ضده منذ فجره الأول وإلى يومنا هذا بسبب رغبتهم المتزايدة في افتراس الأُمَّةِ الإسلامية، بل ومحوها من الوجود إن استطاعوا!

---

[١] انظر: المصدر السابق، ص ٣٩١-٣٩٢.

ومن هنا يلزم أن يتولى كتابة التاريخ الإسلامي أصحاب العقول الإسلامية النظيفة المتجردة لِلحَقِّ والبعيدة عن النزاعات الطائفية والاتجاهات المذهبية وتأثيرات الأفكار الهدَّامة التي تراكمت رواسبها في أوساطنا الإسلامية. وتشترط في هذه النخبة الكفاءة العلمية العالية والدراية الكبيرة بالتاريخ الإسلامي وتاريخ الحضارات التي عاصرته عبر القرون الطويلة. ولا بُدَّ من الإخلاص والصدق وقول الحَقِّ في أَيَّةِ قضيةٍ تاريخيةٍ بما يرضي الله ﷻ وحده، من غير الخضوع لتأثيراتٍ خارجيةٍ أو ضغوطٍ سياسيةٍ. ولا بُدَّ أيضًا في كتابة التاريخ الإسلامي من الابتعاد عن أَيَّةِ محاولةٍ لإرضاء الحاكم أو السلطان وعن أيِّ توسعٍ في القضايا الجزئية ذات الصفة الشخصية على حساب قضايا أخرى أكثر أهميةً وحاجةً للبحث والتدقيق.

ويجب ألَّا تسيطر النزعة القومية أو القطرية على كتَّاب التاريخ الإسلامي، ولهذا ينبغي أن يُعمَّم لفظ الإسلام والمسلمين بدل غيره من الألفاظ والمصطلحات التي قد تحمل نعرةً طائفيةً أو قوميةً أو عرقيةً.

نظرة في خلاف العلماء

إننا أمام مدرسةٍ فكريةٍ ضخمةٍ جذورها عريقةٌ وأصيلةٌ وهي صالحةٌ لأن تُؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حينٍ بإذن ربها، فليس لأحدٍ الحَقُّ في أن يقتل روح الإبداع فيمن أراد العيش في ظلالها –بسبب تَعَصُّبٍ لا ضرورة له– ولا في أن يناصب علماء الأُمَّةِ العداء بسبب ضيق الأفق وفقدان الموضوعية.

علينا أن ندرك حقيقةً نَصَّ عليها العلماء مفادها أنَّ «اختلاف المختلفين في الحَقِّ لا يعني اختلاف الحَقِّ نفسه»[١]، فإنَّ الحَقَّ واحدٌ وإن اختلفت الطرق الموصلة إليه وكثرت الاجتهادات من حوله وتعددت الآراء فيه، لا كما يفهم بعض الناس أنَّ اختلاف الفقهاء في مسائل الاجتهاد يعني تشتُّت منظومة الحَقِّ، بل إنَّ أوجه الحَقِّ وإن تَعَدَّدَت عند العلماء فهي تبقى داخل حدوده، وهذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنا فقد أكرمنا بشريعةٍ سمحاء وسعت ضعفاء المؤمنين، وعالجت أهل الرخص والأعذار، ووسعت كذلك أهل العزائم.

ومع أنَّ الحَقَّ واحدٌ لا يَتَعَدَّدُ خصوصًا في جوانب الاعتقاد الذي أشار إليه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، لكن لا يمنع ذلك من تعدد أوجه الحَقِّ الواحد في مسائل الفقه ودلالات النصوص، فيكون بذلك الحَقُّ بمثابة الشجرة الصالحة التي مهما تعدَّدَت غُصُونُهَا وتناثرت ثمارُهَا فَإِنَّ أصلها يبقى ثابتًا وراسخًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

[١] الإنصاف لابن السيد البطليوسي، ص١٩.

وليس غريبًا أن يقع الخلاف في مسائل الشريعة حتَّى مع وجود المشرّعِ وهو النبي ﷺ، فعن ابن عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قال: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأَحزَابِ: لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيظَةَ، فَأَدرَكَ بَعضَهُم العَصرُ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعضُهُم لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأتِيَهَا وَقَالَ بَعضُهُم بَل نُصَلِّي لَم يُرِد مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَم يُعَنِّف وَاحِدًا مِنهُم»[١].

فَكُلُّ فريقٍ منهم قد اجتهد ولم يقع الخطأ في اجتهادهم لأنَّ النَّبي ﷺ أَقَرَّهُم على ذلك، فالذين أَخَّرُوا صلاة العصر حتَّى وصلوا إلى ديار بني قريظة تمسكوا بظاهر خطاب النبي ﷺ، والذين صلوها في وقتها نظروا إلى المعنى المقصود -لا اللفظ الظاهر- وهو الإسراع في السير. وفي هذا الحديث دليلٌ على جواز الاجتهاد لمن يحق له النظر في الأدلة ليأخذ بظاهر الدليل من الكتاب والسنة، وكذلك يجوز له استنباط الأحكام منهما بطريق الاجتهاد أو الأخذ بظاهر الفهم.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وقد كَانَ أَصحَابُ رسول اللهِ ﷺ يَجتَهِدُونَ فِي النَّوَازِلِ وَيَقِيسُونَ بَعضَ الأَحكَامِ على بَعضٍ وَيَعتَبِرُونَ النَّظِيرَ بِنَظِيرِهِ.. وقد اجتَهَدَ الصَّحَابَةُ في زَمَنِ النبي ﷺ في كَثِيرٍ مِنَ الأَحكَامِ ولم يُعَنِّفهُم، كما أَمَرَهُم يومَ الأَحزَابِ أَن يُصَلُّوا العَصرَ فِي بَنِي قُرَيظَةَ فَاجتَهَدَ بَعضُهُم وَصَلَّاهَا في الطَّرِيقِ وقال: لم يُرِد مِنَّا التَّأخِيرَ وَإِنَّمَا أَرَادَ سُرعَةَ النُّهُوضِ، فَنَظَرُوا إِلَى المعنَى. وَاجتَهَدَ آخَرُونَ وَأَخَّرُوهَا إِلَى بَنِي قُرَيظَةَ فَصَلَّوهَا لَيلًا، وهؤلاءِ نَظَرُوا إِلَى ظاهِرِ اللفظ.. وَاجتَهَدَ سَعدُ بن مُعَاذٍ رضي الله عنه فِي بَنِي قُرَيظَةَ وَحَكَمَ فِيهِم بِاجتِهَادِهِ فَصَوَّبَهُ النبي ﷺ وقال: لَقَد حَكَمتَ فِيهِم

[١] صحيح البخاري ج١/ص٣٢١.

بحُكمِ اللهِ مِن فوقِ سَبعِ سَمَاوَاتٍ. وَاجتَهَدَ الصَّحَابِيَّانِ اللَّذَانِ خَرَجَا فِي سَفَرٍ فَحَضَرَت الصَّلَاةُ وَلَيسَ مَعَهُمَا مَاءٌ فَصَلَّيَا ثُمَّ وَجَدَا المَاءَ فِي الوَقت، فَأَعَادَ أَحَدُهُمَا ولم يُعِدِ الآخَرُ، فَصَوَّبَهُمَا وقال لِلَّذِي لم يُعِد: «أَصَبتَ السُّنَّةَ وَأَجزَأَتكَ صَلَاتُكَ»[١].

وعن عمرو بن العَاصِ قال: «احتَلَمتُ فِي لَيلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ فَأَشفَقتُ إِن اغتَسَلتُ أَن أَهلِكَ، فَتَيَمَّمتُ ثُمَّ صَلَّيتُ بِأَصحَابِي الصُّبحَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا عَمرُو، صَلَّيتَ بِأَصحَابِكَ وَأَنتَ جُنُبٌ، فَأَخبَرتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الاغتِسَالِ وَقُلتُ إِنِّي سَمِعتُ الله يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩]، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ وَلَم يَقُل شيئًا»[٢].

والصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا في منأى عن الوقوع في الخلاف، فقد حدث بينهم في مواطن كثيرةٍ، لكنَّ خلافهم كانت له أسبابه ومسوغاته وكان التحاكم إلى الحَقِّ هو غايتهم ومقصدهم. ومن ذلك ما وقع بينهم من خلافٍ حول وفاة النبي ﷺ، فعن أُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكرٍ عِندَ امرَأَتِهِ ابنَةِ خَارِجَةَ بِالعَوَالِي، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ لم يَمُت النبي ﷺ، إِنَّمَا هُوَ بَعضُ ما كان يَأخُذُهُ عِندَ الوَحيِ، فَجَاءَ أَبُو بَكرٍ فَكَشَفَ عن وَجهِهِ وَقَبَّلَ بين عَينَيهِ وقال أَنتَ أَكرَمُ على اللهِ مِن أَن يُمِيتَكَ مَرَّتَينِ، قد والله مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعُمَرُ فِي نَاحِيَةِ المسجِدِ يَقُولُ والله ما مَاتَ رسول اللهِ ﷺ، ولا يَمُوتُ حتى يَقطَعَ أَيدِيَ أُنَاسٍ مِنَ المنَافِقِينَ كَثِيرٍ وَأَرجُلَهُم، فَقَامَ أبو بَكرٍ فَصَعِدَ المنبَرَ فقال: مَن كَانَ يَعبُدُ اللَّهَ فإنَّ اللَّهَ حَيٌّ لم يَمُت، وَمَن كَانَ يَعبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قد مَاتَ، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ

---

[١] إعلام الموقعين لابن القيم، ج١/ص٢٠٣-٢٠٤.

[٢] سنن أبي داود ج١/ص٩٢.

ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قال عمر فَلَكَأَنِّي لم أَقرأها إِلَّا يومَئِذٍ»[١].

وعن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر له ما حمله على مقالته التي قالها حين تُوُفِّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: كنت أتأول هذه الآية:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فوالله إني كنت لأظن أنه سيبقى في أمته حتَّى يشهد عليها بآخر أعمالها وإنه الذي حملني على أن قلت ما قلت[٢].

فكأنه رضي الله عنه قد اجتهد في معنى الآيات الكريمة ففهم أَنَّ المراد منها الشهادة في الدنيا وذلك يقتضي بقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر أيامها. وكذلك اختلف الصحابة رضي الله عنهم في تغسيل النبي صلى الله عليه وسلم بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، واختلفوا أيضًا في مكان دفنه صلى الله عليه وسلم[٣]. ولقد وقع خلافٌ بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم فيمن يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في الحكم من بعده وأوشكت أن تقع فتنةٌ في هذا الأمر حتَّى اجتمعوا في سقيفة بني ساعدةٍ، وبعد مشاوراتٍ بينهم اختاروا أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه لخلافة النبي صلى الله عليه وسلم لما كان له من قُربٍ ومنزلةٍ ومكانةٍ وفضلٍ.

ووقعت أيضًا خلافاتٌ بين الصحابة رضي الله عنهم لا مجال لتفصيلها أو الحديث عنها لاتساع الأمر فيها، مثل خلاف الصحابة في قتال المرتدين على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه إضافةً إلى خلاف

---

[١] سنن ابن ماجه ج١/ص٥٢٠، وسنن البيهقي الكبرى ج٨/ص١٤٢، ومسند أحمد ٦/٢١٩.

[٢] كنز العمال ٧/٩٩.

[٣] انظر: سنن أبي داود ج٣/ص١٩٦، وسنن ابن ماجه ج١/ص٤٩٧، والمستدرك على الصحيحين ج٣/ص٦١، وصحيح ابن حبان ج١٤/ص٥٩٥.

الصحابةِ في كثيرٍ من المسائل الفقهية التي يتسع فيها الاجتهاد والنظر حتَّى قيل أنَّ المسائل التي خالف فيها عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه عبدَ الله بن عمر رضي الله عنهما قد بلغت مائة مسألةٍ. وتجدر الإشارة هنا أنَّ دائرة الخلاف في جيل الصحابة وأتباعهم لم تكن في المسائل الاعتقادية بل كانت في الفروع[١].

وفي عصر التابعين وما تلاه من العصور، فقد اتسع نطاق الخلاف وتعددت مدارس الاجتهاد والنظر والقياس بما لا يمكن حصره في كتابٍ أو موسوعةٍ. ومع ذلك، فإن اختلاف الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم من سلف الأُمَّةِ الصالح رحمهم الله ما أنقص من المحبة والأخوة التي كانت بينهم. فالمشكلة ليست في وجود الخلاف، وإنَّما في مآل هذا الخلاف، خصوصًا إذا أدَّى بالمختلفين إلى التنازع والتباغض وسوء العاقبة. ولقد أدرك المنصفون من علماء الأمَّة أمثال الإمام ابن تيمية رحمه الله خطر النيل من حرمة العلماء وأوصى بتحاشي الحكم الجائر عليهم فألَّف كتابًا أسماه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» وذكر فيه بأنه «ليس أحدٌ من الأئمة المقبولين عند الأُمَّةِ قبولًا عامًّا يتعمَّد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيءٍ من سنته، دقيقٍ كان أو جليلٍ. إنهم متفقون اتفاقًا يقينيًّا على وجوب اتباع الرسول وعلى أنَّ كل أحدٍ من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٢]. وكتب العالم الأندلسي البطليوسي كتابًا في أسباب الخلاف التزم في معظمه

[١] لِلتَّوَسُّعِ في مسائل الخلاف في جيل الصحابة وما تلاه، انظر كتاب: أدب الاختلاف في الإسلام للدكتور طه جابر العلواني، كتاب الأُمَّة، دولة قطر.

[٢] انظر: مجموع الفتاوى ج٢٠/ص٢٣٢.

الإنصاف في سرده لخلاف العلماء وبَيَّنَ أَنَّهُ في الغالب ينحصر في سببين أساسيين، وجميع أسباب الخلاف الأخرى تنطوي تحتهما. وهذان السببان هما:

السبب الأول: الخلاف في ثبوت النَّص، وهذا خاصٌّ بالحديث والرواية.

والسبب الثاني: الخلاف في فهم النَّص بحسب قواعد اللغة العربية وأوضاعها المعروفة، وهذا يشمل القرآن والحديث معًا[١].

ومع أنَّ الإمام السيوطي كان شافعي المذهب إلَّا أَنَّهُ لم ينتقص من قدر المذاهب الأخرى، حتَّى أنه ألَّف رسالةً في أبي حنيفة أسماها «تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة». وكذلك فعل الإمام ابن حجر الهيتمي الشافعي، فقد كتب رسالةً في مناقب الإمام أبي حنيفة أسماها «الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان».

نحن لا نرضى لأنفسنا أن نكون حكمًا على علماء الأُمَّةِ الأجلاء، لكن لا ينبغي الامتناع عن الحكم على بعض أقوالهم أو أفعالهم إذا دعت الضرورة الدينية إلى ذلك، شريطة توفر الأهلية في الحكم واكتمال شروطه على أن تتسع صدورنا لمجمل عطائهم وعلى ألَّا يدفعنا ظاهر تفسيرات النصوص إلى تبديع أصحابها، بل ينبغي الانبساط مع مدلولاتها المحتملة بُغيَةَ الحيدة عن الأحكام الظاهرة التي قد يقع فيها الجور والظلم؛ فمن عدالة التعامل مع عطاء العلماء ألَّا نُحَمِّلَهُم ظاهر الألفاظ قبل التَّأَكُّدِ من مقاصدهم فيها واتِّضَاحِ مدلولاتها التي عَنَوهَا.

---

[١] راجع كتاب «الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف» لعبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي (المتوفى سنة ٥٢١هـ)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ص١٤٠٣.

كم نحن بحاجةٍ إلى قولة أحد الأئمة لتلك المرأة التي خانها اللفظ في التعبير عن شعورها الصادق، فبدل أن تدعو له بالشفاء من مرضه دعت بقولها: «أَسأَلُ اللهَ أَن يُشفِيَكَ»، بِضَمِّ اليَاءِ بَدَلَ فَتحِهَا –فَبِالفَتحِ يُرَادُ الشفاء وبِالضَّمِّ يُرَادُ الهلاك أو الموت– فقال: «اللَّهُمَّ بِقَلبِهَا لا بِلِسَانِهَا»، أَي: اللَّهُمَّ تَقَبَّل منها الدعاء الذي قصدته بقلبها لا الدعاء الذي نطق به لسانها.

إِنَّ من الضروري أن يتوفر لدينا علماء أجلاء يتسمون بالأمور التالية:

أَوَّلًا: القدرة على الفقه الدقيق للنص الشرعي، وذلك بفهمه ومعرفة دلالاته المتنوعة، وكذلك الإحاطة بناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه، ومعالجة المتعارض منه أو المشكل فيه، وما إلى ذلك من ملابسات النصوص. إِنَّ وجود النَّص لا يعني الحكم، فالنصوص تُشَكِّلُ منطلق الحكم الفقهي، أمَّا سبيل الحكم فهو الاجتهاد والنظر والقياس. وتُشَكِّلُ قواعد أصول الفقه مرتكزًا هَامًّا نحو صياغة الأحكام وتوجيه الفتاوى، ولا بُدَّ أن نفرِّق بين مراتب الأحكام الشرعية منها والاجتهادية.

ثانيًا: التصور الصحيح لأسباب النزول أو أسباب الحكم، وذلك ليكون بالإمكان دراسة الحكم الشرعي داخل محيطه وضمن حالته من أجل إيجاد عناصر التقاطع والتشابه بين تلك الحالة التي نشأ من خلالها الحُكمُ وبين جميع الحالات المشابهة لها أو المشتركة في علة أحكامها. وهذا التصور الصحيح سيجعل الأُمَّةَ أقدر في التعامل مع فقه المستجدات وأكثر مرونةً في ميدان فقه النوازل، ممَّا سيحقق للفقه الإسلامي الشمولية والاستمرارية ومن ثَمَّ العالمية، كما سيحقق لأصحابه التواجد الميداني والتفاعل الحضاري في واقع النَّاس مهما اختلفت مشاربهم أو تباينت أجناسهم.

ثالثًا: موضوعية النظرة الفقهية والدراية بأحوال المكلفين. وبهذه الموضوعية والدراية سَيَتَمَكَّنُ الفقيه من شمولية الحُكمِ ممَّا سيجعل منظومة الأحكام تتسع على المكلفين ليتمكنوا من حسن الانتقاء والاختيار على أَلَّا تكون أهواء المكلفين هي مناط الترجيح، وإنَّما إصابة الحَقِّ الذي يُحَقِّقُ الطاعة المبتغاة لأهل التقوى.

رابعًا: القدرة على الموازنة بين الثوابت والمتغيرات وبين التأصيل والتجديد. إِنَّ وجهة التأصيل لا تتعارض مع حتمية التجديد، فالأصالة امتدادٌ نحو الجذور ومنطلقٌ نحو التجديد، والتجديد ضَرُورَةٌ من أجل البقاء والاستمرار. ولا مانع من أن نلبس القديم ثوبه المتجدد ولا مانع في أن يعيش المسلمون زمانهم وليس زمان غيرهم. وهناك في التجديد جانبٌ إبداعيٌّ يَرقَى بأتباع الدِّينِ إلى مستوى حضاريٍّ متقدمٍ، وهذا لا يمسُّ بكرامة ماضينا، بل هو امتدادٌ له على ألَّا يُفهَمَ من ذلك الذوبان والانجراف وفقدان الذات، وإنَّما صناعة الحياة في إطارها السليم لِيُدرِكَ الناس أنَّ الأرض ميراثٌ إيمانيٌّ وأنَّ منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرٌ على أن يقودها مهما تطورت واتسعت عَنَاصِرُ الحضارة فيها.

هل الاختِلَافُ رحمةٌ؟

هناك اختلافٌ جائزٌ أو مطلوبٌ كاختلاف العلماء في الفروع ومسائل الفقه لما فيه من توسعةٍ على المكلَّفين، وهناك اختلافٌ آخر مَنهِيٌّ عنه وهو الاختلاف والتَّفَرُّقُ في العقيدة وأصول الدين لا في فروعه، وقد قال يحي بن سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ:«أَهلُ العِلمِ أَهلُ توسعةٍ، وما برح

المفتون يختلفون فَيُحَلِّلُ هذا ويُحَرِّمُ هذا فلا يَعِيبُ هذا على هذا ولا هذا على هذا، وَإِنَّ المسألة لترد على أحدهم كالجبل، فإذا فتح له بابها قال: ما أهون هذه»[١].

لا شكَّ أنَّ في الاختلاف في مسائل الفقه توسعةٌ على المكلَّفين، قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ:«ما سَرَّني لو أنَّ أصحاب محمَّد ﷺ لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة»[٢]، ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:«النِّزَاعُ في الأَحكَامِ قد يكون رحمةً إذا لم يُفضِ إلى شَرٍّ عظيمٍ»[٣]. والممنوع في الخلاف هو الذي يُؤَدِّي إلى النزاع والفساد بين العباد، ولو كان جميع الاختلاف مذمومًا لما جاز وقوعه في الأحكام وفروع الشريعة، بل هو من التوسعة والرأفة بالعباد. وقد ورد أنَّ هارون الرشيد قال لمالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ:«يا أبا عبد الله، نكتب هذا الكتاب -يعني الموطأ- ونحمل النَّاسَ عليه ونُفَرِّقُهُ في آفَاقِ الإِسلَامِ لِنَحمِلَ عليه الأُمَّةَ، فقال يا أمير المؤمنين: إنَّ اختلاف العلماء رحمةٌ من الله تعالى على هذه الأمة. كُلٌّ يَتَّبِعُ مَا صَحَّ عنده وَكُلُّهُم على هدى، وَكُلٌّ يُرِيدُ الله تعالى»[٤]. ومعلومٌ أنَّ حديث «اختلافُ أُمَّتِي رَحمَةٌ» موضوعٌ لا أصل له[٥]، والخلاف الذي يقع في الأمَّة يفسد لحمتها ويشتِّت صفوفها ويجلب لها الشقاء. ومعلومٌ أنَّ خلاف العلماء ليس كخلاف الأمَّة عمومًا لأنه مَبنِيٌّ على مقتضى المصالح، بل هو ضرورةٌ للتوسعة والتيسير على

---

[١] تذكرة الحفاظ ج١/ص١٣٩، والمقاصد الحسنة ج١/ص٧٠.

[٢] روح المعاني ج٤/ص٢٤.

[٣] مجموع الفتاوى ج١٤/ص١٥٩.

[٤] أورده الخطيب البغدادي (انظر: روح المعاني ج٤/ص٢٤).

[٥] ذكره الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الموضوعة والضعيفة، رقم ٥٧.

العباد. وعلى هذا الأساس، فإنَّ الاختلاف بهذه الوجهة -في الأحكام الفقهية وليس في العقائد وأصول الدِّين- فيه توسعةٌ على العباد، والمتَّبعُ للعلماء في اجتهاداتهم وإن اختلفوا يكون مصيبًا إن شاء الله سبحانه وتعالى، وحتَّى لو أخطأ المجتهد فإنه مَعفُوٌّ عنه لقول النبي ﷺ:«إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجتَهَدَ ثُمَّ أَخطَأَ فَلَهُ أَجرٌ»[١]. وهذا نَصٌّ صحيحٌ من النَّبي ﷺ في جواز الاجتهاد في الأحكام الشرعية وحصول الأجر على ذلك وإن أخطأ المجتهد في اجتهاده. ويقطع هذا النص دعوى الظاهرية في منع الاجتهاد من أصله وتضليل فاعله والقائل به قطعًا باتًّا[٢]، والأجر هنا مُتَحَقِّقٌ في كلا الحالتين؛ وقد يسأل سائلٌ: كيف يكون الأجر مع وجود الخطأ؟ وجواب هذا أنَّ الأجر مترتبٌ على بذل الجهد بالاجتهاد وعلى محاولة إصابة الحَقّ[٣].

[١] صحيح البخاري ج٦/ص٢٦٧٦، وصحيح مسلم (رقم الحديث ٣٢٤٠).

[٢] أضواء البيان ج٣/ص١٤٩.

[٣] انظر: الديباج على مسلم ج٤/ص٣٢٠، ودلائل النبوة ج٧/ص١٨٥.

نظرة في وصايا العلماء

حَوَت مَصَادِرُ التُّرَاثِ كَمًّا هائلًا من وصايا العلماء، كان الهدف منها تحريك السلوك نحو الأمثل لدى طلبة العلم وصيانة العلم الشرعي الذي أخذوه عن شيوخهم. وَتُعَدُّ الصُّحبَةُ العلمية مِنَ العوامل التي تُسَاعِدُ إلى حَدٍّ كبيرٍ في البناء التربوي لطالب العلم، فلا غنى لطالب العِلمِ عنها بُغيَةَ كمال التحصيل. ولا ينبغي النَّظَرُ إلى وصايا العلماء على أَنَّها حالةٌ خاصَّةٌ أو على أَنَّها مناجاةٌ بين الشيخ وطالبه، بل هي ميدانٌ من الخبرات والتجارب وصورةٌ شاخصةٌ لتفاعل العلماء مع حياة النَّاسِ ومحصِّلَةٌ لمعاناتهم.

لقد زادت صُحبَةُ الطالب لشيخه في دراية الشيخ بحال تلاميذه ومَكَّنَتهُ من توجيههم نحو أمثل الأخلاق والخصال. ولذلك فقد دأب بعض الشيوخ على كتابة وصيةٍ لطلابهم عند فراغهم من التحصيل العلمي والأخذ عنهم. وكانت وَصِيَّةُ الإمام أبي حنيفة ﵀ لتلميذه يوسف بن خالد السَّمتي أَبرَزَ ما وقفت عليه في هذا الباب. فَبَعدَ أَن أَخَذَ عن شيخه العِلمَ وأراد الرجوع إلى البصرة (بلده آنذاك)، استأذَنَ السَّمتي شيخه أبا حنيفة في ذلك، فقال له أبو حنيفة:«حتَّى أُزَوِّدَكَ بِوَصِيَّةٍ فيما تحتاج إليه في معاشرة النَّاس ومراتب أهل العلم وتأديب وتَفَقُّدِ أَمرِ العَامَّة. حتَّى إذا خرجت بعلمك كانت معك آلةٌ تَصلُحُ له تَزِينُهُ ولا تَشِينُهُ. اعلم أَنَّكَ متى أَحسَنتَ عِشرةَ النَّاسِ صاروا لك أمهاتٍ وآباءًا. كأَنِّي بِكَ وقد دَخَلتَ البصرة وأَقبَلتَ على أهلها، ورفعت نفسك عليهم وتطاولت بعلمك لديهم، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم، وهجرتهم وهجروك، وشتمتهم وشتموك، وضللتهم وضللوك وبدعوك، واتَّصَلَ ذلك الشَّينُ بنا وبك، واحتجت إلى

الهرب والانتقال عنهم، وليس هذا برأيٍ، إِنَّهُ ليس بعاقلٍ من لم يُدَارِ من ليس لَهُ من مُدَارَتِهِ بُدٌّ حتى يَجعَلَ اللهُ له مخرجًا.

إذا دَخَلتَ البصرة، استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك، فَأَنزِل كُلَّ رَجُلٍ منزلته، وأَكرِم أَهلَ الشَّرَفِ، وعَظِّم أَهلَ العِلمِ، ووَقِّر الشُّيُوخَ ولاطف الأحداث، وتَقَرَّب من العامَّة ودَارِ الفجار، واصحب الأخيار ولا تتهاون بالسلطان، ولا تَحقِرَنَّ أَحَدًا ولا تُقَصِّرَنَّ في مروءتك، ولا تُخرِجَنَّ سِرَّكَ إلى أَحَدٍ، ولا تَألَفَنَّ ما يُنكَرُ في ظاهره، وإيَّاكَ والانبِسَاطَ إلى السفهاء، وعليك بالمداراة والصبر والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصدر، واستَجِدَّ ثياب كسوتك واستفره دابتك، وأَكثِر استعمال الطيب وابذل طعامك فَإِنَّهُ ما سَادَ بَخِيلٌ قط، ولتكن لك بطانةٌ تُعَرِّفُكَ أَخيَارَ الناس.. وأَظهِر تَوَدُّدًا لِلنَّاسِ ما استطعت وأَفشِ السَّلام ولو على قَومٍ لِئَامٍ.. ومتى جَمَعَ بينك وبين غيرك مجلِسٌ أَو ضَمَّكَ وإيَّاهم مسجدٌ وجَرَت المسَائِلُ وخاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تُبدِ لهم خِلَافًا، وإن سُئِلتَ عنها أَخبَرتَ بما يعرفه القَومُ ثم تقول: فيها قَولٌ آخر وهو كذا وكذا والحُجَّةُ له كذا، فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك وعَظَّمُوا محلَّك.

وأَعطِ كُلَّ من يختلف إليك نوعًا من العلم ينظرون فيه، وآنِسهُم ومَازِحهُم أحيانًا، وحَادِثهُم فَإِنَّ المودة تَستَدِيمُ مواظبة العلم، وأطعمهم أحيانًا واقضِ حوائجهم، واعرف مقدارهم وتغافل عن زلَّاتهم، وارفق بهم وسامحهم، ولا تُبدِ لأَحَدٍ منهم ضِيقَ صَدرٍ أَو ضَجَرًا، وكُن كَوَاحِدٍ منهم. واستعن على نفسك بالصيانة لها والمراقبة لأحوالها، ولا تُكَلِّف النَّاسَ ما لا يطيقونه وارضَ لهم ما رضوا لأنفسهم، وقَدِّم إليهم حُسنَ النية واستعمل الصِّدق، واطرح الكِبرَ جانبًا، وإياك والغدر

وإن غدروا بك، وأَدِّ الأمانة وإن خانوك، وتمسَّك بالوفاء واعتصم بالتقوى، وعاشر أهل الأديان وأَحسِن معاشرتهم»[١].

إِنَّ المتَمَعِّنَ في هذا الوَصِيَّةِ يُدرِكُ أَنَّهَا حَوَت عِدَّةَ أَبعَادٍ في صيانة شخصية طالب العلم وتوجيهه نحو ميادين الحياة واجتماعيات النَّاس وأخلاقياتهم. فَحَقًّا إِنَّهَا آلَةٌ تَزِينُ ولَا تَشِينُ وعُدَّةٌ للعلماء العاملين؛ فيها مَنهَجُ معاملة العامَّة والخاصَّة، وحِفظُ العِلمِ وكرامة العلماء، وطرائق مُثلَى للدعاة إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي ظلالها تَستَقِيمُ وتَتَّزِنُ شخصية العالم وتسمو مكانته فَيَقربُ من القلوب من غير نفرةٍ، ويُؤنَسُ من غير ضَجَرٍ، وتتقبله النُّفُوسُ من غير كللٍ ولا مللٍ.

لقد زُوِيَت في هذه الوصيَّةِ جوانب كثيرةٌ من مكارم الأخلاق وأخلاقيات العلماء وتجارب الخبراء وخبرة المجربين. فكيف إذًا يُمكِنُ لنا أن نتناول الأبعاد التربوية في مِثلِ هذه الوصيَّة للتعامل مع قِيَمِهَا؟ وكيف يكون تَأثِيرُ ذلك في حياة طالب العلم الذي افتقر إلى مثلها في زماننا؟ بل وكيف يُمكِنُ أن تعيش تلك القِيَمُ في واقع مؤسساتنا التربوية وميدان حياتنا الاجتماعية في هذا الزمان الذي تزاحمت فيه الآرَاءُ وتنوعت فيه الاتجاهات وزَادَ فيه إعجابُ كُلِّ ذي رأيٍ برأيه؟

كُلُّ ذلك ينبغي أن يُوضَعَ في حساباتنا ضِمنَ شمولية التأصيل تحقيقًا للمنهج الأمثل في التعامل مع معطيات تراثنا التربوي الإسلامي في ميادينه المتنوعة.

---

[١] انظر بقية الوصية ففيها فوائد عظيمةٌ في السلوك والاستقامة وحسن المعاشرة ومكارم الأخلاق (الوصيَّةُ مطبوعةٌ في كُتَيِّبٍ صغيرٍ، راجعها وعلَّق عليها إبراهيم مختار الجبري، مطبعة الحلبي، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م).

بين الاتباع والابتداع

لا يَهُمُّنَا في دائرة الاتباع والابتداع الحُكمُ على النَّاس من خلال انتسابهم بقدر ما يهمنا أَمرُ اعتقادهم واتباعهم، فكم من مُنتَسِبٍ لهذا الدِّينِ تَجِدُهُ بعيدًا عن صِحَّةِ الاعتقاد وسلامة الاتباع. ثُمَّ إنَّ مكانة المؤمن يوم القيامة تكون على قَدرِ تَمَسُّكِهِ بسُنَّةِ النَّبي ﷺ وإخلاصه فيها، فيكون بسبب اتباعه لِسُنَّةِ النَّبي ﷺ قريبًا من محبَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولصيقًا برحمته وعفوه، قال تعالى:﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]. ويُخشَى على من يَدَّعُونَ الإسلام ويخالفون شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَن يمسَّهُم خِطَابُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية:﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

إِنَّ الانتساب للجماعات الإسلامية والأحزاب الدينية لا يُعَدُّ مقياسًا إيمانيًّا للمنتسب أو المنتمي إليها لمجرَّدِ الانتماء، فالفيصل هو ما عليه المنتسب أو المنتمي من الحَقِّ؛ ولا يَدُلُّ مقدار الولاء والانتساب على حجم الحَقِّ لدى الأتباع، ولكنَّ المقياس المعَوَّلَ عليه هو حجم الحَقِّ الذي يحملونه في نفوسهم، ومن ذلك حجم ولائهم لدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعقيدة الإسلام وَبَرَائِهِم من كُلِّ ما يتعارض مع دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأحكامه.

ونَوَدُّ التَّوكِيدَ هنا على الفرق بين من يَنقُصُ أو يزيد في **أصل التكليف** وبين من يَنقُصُ أو يزيد في **أداء التكليف**، فلا بُدَّ إِذًا من التفريق بين الدِّين والتَّدَيُّن. فَالدِّينُ هو أَصلُ التكليف، أَمَّا التَّدَيُّنُ فهو تطبيق الأحكام الدينية في واقع حياة المسلم؛ فلو زاد المكَلَّفُ فيها فالزيادة مردودةٌ

عليه، ولا دخل للأصول فيها. أَمَّا الزيادة والنقصان في أصل الدِّينِ فَأَمرُهَا خطيرٌ، ومعلومٌ أَنَّ الأُمَمَ السابقة قد غَيَّرت في أصول أديانها فكانت بين المغضوب عليهم والضالين.

وقبل أن نشرع في تصنيف الأُمَّةِ إلى متبعين ومبتدعين، ينبغي تأصيل مبدأ الاتِّباع والابتداع وذلك من خلال بيان مفهومهما من أجل تحقيق شمولية النظرة وسلامة المنهج وسداد الحكم.

والاتِّبَاعُ يعني: العَمَلَ الصَّحِيحَ بما جاء في كتاب الله ﷻ وسُنَّةِ رسوله ﷺ وِفقَ مرادهما. وقد يَكُونُ الاتِّبَاعُ في القول وقد يكون في الفعل، أَمَّا اتِّبَاعُ القَولِ فهو امتثاله على الوجه الذي اقتضاه القَولُ ودَلَّ عليه. وأَمَّا اتِّبَاعُ الفعل فهو التَّأَسِّي بأفعالِ النَّبِيِّ ﷺ وسيرته العطرة[١] استنادًا لقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أَمَّا الابتِدَاعُ: فهو إِحدَاثُ أَمرٍ لا أَصلَ له في الدِّينِ يَدُلُّ عليه. ودَلَّ على ذلك حَدِيثُ النبي ﷺ حين قال: «مَن أَحدَثَ فِي أَمرِنَا هَذَا مَا لَيسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»[٢]، وفي روايةٍ: «مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أَمرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٣]. وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يومٍ ثُمَّ أَقبَلَ عَلَينَا فَوَعَظَنَا موعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفت مِنهَا العُيُونُ وَوَجِلَت مِنهَا القُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّ هَذِهِ مَوعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعهَدُ إِلَينَا؟ فقَالَ: أُوصِيكُم بِتَقوَى الله وَالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ وَإِن كَانَ عَبدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم بَعدِي فَسَيَرَى اختِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المهدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا

[١] انظر: الطبري، جامع البيان ص ٨٧، والإحكام في وصول الأحكام للآمدي ص٢٤٥.

[٢] صحيح البخاري ج٢/ص٩٥٩.

[٣] صحيح البخاري ج٦/ص٢٦٧٥، وصحيح مسلم ج٣/ص١٣٤٣.

وَعَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ»[١]. وأَمَّا ما كان له أَصلٌ من الشَّرعِ يَدُلُّ عليه فليس ببدعةٍ شرعًا وإن كان بدعةً لغةً[٢]، إنَّما يريد ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة[٣].

لقد أَكملَ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى الدِّينَ برسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وما فَرَّطَ سبحانه وتعالى في الكتاب من شيءٍ، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال أَيضًا: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وما من أَمرٍ فيه خَيرٌ لِلأُمَّةِ إِلَّا وجاء في كتاب الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وسُنَّةِ رسوله ﷺ؛ فعن أَبِي ذَرٍّ الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: «لقد تَرَكَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وما يَتَقَلَّبُ في السَّمَاءِ طَائِرٌ إِلَّا ذَكَرَ لنا منه عِلمًا»[٤]، وعن حُذَيفَةَ بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: «لقد خَطَبَنَا النَّبي ﷺ خُطبَةً ما تَرَكَ فيها شيئًا إلى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ، عَلِمَهُ مَن عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَن جَهِلَهُ»[٥]. وليس هناك من شَرٍّ إِلَّا وقد نهى عنه نبينا الكريم ﷺ، وأَيُّ إِحدَاثٍ في أَصلِ الدين -سواءٌ كان زيادةً أو نقصانًا- فهو اعتداءٌ على حَقِّ الشارع. وتبقى

[١] المستدرك على الصحيحين ج١/ص١٧٤، وصحيح ابن حبان ج١/ص١٧٩، وسنن أبي داود ج٤/ص٢٠٠، وسنن الترمذي ج٥/ص٤٤.

[٢] انظر: جامع العلوم لابن رجب ص٢٨٩-٤٩٤، وفتح الباري لابن حجر ص١٧٩.

[٣] انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ص١٠٧.

[٤] مسند أحمد بن حنبل ج٥/ص١٦٢، والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢/ص٣٥٤، وتذكرة الحفاظ للذهبي ج٣/ص٨٢٩.

[٥] صحيح البخاري ج٦/ص٢٤٣٥.

العقول السليمة بطبعها لا تتعارض مع النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ ولا تَزِيدُهَا هذه النُّصُوصُ إِلَّا انقيادًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتسليمًا لمراده.

يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«أُصُولُ الإسلام على ثلاثة أحاديثٍ: حديث «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنيات» وحديث «الحَلَالُ بَيِّنٌ والحَرَامُ بَيِّنٌ» وحديث «مَن أَحدَثَ فِي أَمرِنَا مَا لَيسَ مِنهُ فَهُوَ رَدٌّ»[١]. وقال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«كُلُّ عَمَلٍ لا يَكُونُ عليه أَمرُ الله ورسوله فهو مردودٌ على عامله، وكُلُّ مَن أَحدَثَ في الدِّينِ ما لم يأذن به الله ورسوله فليس مِنَ الدِّينِ في شيءٍ»[٢].

وعمومًا، فَإِنَّ إِتيَانَ كل ما هو جديد في الدِّينِ أَمرٌ تَحُفُّهُ كثيرٌ من المخاطر، خصوصًا في ضوء ما أَخبَرَ به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي يرويه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث يقول:«كُنَّا عِندَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَطَّ خَطًّا وَخَطَّ خَطَّينِ عَن يَمِينِهِ وَخَطَّ خَطَّينِ عَن يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الخَطِّ الأَوسَطِ فَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ الله ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ:﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]».

ومن هنا يُمكِنُ جَعلُ سلامة الفهم لمسائل الاتباع والابتداع وَحدَةَ قِيَاسٍ لِلحُكمِ على معتقدات النَّاس وواقع أفعالهم، وذلك من أجل الأَخذِ منهم أو الرد عليهم على أن يكون هذا الفهم مَظَلَّةً لِلحُكمِ وليس قالبًا له. ويجب أن تكون خُطَانَا لالتماس الأعذار أَسرَعَ منها للتكفير، وللتبرير أَقرَبَ منها للتبديع؛ فليس كُلُّ جديدٍ بدعةً وليس كُلُّ قَدِيمٍ سُنَّةً، وليس في ظاهر كُلِّ أَمرٍ وافق السُّنَّةَ اتِّباعٌ ولا في ظاهر كُلِّ أَمرٍ خالفها ابتداعٌ. وينبغي التَّفرِيقُ بين نوع النيات والمقاصد

---

[١] طبقات الحنابلة لابن رجب ج١/ص٤٧، وجامع العلوم والحكم ج١/ص٩.

[٢] جامع العلوم والحكم ج١/ص٥٩.

التي تتقدم أفعال العباد، فإن كانت الحدود تُدرَأُ بالشبهات، فلا غضاضة من أن نَدرَأَ الأَحكَامَ بما يُمكِنُ أَن نَتَلَمَّسَ لِلنَّاسِ فيه الأعذار حتَّى نَسلَمَ من الانتقاص منهم والتنكيل بهم وصَدِّ النَّاس عنهم.

وأَيُّ أَمرٍ لم يكن دِينًا على عهد رسول الله ﷺ فلا يكون لنا دينًا لِأَنَّ دائرة الدِّينِ قد استُكمِلَت في حياته وفي عصره. ومن أَينَ نَأتِي بِالدِّينِ إذا لم يصلنا من صاحب الوحي؟! ثُمَّ إِنَّ العبادات عمومًا تُبنَى على التوقيف فلا يَجُوزُ التَّعَبُّدُ لله ﷻ بعبادةٍ إِلَّا إذا كانت هذه العِبَادَةُ قد ثَبَتَت شَرعِيَّتُهَا في الكتاب والسُّنَّةِ. وفي هذا يقول الإِمَامُ ابن تيمية ؒ:«إِنَّ العِبَادَاتِ الَّتِي أَوجَبَهَا اللَّهُ أَو أَحَبَّهَا لَا يَثبُتُ الأَمرُ بِهَا إِلَّا بِالشَّرعِ. وَأَمَّا العَادَاتُ، فَهِيَ مَا اعتَادَهُ النَّاسُ فِي دُنيَاهُم مِمَّا يَحتَاجُونَ إِلَيه، وَالأَصلُ فِيها عَدَمُ الحَظرِ ولا يُحظَرُ مِنهَا إِلَّا مَا حَظَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»[١].

وأَيُّ أَمرٍ كَانَ خَارِجَ أَمرِ الدِّينِ –من أُمُورِ الدنيا– فَيَجُوزُ لِلمُسلِمِ أن يَختَارَ منه ما فيه الصلاح والخير، فعن مُوسَى بن طَلحَةَ عن أبيه ؓ قال:«مَرَرتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِقَومٍ عَلَى رُؤُوسِ النَّخلِ فَقَالَ: مَا يَصنَعُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا يُلَقِّحُونَهُ، يَجعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الأُنثَى فَيَلقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَا أَظُنُّ يُغنِي ذَلِكَ شَيئًا. قَالَ:فَأُخبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَأُخبِرَ رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ:إِن كَانَ يَنفَعُهُم ذَلِكَ فَليَصنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِن إِذَا حَدَّثتُكُم عَنِ الله شَيئًا فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَن أَكذِبَ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ»[٢]. وفي روايةٍ عن أنس بن مالك ؓ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَومٍ

---

[١] مجموع الفتاوى ٢٩/١٦–١٧.

[٢] صحيح مسلم ج٤/ص١٨٣٥، وانظر كتاب: الإحكام لابن حزم ج٥/ص١٢٨.

يُلَقِّحُونَ فقَالَ:لَو لَم تَفعَلُوا لَصَلُحَ، قَالَ فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِم فقَالَ:مَا لِنَخلِكُم؟ قَالُوا: قُلتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أَنتُم أَعلَمُ بِأَمرِ دُنيَاكُم»[١].

ومن مخاطر البدعة أَنَّهَا تُعَشعِشُ وتنمو في أحضان الجهل، فيمضي أَصحَابُ البِدَعِ إلى عبادة الله ﷻ كما يريدون هم لا كَمَا يُرِيدُ الحَقُّ ﷻ، قال تعالى:﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال النبي ﷺ:«إِنَّ الله لَا يَقبِضُ العِلمَ انتِزَاعًا يَنتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ وَلَكِن يَقبِضُ العِلمَ بِقَبضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَم يُبقِ عالما اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفتَوا بِغَيرِ عِلمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[٢].

وأخيراً، فلا بُدَّ من التحذير من اتِّباع الهوى دون الشَّرعِ لِأَنَّ الأَهوَاءَ من أخطر الأسباب المؤدية إلى الوقوع في البدع وانتشارها. ولهذا فقد حَذَّرَ الباري ﷻ من اتباع الهوى في عِدَّةِ مواطن، قال تعالى لنبيه داوود عَلَيهِ السَّلَامُ:﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال سبحانه لنبيه الكريم محمد ﷺ:﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى في مقامٍ آخر:﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

---

[١] صحيح مسلم ج٤/ص١٨٣٦.

[٢] صحيح البخاري ج١/ص٥٠، وصحيح مسلم ج٤/ص٢٠٥٨.

فقه الأولويات

يكون الأَخذُ بالأولويات عند تقديم الأمر الأَهَمِّ على الأمر المهمِّ حسب المصالح ومقدار الفائدة المناطة بها أو حسب الأهداف المقصودة من ورائها. فمثلًا، مع أَنَّ الوَفَاءَ بِالنَّذرِ أمرٌ واجبٌ على من نذره لقوله تعالى:﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧]، إِلَّا أَنَّ فِعلَ الواجب قد ينقلب إلى تركه إذا تغيَّرت المصلحة الشرعية، وفي هذا يقول النَّبي ﷺ:«مَن نَذَرَ أَن يُطِيعَ الله فَليُطِعهُ وَمَن نَذَرَ أَن يَعصِيَهُ فَلَا يَعصِهِ»[١].

وتَتَرَتَّبُ على الأخذ بالأولويات ضمن فقه تغيير المنكر مصلحةٌ عند الشارع. فَإِنكَارُ فعل المحرَّمات الظاهرة المتَّفَقِ على حُكمِهَا يَتَقَدَّمُ على إنكار فِعلٍ اختُلِفَ في حُكمِهِ (أَهُوَ حَرَامٌ أَم مكروهٌ؟). قال الإِمَامُ ابن تيمية رَحِمَهُ الله:«فَتَفَطَّن لحقيقة الدِّينِ وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد بحيث تعرف ما ينبغي من مراتب المعروف ومراتب المنكر حتى تقدم أهمها عند المزاحمة، فَإِنَّ هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل، فَإِنَّ التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر وجنس الدليل وغير الدليل يَتَيَسَّرُ كثيرًا؛ فَأَمَّا مراتب المعروف ومراتب الدليل، بحيث يُقَدَّمُ عند التَّزَاحُمِ أَعرَفُ المعروفين ويُنكَرُ أَنكَرُ المنكرين ويُرَجَّحُ أقوى الدليلين، فإنه هو خاصَّة العلماء بهذا الدين»[٢].

ويرى الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ الله أَنَّ العَمَلَ الواحِدَ يكون مستحبًّا فِعلُهُ تارةً وتَركُهُ تارةً باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية، فقد يَترُكُ المسلِمُ المستحَبَّ إذا كان في

---

[١] صحيح البخاري ج٦/ص٢٤٦٣.

[٢] انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ص٢٨٩.

فعله فَسَادٌ رَاجِحٌ على مصلحةٍ، واستَدَلَّ على ذلك برغبة النَّبي ﷺ في بناء البيت الحرام على قواعد إبراهيم، حيث قَالَ لأُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:«يَا عَائِشَةُ، لَولَا قَومُكِ حَدِيثٌ عَهدُهُم بِكُفرٍ لَنَقَضتُ الكَعبَةَ فَجَعَلتُ لَهَا بَابَينِ، بَابًا يَدخُلُ النَّاسُ مِنهُ وَبَابًا يَخرُجُونَ مِنهُ»[١]. فَتَرَكَ النبي ﷺ هذا الأمر الذي كان عنده أفضل الأمرين للمفسدة المرجَّحَةِ -وهو حدثان عهد قريشٍ بالإسلام- لما في ذلك من التنفير لهم، فكانت المفسدة في هذا الموطن راجحةً على المصلحة[٢]. ويرى أَيضًا ابن تيمية رحمه الله أَنَّ مُهِمَّةَ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر تَكُونُ وِفقَ ما يَتَرَتَّبُ عليها من نتائج، فَتَرْكُ إنكار المنكر في بعض المواطن قد يُحَقِّقُ مصلحةً، والحَدَثُ الذي ساقه عن نفسه زمن التَّتَارِ يُعزِّزُ هذا الاتجاه. يقول رحمه الله:«مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقومٍ منهم من يشربون الخمر، فَأَنكَرَ عليهم من كان معي، فَأَنكَرتُ عليه وقلت له: إِنَّمَا حَرَّمَ الله الخمرَ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عن ذكر الله والصلاة، وهؤلاء يَصُدُّهُم الخَمرُ عن قَتلِ النُّفُوسِ وسبي الذُّرية وأخذ الأموال منهم فدعهم»[٣]. ومن أجل ترجيح المصالح التربوية في إطار فقه العمل بالأولويات، يرى ابنُ قَيِّمِ الجوزيَّةِ رحمه الله ضرورة اعتبار درجات إنكار المنكر وِفقَ المصالح المترتبة عليها، لذا فقد قَسَّمَهَا على أربع درجاتٍ:

---

[١] صحيح البخاري ج١/ص٥٩، وفي صحيح مسلم بلفظ:«لَولَا حَدَاثَةُ عَهدِ قَومِكِ بِالْكُفرِ لَنَقَضتُ الكَعبَةَ وَلَجَعَلتُهَا على أَسَاسِ إبرَاهِيمَ فَإنَّ قُرَيشًا حِينَ بَنَت البَيتَ استَقصَرَت وَلَجَعَلتُ لها خَلفًا»، انظر: صحيح مسلم ج٢/ص٩٦٨.

[٢] انظر مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٤٢/١٩٣.

[٣] إعلام الموقعين، ابن القيم، ص٥.

الدرجة الأولى: أَن يَزُولَ المنكر ويَخْلُفَهُ ضِدُّهُ، وحُكمُهُ مشروعٌ.

الدرجة الثانية: أَن يَقِلَّ وإِن لم يَزُل بجملته، وحُكمُهُ مشروعٌ.

الدرجة الثالثة: أَن يَخلُفَهُ ما هو مِثلُهُ، وحُكمُهُ مَوضِعُ اجتهادٍ.

الدرجة الرابعة: أَن يَخلُفَ ما هو شَرٌّ منه، وحُكمُهُ حرامٌ.

وأَوضَحَ أيضًا ابنُ قَيِّمِ الجوزيَّة رَحِمَهُ اللهُ وُجهَةَ فِقهِ الأولويات لإنكار وتغيير المنكر في الأمثلة التالية:

- إذا رَأَيتَ أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج، كان الإنكار عليهم من عدم الفقه والبصيرة إِلَّا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أَحَبُّ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كرمي النِّشَابِ وسباق الخيل ونحو ذلك.

- إذا رَأَيتَ الفُسَّاقَ قد اجتمعوا على لَهوٍ ولَعِبٍ أو سَمَاعِ مكاءٍ وتصديةٍ[١]، فإن نقلتهم إلى طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهذا هو المراد، وإِلَّا كان تركهم على ذلك خيرًا من تفرغهم لما ما هو أعظم في الشَّرِ من ذلك.

- إذا كان الرَّجُلُ مشتغلاً بكتب المجون ونحوها وخِفتَ من نقله عنها أَنَّهُ سَيَنتَقِلُ إلى كُتُبِ البِدَعِ والضَّلَالِ، فدعه وكتبه الأولى[٢].

---

[١] المكاء والتصدية: هو التصفير والتصفيق، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفقون ويصفرون» صفوة التفاسير ٥٠٣/١.

[٢] انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ٥٠٤/٣.

عقيدة التوكل والاستعانة

تُعَدُّ عقيدةُ التَّوكُّلِ على الله ﷻ والاستعانة به من أَهَمِّ الجوانب الإيمانية التي يَحتَاجُهَا المؤمن في مسيرة حياته، بل وفي جميع شؤونه. وقد جعلها الله ﷻ شرطًا للإيمان به، قال تعالى:﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال أَيضًا مخبرًا عن رسله:﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

لقد شاء الحَقُّ سبحانه أن تكون البسملة «**بسم الله الرحمن الرحيم**» أَوَّلَ بدايةٍ في كتابه العزيز. والبدء بها يعني الاستعانة بالله ﷻ بدايةَ كُلِّ أمرٍ وهذا من قبيل التوكل عليه لحاجة العبد إليه في قضاء حوائجه ولأنَّه سبحانه جعل الحياة قائمةً على مبدأ الأخذ بالأسباب. وَأَمَّا تَحَقُّقُ الفعل، فلا يَكُونُ إِلَّا بقدرته وتيسيره سبحانه. وبالبسملة افتتح الباري ﷻ مسيرة منهجه وذلك عندما أمر جبريل عليه السلام نبينا الكريم ﷺ بالقراءة في غار حراءٍ، قال تعالى:﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فكان طلبه سبحانه ناشئًا عن قدرته المطلقة بينما كان رسوله ﷺ عاجزًا عن القراءة لغياب أسبابها. ومَعَ أَنَّ جبريل عليه السلام جزم بالأمر وكَرَّرَهُ ثلاث مَرَّاتٍ، لَكِنَّ النَّبي ﷺ امتنع عن القراءة عند كُلِّ أمرٍ[١]. وكان امتناع النَّبِيِّ ﷺ عن القراءة من صِدقِهِ في كشفه عن حقيقة حاله وعجزه، ولأَنَّهُ محكومٌ بقانون الله ﷻ في حدوث الأشياء بأسبابها، وبذلك يكون طَلَبُ الباري ﷻ وِفقَ قدرته المطلقة التي لا يَحكُمُهَا أَحَدٌ سواه، وعَدَمُ قُدرَةِ النَّبي ﷺ على القراءة إِنَّمَا

[١] انظر حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عن بداية الوحي لرسول الله ﷺ (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم الحديث ١٦٠).

نشأ عن عجزه في فعل الأمر لعدم تمكنه من أسبابه. ولهذا فَإِنَّ الأَمرَ بالقراءة جاء مقرونًا بكلمة «بسم الله» ليُصبحَ ما كان غَيرَ مُمكِنِ الحُدُوثِ مُمكِناً لِلرَّبطِ بين السَّبَبِ والمسَبِّبِ، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥].

وبذكرِ البسملة في كُلِّ موطنٍ يستحضر العَبدُ المؤمن عظمة الله ﷻ ويُعَظِّمُ مَقَامَهُ العلي، فأَمرُ الخلائق مرهونٌ به وحده ولا يَسَعُ العباد إلَّا التسليم المطلق لمراده. وهذا الأمر هو نفسه الذي يمنع العباد من ذكر لفظ التسمية على كُلِّ فِعلٍ محرَّمٍ لامتناع ذلك عقيدةً وشرعًا؛ والعَبدُ إذا أَقبَلَ على فعلٍ ما وقال «بسم الله» فقد دَخَلَ على الفعل باسم الله ﷻ الذي سَخَّرَهُ له. فَالذَّبَائِحُ -مَثَلًا- يَحرُمُ أَكلُهَا من غير ذكر اسم الله مع أَنَّ ذاتها واحدةٌ بوجود التسمية أو عدمها، لَكِنَّ ذِكرَ اسم الله ﷻ عند الذَّبحِ يَفتَحُ باب الحلال، فهو سبحانه الذي أَبَاحَ لنا أكلها واستحضار اسمه تعالى عند الذبح يعني استحضار الحُكمِ الذي لا يملك حَقَّ تقريره إلَّا الله ﷻ، فلا يتجاوز المؤمن حُدُودَهُ بعد ذكر اسم الله ﷻ أو يخالف تعاليمه وأحكامه، وهذا الأمر ينعكس على سلوك العارفين بالله ﷻ الخاضعين لمطالبه والمتصلين بأحكامه، والمتوكلين عليه والمستعينين به.

وكذلك فَإِنَّ البسملة تفتح على العبد باب عقيدة التَّوكُّلِ على الله ﷻ دون أن يخشى الفشل أو عدم حصول النتائج المرجُوَّة، فالمؤمن يحتاج في مسيرته إلى صبرٍ يُعِينُهُ على مواصلة الطريق من غير كللٍ أو مللٍ، ويَحتَاجُ أيضًا إلى يقينٍ بوعد الله ﷻ في حصول الثواب لمن أحسن

التَّوَكُّلَ عليه والاستعانة به وحده، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ولقد قَرَنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الفاتحة بين العبادة والاستعانة، قال تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وذلك لِلتَّوكِيدِ على عُلُوِّ منزلة الاستعانة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده. ومعنى:«إياك نستعين» أي: نطلب منك وحدك العون والتأييد والتوفيق. وجاء الخِطَابُ مباشرًا في هذه الآية الكريمة ولم يَرِد بلفظ «إِيَّاهُ نستعين» للدلالة على أَنَّ الذي توكلنا عليه واستَعَنَّا به –وهو الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– هو قريبٌ من عباده وحاضرٌ في أذهانهم وقلوبهم، ولا يغيب عن ميدان العارفين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وما دمنا قد خَصَّصنَا الله وَحدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالاستعانة والتَّوكُّلِ، فَلَا مَفَرَّ من حتمية الصِّرَاعِ الموصول بأسبابه بين أهل الحَقِ الذين يرغبون في أَن يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويحققون معنى الآية:﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وبين أهل الباطل الذين يرغبون في أَن تَكُونَ العبادة والاستعانة لغير الله ويجحدون بذلك حَقَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العباد، وهؤلاء يندرجون تحت لواء الطغاة ومن سايرهم في ظلمهم وطغيانهم، قال تعالى:﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وفي ظلال هذا الصِّراع، تزداد حاجتنا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنستعين به وَنتَوَكَّلَ عليه خصوصًا عندما نَضعُفُ في ميدان المواجهة بسبب بشريتنا، قال تعالى:﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وفي عقيدة «إياك نستعين» تَوَكُّلٌ مُطلَقٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا يَلزَمُ الذي يَطلُبُ العَونَ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَستَنفِذَ كُلَّ أسبابه، قال تعالى:﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ

﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ لم يطلب الله سبحانه وتعالى المثلية في الإعداد، وإنَّما طلب المستطاع منه لِيَبلُغَ المؤمن الأسباب المناسبة للفوز بالمعِيَّةِ الإلهية. ولهذا فَإِنَّ الأخذ بالأسباب وسيلة القاصدين لسبيل الحَقِّ، وأَمَّا المعِيَّةُ الإلهية فهي ثمرة الطَّاعة وتمام التوكل على الله سبحانه وتعالى وبها تَتحقَّقُ الثِّمَارُ المرجُوَّةُ بتأييده ربنا وعونه.

وفي الحديث المشهور عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قَالَ: «كُنتُ خَلفَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يومًا فقَالَ: يَا غُلَام، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احفَظِ اللهَ يَحفَظكَ، احفَظِ اللهَ تَجِده تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ الله، وَإِذَا استَعَنتَ فَاستَعِن بالله ، وَاعلَم أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجتَمَعَت عَلَى أَن يَنفَعُوك بِشَيءٍ لَم يَنفَعُوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَو اجتَمَعُوا عَلَى أَن يَضُرُّوك بِشَيءٍ لَم يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيكَ، رُفِعَت الأَقلَامُ وَجَفَّت الصُّحُفُ»[١]. ومن ترك الاستعانة بالله سبحانه وتعالى واستعان بغيره وَكَلَهُ اللهُ سبحانه وتعالى إلى من استعان به فَصَارَ مخذولًا، والعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِمَّن يَعرِفُ اللهَ سبحانه وتعالى كيف يرجو سواه ويستعين بغيره! فَالتَّوفِيقُ كُلُّهُ بِيَدِ الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وفي كَمَالِ التَّوكُّلِ على الله سبحانه وتعالى يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَوأَنَّكُم تَوَكَّلتُم عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كَمَا يَرزُقُ الطَّيرَ تَغدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»[٢]؛ فالطيور قد أخذت بالأسباب بِغُدُوِّهَا ورواحها. وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَسأَلُهُ عَن حَالِ رَكُوبِهِ فَقَالَ: أَعقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَو أُطلِقُهَا وَأَتَوَكَّل؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: اعقِلهَا وَتَوَكَّل»[٣].

---

[١] سنن الترمذي ج٤/ص٦٦٧، وقال عنه: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٢] سنن ابن ماجه ج٢/ص١٣٩٤، ومسند أحمد بن حنبل ج١/ص٣٠.

[٣] سنن الترمذي ج٤/ص٦٦٨، وصحيح ابن حبان ج٢/ص٥١٠.

لقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أفضل المتوكلين على رَبِّهِ سبحانه وكان يَأْخُذُ بِكُلِّ الأسباب، ففي معركة أُحُدٍ لبس لَأْمَةَ الحرب لِلتَّحَوُّطِ والأخذ بالأسباب، وكان ﷺ يمشي في الأسواق لاكتساب العيش فأنكر عليه الكافرون، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

فالأخذ بالأسباب لا يتنافى مع إيماننا بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره، بل هو من صميم إيماننا بذلك. ومن هنا فإنه يلزمنا السَّعي للأخذ بكمال الأسباب، فإن لم يكن الكمال ممكنًا فلا أَقَلَّ من أن يكون غايةً؛ فمسيرتنا هي نحو المعالي لا نحو الهبوط، ولِكُلِّ مجتهدٍ نصيبٌ، ولا بُدَّ من بذل الجهد بغية إصابة الهدف وبلوغ الغاية. وعلى الأُمَّةِ أَلَّا تُعَطِّلَ مسيرتها العليا بسبب ما حَلَّ بها من أقدار الله سبحانه وتعالى وما أصابها من مِحَنٍ وشدائد، فإن هي سلمت للواقع المقَدَّرِ من عند الله سبحانه وتعالى من قبيل الإيمان بالقضاء والقَدَرِ فلا يعني ذلك توقف العمل على تغيير الواقع المؤلم الذي نزل بها.

لقد حلت الهزيمة بالمسلمين في معركة أُحُدٍ بسبب مخالفة بعض الصحابة رضي الله عنهم لأمر النبي ﷺ كما بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[آل عمران: ١٦٥]، ومع ذلك فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم لم يستسلموا لواقع الهزيمة، بل غَيَّرُوا ما بأنفسهم واستدركوا الأمر. وجاء بعدها الإعداد للجولة الثالثة من المعركة في منطقة حمراء الأسد، فَتَحَرَّكَ الصحابة رضي الله عنهم بجراحاتهم ونقص أعدادهم طاعةً لله سبحانه وتعالى ورسوله، وسَجَّلَ الله سبحانه وتعالى موقفهم هذا في القرآن الكريم حين قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٢-١٧٤].

وقولهم «حسبنا الله ونعم الوكيل» لم يُثنِهِم عن بذل الجهد ورَصِّ الصُّفُوفِ والتَّحَرُّكِ نحو حمراء الأسد أخذًا بأسباب النصر، وإن كانت هذه الأسباب متواضعةً بحجمها لكنَّها كانت -بإيمان أصحابها- أقوى وأبلغ من الجبال الراسيات!

وهنا قد يَسأَلُ سائلٌ فيقول: ما هو الحل لواقع أُمَّتِنَا المتَرَدِّي؟ وهذا سؤالٌ يَتكَرَّرُ في الغالب إِمَّا من قبيل اليأس أو من قبيل التَّعجيز!!

وأقول: هل لدينا مكانةٌ عظيمةٌ في عين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتلك التي كانت لنوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يومَ أن استغَاثَ بِرَبِّهِ؟ قال تعالى:﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وفي لحظَةٍ تَحَوَّلَت الكُرَةُ الأرضية إلى كُرَةٍ مائيةٍ وأهلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكافرين بالطوفان والغرق!! وهل نَملِكُ التَّوَكُّلَ الكامل الذي كان عند إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يومَ نَجَّاهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من نارٍ تَلَظَّى أضرمها قومه لحرقه بعد أن رَفَعَ شِعَارَ الإيمان والتوكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقال«حسبنا الله ونعم الوكيل»؟! لقد نَجَّاهُ رَبُّهُ ونَصرَهُ وأَيَّدَهُ، قال تعالى:﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. وهل لدينا عصا موسى حتَّى تُحدِثَ التَّغييرَ الذي نَنشُدُهُ بضربةٍ واحدةٍ كما حدث في قصته مع فرعون؟ قال تعالى:﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]. وهل لدينا كَرَامَةُ مناجاة واستغاثة النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة معركة بدرٍ حين استغاث بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قائلًا:«اللَّهُمَّ أَنجِز لِي مَا

وَعدتَني، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعدتَنِي، اللَّهُمَّ إِن تَهلَك هَذِهِ العِصَابَةُ مِن أَهلِ الإِسلَامِ لَا تُعبَد فِي الأَرضِ»[١]؟ فَكَانَ النَّصرُ هو الثمرة والنتيجة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فالله ﷻ أَعلَمُ بأحوالنا وبما وصلنا إليه من ضَيَاعٍ وتمزُّقٍ وتشرذمٍ، وأخطر شيءٍ في حياتنا هو أن نخرج من عباءة المعيَّةِ الإلهية ومن حماية الله ﷻ لنا فَيَتَخَطَّفَنَا أهل الشَرِّ والكيد والمكر من كُلِّ مكانٍ. ومن الخطأ أن نُلقي اللَّوم على أعدائنا قبل أن نحاسب أنفسنا، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وَلَن تَتَغَيَّرَ الأَحوَالُ قَبلَ أَن تَتَغَيَّرَ القلوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١١]؛ فتلك سُنَّةٌ جاريةٌ لا تَتَبَدَّلُ ولا تَتَحَوَّل، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وقال أيضًا: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

---

[١] صحيح مسلم من حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما (حديث رقم ١٧٦٣).

بين القضاء والقدر وضرورة الأخذ بالأسباب

إِنَّ الإنسان محكومٌ بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا مجال للاختيار في دائرة سُنَنِهِ الكونية القهرية التي قَهَرَ بها عباده فحال دون اختيارهم في ظلالها، فهي من تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم. أَمَّا ما يَتَعَلَّقُ بِالسُّنَنِ الشرعية، فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أطلق للإنسان الاختيار في ظلالها، وكلا الأمرين من ضمن مشيئته واختياره وتقديره لعباده. وكما أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدَّرَ علينا فقد قَدَّرَ لنا، ولا ينبغي لنا نَحتَجَّ بِالقَدَرِ عند التقصير لتبرير الخطأ أو الخطيئة، ولا مانع من أن ندفع القَدَرَ بِالقَدَرِ أو القَدَرَ بالتقدير وفق مساحة سُنَنِ التخيير، وهذا الأمر لا يخرجنا عن مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قيل لعمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَفِرُّ مِن قَدَرِ الله؟ فقال: أَفِرُّ مِن قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله»[١].

الأخذ بالأسباب وتأخر النتائج:

قد يأخذ بعض النَّاس بأسباب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا تَحصُلُ الثمرة أو النتيجة المرجوة، وهذا لا يعني أَنَّ هناك خَلَلًا في النَّاموس ولا يَجِبُ بِحَالٍ أن يؤدي إلى اهتزاز إيماننا بوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فحاش لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُخلِفَ وعده، قال تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، ولكن ينبغي علينا أن نتنبه للأمور التالية:

أَوَّلًا: علينا أن نُفَرِّق بين تَقَدُّمِ النتيجة في ظلال رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعباده وبين تَأَخُّرِهَا في ظلال تمحيص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده. ولقد أشار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى سُنَّةِ التمحيص في قوله: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

[١] سنن البيهقي الكبرى ج٧/ص٢١٧، ومدارج السالكين ج٣/ص٤٩٧.

ثانيًا: تَتَقَدَّمُ السُّنَنُ الكونية العَامَّةُ في بعض المواطن على السُّنَنِ الشرعية بسبب إخلال أهل الإيمان بالثانية، ففي الجولة الأولى من معركة أُحُدٍ انتصر المسلمون بسنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشرعية، قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وفي الجولة الثانية انهزم المسلمون لمخالفة سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشرعية، قال تعالى:﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢ ۞إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢-١٥٣]. فبسبب هذه المخالفة الشَّرعية دخل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تحت حكم السُّنَنِ العامَّة التي تحكم النَّاس جميعًا، قال تعالى:﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فَسُنَّةُ التداول من السُّنَنِ الكونية العامَّة، وقد جرت على الجماعة المؤمنة بعد مخالفة بعض الصحابة لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المعركة فشملهم خطاب العموم «بين الناس» الذي جاء في الآية الكريمة في قوله تعالى:﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾. يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:«إِنَّ اللهَ يَنصُرُ الدَّولَةَ العَادِلَةَ وإن كانت كافرةً، ولَا يَنصُرُ الدَّولَةَ الظَّالمة وإن كانت مؤمنةً»[١].

ثالثًا: فيما يَخُصُّ أداء الأفراد داخل المجموعة أو الجماعة، لا بُدَّ لنا من التفريق بين فرض العين المتعلق بِكُلِّ فردٍ وبين فرض الكفاية المتعلق بالجماعة، فإذا لم يقم البعض بإسقاط فرض

---

[١] كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ٦٣/٢٨.

الكفاية فَإِنَّهُ يَجِبُ على الجميع، لكن حينما تَقَعُ المشاكسة لنواميس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من قبل فردٍ مُعَيَّنٍ أو من قبل جماعةٍ قليلةٍ من النَّاس فهل ستشمل النتيجة الجماعة؟ وهل تؤخذ الجماعة بجريرة الفرد خصوصًا إذا استقامت الجماعة على منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ وجوابًا على هذا التساؤل المشروع يقول الحَقُّ تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. إِنَّ هذه المفاهيم من مفردات وعناصر السُّنَنِ الشرعية التي تُحَقِّقُ مبدأ العدل الإلهي، فالإنسان هو المسؤول عن فعله. أَمَّا إذا اختلَّ الأَدَاءُ في دائرة فروض الكفاية فالعقاب قد يصيب الجميع أَفرادًا كانوا أو مجموعاتٍ، خصوصًا إذا لم تأخذ الجماعة بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيقًا لمطلب الحَقِّ سبحانه من مجموع المؤمنين، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ولقد حَذَّرَ النبي ﷺ جماعة المؤمنين من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله: «وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَتَأمُرُنَّ بِالمعرُوفِ وَلَتنهَوُنَّ عَنِ المنكرِ أَو لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَن يَبعَثَ عَلَيكُم عِقَابًا مِنهُ ثُمَّ تَدعُونَهُ فَلَا يُستَجَابُ لَكُم»[١]. والجماعة قد تدفع ثمن احتضانها للأفراد الذين يخالفون أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا عمَّت الفتنة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٥].

---

[١] سنن الترمذي ج٤/ص٤٦٨، ومسند أحمد بن حنبل ج٥/ص٣٨٨.

وفي إخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن تلك القرية التي اعتدى بعض أهلها على أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دليلٌ على ما ذهبنا إليه، قال تعالى:﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٥]. والعذاب هنا قد شمل الأُمَّةَ العاصية وشمل كذلك الساكتين عن الحَقِّ الذين أدرجهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في عداد الظالمين لسكوتهم عن قول الحق؛ فالمخالف لِلحَقِّ ظالمٌ والسَّاكت عن قول الحَقِّ ظالمٌ أيضًا، فالأول وقع في الظُّلم بمعصية الفعل والثَّاني وقع في الظُّلم بمعصية السُّكوت. وأَمَّا النَّجاةُ فقد أُكرِمَ بها الذين كانوا ينهون عن السُّوءِ وَحدَهُم دون غيرهم، ولقد أشارت الآيَةُ الكريمة إلى هذا في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾[الأعراف: ١٦٥].

رابعًا: إِنَّ الأخذ بالأسباب لتحقيق الغاية ونيل المطلب أمرٌ لا يتعارض مع عقيدة التَّوكُّل، بل هو سُنَّةٌ شرعيةٌ يَجِبُ الأخذ بها. وعليه فإنه لا يسعنا إهمالها، بل يلزمنا بَذلُ ما نستطيع لتحقيقها وإبطال موانع حصولها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. فبالرغم من قوة ذي القرنين وشدَّة تَوَكُّلِ قلبه على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إِلَّا أَنَّ ذلك لم يمنعه من الأخذ بالأسباب التي أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، قال تعالى:﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ

وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣-٩٢]، وقوله تعالى في الآية: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ يعني شمولية الأسباب لجميع مناحي الحياة. ونلاحظ أيضًا في الآية الكريمة تكرار قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ في ثلاثة مواطن وفي كُلِّ موطنٍ يأتي هذا القول في آيةٍ مستقلَّةٍ، وهذا يَدُلُّ على توكيد الأمر على الأخذ بالأسباب طاعةً لِرَبِّ الأسباب.

وختامًا، تجدر الإشارة أنَّ بلوغ التمكين مُنَاطٌ بأمرين:

أوَّلهما: التوكل المطلق على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رب الأسباب.

وثانيهما: الأخذ بالأسباب بعد التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأعلى قدرٍ ممكنٍ وبأبلغ صورةٍ متاحةٍ، وبحجم التقصير في ذلك يكون النقص في النتيجة والثمرة.

بين الرحمة وسببها

من نواميس الله ﷻ الشرعية أَنَّهُ جعل رحمته مرتبطةً بأسبابها، فجعل الإيمان به والعمل الصالح سببًا في دخول الجنة. والآيات الدَّالة على ذلك كثيرةٌ، أذكر منها:

- ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].
- ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].
- ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

فالثواب والعقاب لهما أسبابهما، فإذا جاء العبد بالسبب حصلت النتيجة وذلك تحت مظلَّة النَّاموس الشرعي الذي سَنَّهُ الله ﷻ لعباده. ولفظُ «بما» في الآيات المذكورة يَدُلُّ على السَّببية، وهذا التعليل ينسجم مع طبيعة النَّواميس الشرعية التي تَقَعُ ضمن اختيار البشر. وقد يَرِدُ هنا اعتراضٌ على وجود تعارضٍ ظاهريٍّ بين الآيات السابقة الدَّالة على السَّببية في وقوع الرحمة وبين حديث النبي ﷺ الذي قال فيه:«لاَ يَدخُلُ أَحَدُكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَن يَتَغَمَّدَنِي الله مِنهُ بِرَحمَةٍ وَفَضلٍ»[١].

وهنا نقول: لا يوجد هنالك تعارضٌ بين النصوص وذلك للأمور التالية:

أَوَّلًا: صحيحٌ أَنَّهُ لا يدخل أحدٌ الجنة إِلَّا برحمة الله ﷻ، لكننا نجد من ضمن السُّنَنِ الشرعية في كتاب الله ﷻ أَنَّ التقوى المرتبطة بالطَّاعة والعمل الصَّالح سَبَبٌ في حصول الرحمة،

---

[١] صحيح ابن حبان ج٢/ص٦٠، ومسند أحمد بن حنبل ج٣/ص٣٣٧.

قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ثانيًا: لقد جعل الله سبحانه وتعالى الصَّلاح سببًا في دخول الرحمة الإلهية حيث أخبر عن أنبيائه قائلًا: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ٨٦﴾ [الأنبياء: ٨٦]، ولم يقل «في جنتنا» لأنَّ الرحمة هي الأصل، أمَّا الجَنَّةُ فهي ثمرةٌ من ثمارها ونتيجةٌ من نتائجها (وكَأَنَّ العباد يدخلون الرحمة قبل الجنة).

ثالثًا: يرى بعض العلماء أنَّ الرحمة الإلهية هي سبب دخول الجنة ولكنَّ تحديد المنازل وتفاوت الدرجات فيها يكون مرجعه وسببه هو العمل الصالح. ويَدُلُّ على ذلك حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قال: «إِنَّ أَهلَ الجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضلِ أَعمَالِهِم»[١]، ونُقِلَ عن الإمام سفيان بن عيينة وغيره من سلف الأمة أَنَّهم كانوا يقولون: «النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ بعفو الله، ودُخُولُ الجَنَّةِ برحمته، وانقِسَامُ المنازل والدرجات بالأعمال»[٢].

رابعًا: إنَّ «البَاءَ» في الآيات السابقة هي ليست «باء» المقابلة والموافاة والعِوَضِ، وإنَّمَا هي «باء» السببية وهي المؤدِّية إلى حصول عفو الله سبحانه وتعالى ومغفرته وكرمه؛ ويَدُلُّ ذلك على أنَّ الإيمان والعمل الصَّالح يفتحان للعباد باب الرَّحمة ولكنهم لا يدخلون الجنة إِلَّا برحمته تعالى. فمثلًا، ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى: يأتي رَجُلٌ ليشتري سيَّارةً من رَجُلٍ آخر، والسيَّارة قيمتها خَمسَةُ آلاف دينارٍ،

---

[١] سنن الترمذي ج٤/ص٦٨٥، وسنن ابن ماجه ج٢/ص١٤٥٠.

[٢] البرهان في علوم القرآن ج٢/ص٦٧.

لكنَّ المشتري لا يملك سوى ألف دينارٍ وبذل أقصى ما يستطيع ليصل إلى ذلك، وقد رضي البائع أن يبيعه السيَّارة بألف دينارٍ من قبيل الإكرام وليس من قبيل العوض والموافاة لأنَّ المبلغ المدفوع هو المقدور عليه، فكان المبلغ المدفوع سببًا للإكرام وليس ثمنًا للسيَّارة، ذلك لأنَّ المشتري بذل ما يستطيع ليأتي بالمبلغ المقدور عليه فأكرمه البَائِعُ لبذله الجهد وليس لقيمة مادفع.

وهنا نسأل: هل مقدار العمل الذي قدَّمناه بين يدي الله ﷻ في دنيانا -مع ما شَابَهُ من الذنوب والمعاصي- يساوي ويوازي الجنة بِعَظِيمِ نعيمها وواسع رحمة الله ﷻ فيها؟ وهل تساوي ركعاتنا وتسبيحاتنا بل وكل ما قدَّمناه بين يدي الله ﷻ وَاسِعَ كَرَمِ الله ﷻ وجَزِيلَ عطائه؟

إنَّ دخول أهل الصَّلاح الجنة مقتضاه الرحمة، والرحمة مقتضاها العمل الصالح (أي أنَّ العمل محرِّكُ الرحمة والرحمة هي مفتاح الجنَّة)، لكن شتَّان بين حجم ما قدَّمناه وبين واسع رحمة الله ﷻ! وعندما نَفقَهُ هذه النواميس فلا تبقى عندنا مشكلةٌ في فقه النُّصوص لأنَّ لبس التعارض بينها سَيَزُولُ لا محالة. إنَّ من النَّاس من تاب بعد أن بلغ سبعين أو ثمانين عامًا ثُمَّ صَلُحَ أَمرُهُ واستقامت طاعته. وبعد سَنَةٍ واحدةٍ من توبته جاء أَجَلُهُ فأخذ الله ﷻ أمانته، فهل نقول أنَّ مثل هذا العبد سيدخل الجنة بعمله؟ صحيحٌ أَنَّ تَوبَتَهُ سَبَبٌ في حصول المغفرة والرحمة، ولكنَّ الرحمة هي سبب دخول الجنة، قال تعالى:﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وهذا الوعد هو ضمن ناموس الله ﷻ الشرعي، ولهذا ينبغي أَلَّا نقيس الأسباب بحجمها وإنَّما بمقاصدها وبناموسها الذي ارتبطت به.

ومِثَالٌ آخر: ماذا قَدَّمَ سَحَرَةُ فرعون؟ لقد كانت ساعةً من نهارٍ تلك التي فصلت بين كُفرٍ عتيدٍ وبين إيمانٍ راسخٍ، بين عملٍ شَنِيعٍ -وهو السِّحر لنصرة فرعون- وبين سجدةٍ خالصةٍ لرب

فرعون ورب النَّاس جميعًا. فهل نقول بِأَنَّهُم دخلوا الجنة بعملهم؟ إنَّ الزمن لم يتَّسع عندهم للأداء، ولهذا فقد أثبت القرآن الكريم أنَّ طمعهم في دخول الجنة كان على أساس العشم والرغبة في الحصول على عفو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومغفرته، قال تعالى مُخبِرًا عن حالهم:﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١].

ولماذا قالوا «إِنَّا نَطمَعُ»؟ قالوها لأنَّ أَمَلَهُم في دخول الجنة قد تَعَلَّقَ بالرحمة الإلهية لا بأعمالهم التعبدية، فلم يكن لديهم مُتَّسَعٌ من الزمن لتحقيق الطاعات وأداء الواجبات. ولذلك يجب أن يبقى أملنا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظيمًا، فبابه واسعٌ وعطاؤه وافرٌ، وهو تعالى على رحمة عباده لقادر.

بين الناموس الكوني والشرعي

النَّاموس الكوني هو القانون والنظام الإلهي الذي يُخضِعُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له جميع الخلق طوعًا أو كرهًا مثل المرض أو الموت أو الهلاك، ويكون الإنسان في هذا النَّاموس مُسَيَّرًا لا مُخَيَّرًا. ووفقًا لذلك، فإنه لا يمكن لأي شخصٍ أن يدعو ربه بأن يمنع عنه الموت مثلًا لأن مثل هذا الدعاء لا تَتَحَقَّقُ فيه الإجابة مع أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد وعد بإجابة الدعاء في قوله:﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وفي قوله أيضًا:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وسبب عدم الاستجابة هنا هو أَنَّ العبد قد دعا بدعاءٍ مغايرٍ للنَّاموس الكوني، فالموت قانونٌ وناموسٌ كونيٌّ قَهَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به الخلق، قال تعالى:﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال أيضًا:﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وقال عزَّ من قائلٍ:﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وهكذا يُقَاسُ على بَقِيَّةِ النَّواميس الكونية.

أَمَّا النَّاموس الشرعي، فهو القانون المتَّبَعُ في تعامل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع البَشَرِ وفقًا لسلوكهم وأفعالهم ومواقفهم من شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة.

وفي ضوء ذلك، ينبغي للعبد أن يُحَدِّدَ مكانته ومنزلته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبر تحديد موقعه في ناموس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من خلال بعده أو قربه منه ومن خلال أخذه له أو تَخَلِّيهِ عنه، قال تعالى:﴿بَلِ

ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤-١٥]. وفي هذا النَّاموس الشرعي يكون الإنسان مُخَيَّرًا وليس مُسَيَّرًا.

وبِفِقهِ النَّاموس الشرعي يمكننا رَفعُ كثيرٍ من اللبس الذي يَحِلُّ علينا فيما يَخُصُّ فهم أقدار الله ﷻ. فَمَثَلًا، هناك كثيرٌ من أبناء الأُمَّةِ الذين يدعون لهذه الأُمَّةِ فلا يُستَجَابُ لهم، بل كم من دعوةٍ دعوناها ولم تُجَب حتَّى أَنَّ بعضهم قال: أين الله؟ والعياذ بالله! الله ﷻ موجودٌ ونواميسُهُ ثابتةٌ وموجودةٌ، والله ﷻ لا يُغَيِّرُ ناموسه من أجلنا وإنَّمَا يُغَيِّرُنَا من أجل ناموسه! قال تعالى:﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقال أيضًا:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. فالمعاصي هي التي تحول دون الاستجابة وتركنا لمحبوبات الله ﷻ هو الذي يحول دون حصولنا على ما نحب؛ فَلِكُلِّ قضيَّةٍ سببها ولِكُلِّ مسألةٍ نظامها وقانونها، قال تعالى:﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ولا بُدَّ أن تمضي نواميس الله ﷻ في البشر لكي تستقيم الحياة وفق منهج رب البشر.

إِنَّ من الخطورة أن يُنظَرَ إلى الإسلام من خلالنا وأن يُنظَرَ إلى أخلاقه في ضوء أخلاقنا!! وكم تَمَنَّيتُ لو أنَّ الغرب اطَّلَعَ على الإسلام على أَنَّهُ مَنهَجٌ من عند الله ﷻ قبل أن يَطَّلِعَ على منهج الله ﷻ من خلال أُمَّةِ المسلمين التي خالفت أوامر الله ﷻ وقَدَّمَت صورةً مُشَوَّهَةً لا تَصلُحُ لأن تكون مدار حديثٍ عن الإسلام فضلًا عن أن تكون منهجًا وسلوكًا له. وكيف نتلو

القرآن على أسماع النَّاس بألسنتنا ونحن لا نتلوه بأخلاقنا؟ إنَّ الأُمَّةَ التي تحارب الإسلام هي نفسها التي تُذِيعُ على أسماعنا كتاب الله ﷻ في بعض وسائل إعلامها.. فهؤلاء قد تيقنوا بأنَّ القرآن اليوم لا يتجاوز أسماعنا وتأكَّدوا بأنَّ أنغامه قد سبقت معانيه وأحكامه في واقعنا اليوم.

إنَّنا نُرِيدُ لدين الله ﷻ أن يعيش القلوب قبل القوالب وأن يعيش المعاني السامية قبل المباني الشامخة. لقد تطاولنا في البنيان ولكن قاماتنا لم ترتفع بين الأنام، فخطاباتنا في المؤتمرات وهتافاتنا في السَّاحات العامَّة والشوارع لا ولن تصنع رجالًا، ولهذا فَإِنَّنا نطالب بِأُمَّةٍ مثاليةٍ لا أُمَّةٍ غوغائيةٍ! فأقدار الحَقِّ لا تتحرك إلا من أجل الحَقِّ ونصرة أهله، وحاش لله ﷻ أن يُخلِفَ وَعدَهُ أو أن يُغَيِّرَ ناموسه، قال تعالى:﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧]. إنَّ الله ﷻ عليمٌ بأحوالنا، يُجري أقداره فينا وفقًا لمقتضى علمه بنا؛ فنحن نتمنى بأهوائنا والله ﷻ يمنحنا وفقًا لأحوالنا ولا تبديل لِسُنَّةِ الله ﷻ. ولذلك فإنَّ حجم الأُمَّةِ لا يقاس بعدد أفرادها بل بحجم الإيمان في قلوب أبنائها وقُوَّةِ اليقين في صدورهم؛ فإبراهيم عليه السلام كان وحده يساوي أُمَّةً، قال تعالى:﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، لَكِنَّ أُمَّةَ الإسلام اليوم لا تساوي إبراهيم عليه السلام.

إِنَّهُ القانون الرباني الذي سَنَّهُ اللهُ ﷻ ليحكم حياتنا في ظلال منهجه، عطاء الله ﷻ لنا في هذا القانون يأتي وفقًا لصدقنا ولأدائنا في ظلاله، قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. فإذا تجاوزنا الوفاء بالشرط حُرِمنَا كرامة جواب الشرط، ولا يظلم ربك أحدًا.

بين التكوين والتمكين

إِنَّ طريق التَّمكين شَاقٌّ وطويلٌ، وهو طريق جهدٍ ومجاهدةٍ تحكمه السُّنَنُ الربانية في نصرة هذا الدِّين، قال تعالى:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقد يتصور بعض الناس لجهلهم بِسُنَنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ المسافة بين التكوين والتمكين وبين الزرع والثَّمرة هي مسافةٌ قصيرةٌ، والمشكلة لا تكمن في قدرة الناس على تصور مستلزمات منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقدر ما تكمن في استعدادهم للعيش في ظلاله وتَحَمُّلِ تكاليفه، بل ودفع ثمن البيعة المنعقدة بين الحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأهل الإيمان، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

لقد أدرك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثمن التكليف فكابدوا مَشَاقَّ المنهج الرباني من أجل الوفاء بالبيعة وعاشوا مرحلةً قاسيةً من حياتهم على أرض مكة، وهي أرض الواقع الذي تنزَّل فيه وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصُنِعَ فيه جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -خَيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس- الذي كان جيل التكوين قبل أن يكون جيل التمكين. ومع أنه يصعب أن يتكرر مثل هذا الجيل عبر تاريخ البشر بذات الواقع الذي عايشوه وبذات السمات التي اتصفوا بها، إلَّا أنه لا يستبعد على الأُمَّةِ الإسلامية أن تقترب منه بحسب قربها من منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فهو المنطلق في تكوين الأجيال عبر العصور والدهور

وهو الأساس في صناعة الحياة. لقد استنزفت مرحلة التكوين في العهد المكي جهدًا وطاقةً وعناءً وتضحيةً كبيرةً بالمال والنفس من أجل أن تتم على أكمل صورةٍ قُدِّرَ فيها لجماعةٍ أن تكون في الأرض، وهي الجماعة التي اندرج سلوكها في طور البناء والإعداد آنئذٍ تحت قوله تعالى: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]. وفي ضوء ذلك، فليس لأحدٍ أن يستعجل وعد الله ﷻ، بل لا بُدَّ لمسيرة التكوين أن تستغرق عناصرها وأن تستوفي أسبابها. ولعلَّ في شكوى بعض الصحابة ﭫ لرسول الله ﷺ مَا يَدُلُّ على هذا المعنى، فعن خَبَّاب بن الأَرَتِّ ﭬ أَنَّهُ قال: «شَكَونَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُردَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعبَةِ، قُلنَا لَهُ: أَلَا تَستَنصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدعُو اللهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَن قَبلَكُم يُحفَرُ لَهُ فِي الأَرضِ فَيُجعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالمنشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأسِهِ فَيُجعَلُ نِصفَينِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَن دِينِهِ، وَيُمشَطُ بِأَمشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحمِهِ مِن عَظمٍ أَو عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَن دِينِهِ. واللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعَاءَ إِلَى حَضرَمَوتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُم تَستَعجِلُونَ»[١]، ولقد تَحَقَّقَ فعلًا صدق وعد النبي ﷺ.

لقد كان العهد المكي عهد تكوينٍ لجماعة الدعوة وكان العهد المدني عهد تمكينٍ لجماعة الدعوة والدولة، وبين العهدين كان وحي الله ﷻ يتنزل لرسم معالم المنهج الرباني في العهدين وتحديد أولويات مصالح الأُمَّةِ في ظلال وحي الله ﷻ. وبين العهدين عاش المسلمون الأحزان والأفراح والشدة واليسر، ومن ثَمَّ أدركوا بأنَّ منهج الله ﷻ لم يتنزل على البشر ليحكي قصة الحياة، وإنما تنزل ليقود الحياة وليعيش أتباعه معتركها بأحكامه وتوجيهاته. ولا يحق لأي تَجَمُّعٍ أعلن انتماءه لدين الله ﷻ أن يتجاوز مسيرة التكوين من أجل التمكين فيتجاوز بذلك الغايات

---

[١] رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (رقم الحديث ٣٦٥٥).

في النَّاموس الشرعي، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جعل لِكُلِّ شيءٍ سببًا حتَّى تبقى الغاية في بناء النوع لا في تَنَوُّعِ البناء، وفي عمارة القلوب لا في صناعة القوالب.

لا ينبغي لِأُمَّةٍ أن تتجاوز مراحل التربية والإعداد لتستعجل الثمار لأنَّ سُنَنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ستمضي كما يريد الحَقُّ تعالى لا كما نريد، والوعد لا يَتَحَقَّقُ إلَّا بتحقق شروطه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]. ولعلنا نسأل: أيهما يتطلب منا جهدًا أكبر: أن نصبر على مراحل التكوين أم نصبر على عطاء التمكين؟ وهل التمكين ثمرة التكوين أم التمكين مرحلةٌ مُتَمِّمَةٌ للتكوين؟ من الصعب أن نعطي إجابةً وافيةً على ذلك، لكن من الضروري أن نضع في حساباتنا أن المؤمن لا بد أن يعيش المنهج بكل تبعاته قبل أن يسيل لعابه على تحصيل كراماته، فكثيرٌ من حصاد الزرع لا يكون إلَّا يوم اللقاء، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، ولا ينبغي لنا أن ننتظر وعد التمكين قبل أن نعيش مستلزمات التكوين لأنَّ الأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من قبل ومن بعد، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤-٥]؛ فَالثَّمَرَةُ حاصلةٌ بوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أَمَّا تحقيقها فمرتبطٌ بنواميسه، والنصر الموعود مُتَّصِلٌ بالناموس المعهود، ولن يُخلِفَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعده ولن يُغَيِّرَ نواميسه وسننه، قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

إِنَّ من أعظم الفتن على الجماعات الإسلامية أن تُمَكَّنَ قبل أن تستوفي متطلبات التكوين لأنها ستكون فتنةً تصيب تداعياتها الجميع (بما فيهم الذين كفروا من النَّاس)؛ ولقد كان من دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه من أهل الإيمان ما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ

كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥]، وقد ورد هذا الدعاء في سورة الممتحنة لما ذُكِرَ فيها من امتحانٍ لجماعة المسلمين. ولَعَلَّ في دعائهم هذا قُدوةً للمسلمين الذين يعيشون في الغرب. فالحالة التي يعيشونها ويقدمونها على أَنَّهَا الإسلام تتضمن ممارساتٍ شَوَّهَت معالم العقيدة الإسلامية وزاغت عن أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأحكام دينه، فجعلت الغربيين ينظرون إلى الإسلام من خلال هذه الممارسات حتَّى اختلطت صُورَةُ الإسلام في أذهانهم، ويا ليتهم نظروا إلى المسلمين من خلال الإسلام ولم ينظروا إلى الإسلام من خلال المسلمين!

لقد عشنا الحياة ومتغيراتها في عالمٍ يَمُوجُ بالفتن، لكن هل عشنا الحياة في ظلال منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أم عشناها في ضوء فهمنا الخاطئ لدينه سبحانه؟ فهناك فرقٌ كبيرٌ بين الأمرين، وهناك فرقٌ بين من كان خُلُقُهُ القرآن[١] وبين أُمَّةٍ جهلت القرآن وهجرت أحكامه! ولذلك فَإِنَّهُ يلزمنا أن نتلو القرآن على النَّاس بأخلاقنا مثلما نتلوه بأصواتنا ليكون كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شاهدًا لنا لا علينا لا سيما وأنَّ أعداء هذا الدين أصبحوا لا يخشون على أنفسهم ولا على مصالحهم من أتباع الإسلام أو -بعبارةٍ أدق- ممَّن يدَّعون الانتساب إليه لأنهم أَمِنُوا أَنَّ ما بين الدِّينِ وما بين أدعياء التَّدَيُّنِ هو ما بين المشرق والمغرب. فالإسلام اليوم لا يقود أتباعه ولا يصوغ حياتهم ولا يشكل في غالب الأحيان إِلَّا جانبًا هامشيًّا من ثقافتهم العامَّة، بل ويُشَكِّلُ عند بعضهم تركةً ثقيلةً ناء بحملها اللاحق عن السابق حتَّى بات كثيرٌ من المسلمين الذين يُظهرون ثوب الدِّينِ يمشون بين

[١] هكذا وصفت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولها:«كَانَ خُلُقُهُ القُرآنَ»، مسند أحمد بن حنبل ج٦/ص٩١.

النَّاس على استحياءٍ، ولا يدري أحدهم ماذا يصنع بواقعه وكَأَنَّ هذه الآية الكريمة تصف حاله وحيرته: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

إنَّ القلب الذي لا يستشعر الإيمان في شغافه لا يقوى على إقامة شعائره، وإنَّ الأُمَّةَ التي لم تتذوَّق حلاوة الإيمان لا تذوق طعم الأمان؛ فالخطابات لا تصنع رجالًا والهتافات والتظاهرات لا تُغَيِّرُ الأحوال ولا تصنع المواقف، ونحن من أكثر الأمم خبرةً في ذلك ومن أشقاها تجربةً. نحن نُرِيدُ أُمَّةً إسلاميةً مثاليةً في تمسكها بمنهج الله ﷻ، تأخذ كتاب رَبِّهَا بِقُوَّةٍ، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، ولا نريد أُمَّةً غوغائيةً لا تجيد إلا الخطابات التي غصَّت بها منابر الإعلام والمؤتمرات، وهي أُمَّةٌ نقضت غزلها من بعد قُوَّةٍ أنكاثًا، وقد نهانا الله ﷻ عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢]. فمن قدر الله ﷻ في هذه الأُمَّةِ أَنَّها محكومةٌ بناموس الله ﷻ فيها، فلا تُمكَّنُ وهي بعيدةٌ عن منهج الله ﷻ ولو مازجت أنفاسها نسائم الحياة وفاقت بأعدادها رمال الصحراء!

وهنا لنا أن نسأل لا من قبيل كشف العورات ولكن كما قيل «ما هلك امرؤٌ عرف قدر نفسه»[١]، كم هو عدد المسلمين في عالمنا اليوم؟ إنَّهم أكثر من مليار و ٧٠٠ مليون مسلمٍ، وهم يمثلون أكثر من رُبعِ سكان العالم، وكثيرٌ منهم قد دعوا الله أن ينصر دينه ويُمكِّنَ له في الأرض

[١] انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج٥/ص٣٨٤.

ويصلح أحوال المسلمين..لقد لهج اللسان بالدعاء والأيدي مرفوعةٌ للسماء تَضَرُّعًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واستغاثةً به، فأين الاستجابة؟ بل أين الخلل؟

يجب أن تكون عقيدتنا كاشفةً لأحوالنا، فَكُلُّ الأصوات التي ارتفعت بالدعاء لن تعدل دعوة رجلٍ واحدٍ تَعَلَّقَ قَلبُهُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هي دَعوَةٌ هتف به قَلبٌ عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأيقن أَنَّ هناك لسانًا إذا نطق بِالحَقِّ فَالحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لن يخلفه وعده، قال تعالى:﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧]. لقد كانت دعوةً واحدةً من عبدٍ مغلوبٍ وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فماذا حصل بعدها؟ لقد تَغَيَّرَ وجه الأرض فأصبحت الكرة الأرضية كرةً مائيةً، قال تعالى:﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ٩-١٣]. وفي أيامنا هذه نجد أَنَّ دعاء أكثر من مليار و٧٠٠ مليون مسلمٍ لم يُغَيِّر شِبرًا من الأرض، بينما غيَّرت دعوة رجلٍ واحدٍ وجه الأرض!! ذلك لنعلم أَنَّ أقدار الحَقِّ لا تتحرك إلا من أجل الحَقِّ ذاته ولنصرة أهله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليمٌ بأحوالنا ويُجري أقداره فينا وفقًا لمقتضى علمه، فنحن نتمنى بأهوائنا والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمنحنا وفقًا لأحوالنا، ولا تبديل لِسُنَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهنا نضرب مثلًا في أُمَّةِ بني إسرائيل ومن واقع سيرتهم، فقد كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم التمكين أَوَّلًا، قال تعالى:﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال أيضًا:﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ

أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]. ثم بدأت مرحلة تكوينهم بعد نجاتهم بخارقة انفلاق البحر. ومنذ البداية، أراد الله سبحانه وتعالى أن يكشف لموسى عليه السلام ماهية الأُمَّةِ التي سيسلك بها طريق المنهج الرباني ويصحبها في مسيرة التكليف، فمنحه الحَقُّ تعالى موقفًا غريبًا في شكله عجيبًا في أمره، وهو ذلك الموقف الذي صدر من أتباعه عند البحر وقبل عبوره، قال تعالى:﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ۝ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ۝ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٧].

لقد كانت المسافة الإيمانية شاسعةً بين من صُنِعَ على عين الله سبحانه وتعالى وأُعِدَّ بمنهجه -وهو موسى عليه السلام الذي قال تعالى في شأنه:﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]- وبين الذين قالوا «إِنَّا لمدركون»، فكان ذلك الموقف تنبيهًا لموسى عليه السلام أراد الله سبحانه وتعالى أن يكشف به لنبيه الكريم عن طبيعة القوم الذين سيسلك بهم طريق التكوين في المرحلة التي أُريد لها أن تكون بعد حادثة التمكين.

وكم فوجئنا في زماننا هذا بمواقف رؤساء وكم فوجئنا بمواقف جماعاتٍ!! وكم فوجئنا بمواقف قياداتٍ!! وكم فوجئنا بتصرفات علماء وشيوخٍ ظَنَّ النَّاسُ فيهم خيرًا!! وكم فوجئنا بمواقف منافقين من أدعياء هذا الدِّين!! ولم نكن نعلم بهذه الحقائق إلَّا بعد أن وقعت الواقعة التي ليس لوقعتها كاذبةٌ!!

لقد أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ألَّا يُفَاجَئَ فيما سيأتي في المراحل القادمة، وشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحدث معجزة انفلاق البحر وغرق فرعون وجنوده من أجل أن يرفع من همة القوم نحوه تعالى حتَّى يتوجهوا إلى مراده قبل أن يتوجهوا إلى مرادهم، قال تعالى:﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٥٦-٦٣]. ورأى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ المعجزة الكبرى تَتَحَقَّقُ أمام عينيه، وإذا بالأرض التي كانت تحمل البحر قبلها بقليلٍ هي الآن أرضٌ مُعَبَّدَةٌ صالحةٌ لِسَيرِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه! ونظر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى البحر وإذا بفرعون يدخل خَلفَهُم! لقد جهل فرعون أنَّ أرض البحر قد عَبَّدَهَا رَبُّهَا لنصرة نبيه وأتباعه ولم يُعَبِّدهَا لفرعون وجنوده، فوقعت واقعته فكان فرعون ومن معه من المغرقين الهالكين!

ثُمَّ جاءت بعدها مرحلة التكوين لبني إسرائيل، وإذا بِالأُمَّةِ التي كُوِّنَت بعدما مُكِّنَت لم تَصلُح لأن تكون نموذجًا وأُسوةً للنَّاس. أمَّا أصحاب النَّبِيِّ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم الأمَّة الوحيدة التي استوفت مراحل التكوين قبل أن ترقى إلى علياء التمكين، ولهذا فقد شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلها خير مثالٍ يحتذى ويقتدى به، قال تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال أيضًا:﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ وفي هذه الآية الكريمة قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:«أُخرِجَت» ولم يقل:«خَرَجَت» لِأَنَّهُ تعالى هو من أخرجها للعالم بمنهجه وبما تَحمِلُ من رسالة الإسلام وعقيدة التوحيد وأخلاق الدِّين الجديد، ولم ينسب لها الخروج لأنَّ ذلك القَدَرَ جاء باختيار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبإرادته في تمكين أهل الحَقِّ. فلمَّا بلغت الأُمَّةُ مستوى الصلاحية لتمثيل دعوة الحَقِّ أخرجها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لتكون رحمةً للعالمين وخير من يُمَثِّلُ دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للنَّاس أجمعين.

من أجل ذلك، فَإِنَّهُ لا يَحِقُّ لِأُمَّةِ التكليف أن تنطلق من أرضٍ هشةٍ لتطول سماءً لا يَبلُغُهَا إِلَّا المرتَقُونَ والمحَلِّقُونَ من أهل الإيمان، قال تعالى:﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فلا وهن مع الإيمان ولا حزن مع مَعِيَّةِ الله ﷻ ولا عاقبة إِلَّا للمتقين! وعلى أصحاب الحَقِّ أن يعيشوا مراحل التكوين بصبرٍ ويقينٍ قبل أن يتطلَّعوا إلى علياء التمكين ليكونوا الوسط المحمي في ظلال منهج الله ﷻ.

بين المحنة والمنحة

إنَّ المحن لا تنجلي آثَارُهَا إلَّا بالإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واليقين بوعده، فينتقل المؤمن بهما من الخشية على الذات إلى التضحية بالذات. ولا مناص للمؤمن من الصبر الجميل المصاحب للرضا بقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدره وبصدق الدُّعَاءِ وعِظَمِ الرجاء، فعقيدتنا عند تزاحم الشدائد وتلاطم المصائب أن نوقن في قوله تعالى:﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨].

فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رفع يومًا خلال رحلته في عالم السجون شعار:﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، على أمل أن يجد له سبيلًا للنجاة، فكتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه البقاء في السجن بضع سنين حتى تكتمل فيه عقيدة اليقين المطلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأَنَّهُ هو وحده القادر على رفع البلاء؛ فيوم أن أراد تحرير نفسه من غيابات السِّجن أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له طول البقاء فيه حتى يرتقي إلى منزلة التسامي فوق آلام البلاء مهما اشتدَّ فينطق بعدها بشعار:﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]. لا ملك ولا سلطان يَملِكُ الفوقية على أصحاب الحَقِّ غير سلطان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اليوم يختلف عنه بالأمس، فقد أخذ الإعداد الرباني زمنه الكافي في مسيرته حتى اكتمل. ولو خرج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالأمس لكان طليق ذاته فقط ولبقي الحَقُّ سجينًا، أَمَّا اليوم فهو طليق منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا منَّة لأحدٍ عليه غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالبراءة لا تقع والتهمة باقيةٌ، وإلَّا لقال النَّاس: لقد خرج بعفوٍ ملكيٍّ التَمَسَه أو التُمِسَ له، وشتَّان بين هذا وبين ما آل إليه أمر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما خرج من السجن بعد أن أصبح الحَقُّ طليقًا، قال تعالى:﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]. إنَّ خارطة دعوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يرسمها غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي تولاه وأراد له التمكين من أول يومٍ في مسيرة عبوديته

في دار العزيز، فبعد أن كان عبدًا مملوكًا عند العزيز، أصبح سيدًا مُطاعًا عند الملك! كان يوسف عليه السلام مشغولًا بِرَبِّهِ يوم أن انشغلت به امرأة العزيز، وكان مشغولًا بدعوته يوم أن انشغل أصحاب السجن بغيابات السجن، فلا تنشغل عن الله سبحانه وتعالى عند حاجتك إليه، ولا تبعد عنه فأنت محتاجٌ لمعيته، وعلى الله سبحانه وتعالى فتوكل فهو نعم المولى ونعم النَّصير.

كنت أسكن المدينة المنورة لسنواتٍ كثيرةٍ، وفي يومٍ من الأيَّام –في بداية الثمانينات من القرن الماضي– جمعني لقاءٌ مع مجموعةٍ من الضيوف في بيت أحد الزملاء على مائدة العشاء، فوجدت في المجلس أناسًا من بلدٍ عربيٍّ شقيقٍ كانوا من المدعوين على العشاء وكانوا قد قدموا لأداء العمرة، وكان أحدهم يتكلم في المجلس بلغة أصحاب العزائم في الدعوة والتبليغ، فأثارت بلاغته وفصاحته غرابتي لأنَّه تميَّزَ من بين الحاضرين، فسألناه عن وظيفته ومن أَيَّةِ جامعةٍ تَخَرَّجَ وفي أَيَّةِ جامعةٍ يعمل؟ فضحك وقال:«مهنتي في بلدي هي بيع الفواكه والخضار –أي أَنَّهُ كان يعمل بَقَّالًا– وأَمَّا عن تحصيلي العلمي، فأنا من خريجي المدرسة اليوسفية!». لقد قضى هذا الرجل أكثر من سبعة عشر عامًا في غيابات السجن في عهد الظلم والطغيان!! تعجَّب جميع الحاضرين من طول المدَّة وتساءلوا عن كيف يقضيها المظلوم؟ بل كيف يقضي ليلها ونهارها؟ فأجابنا إجابةً جعلتنا نَتَقَلَّبُ بين التَّعَجُّبِ والانبهار، قال:«كُنَّا في السِّجن نعاني من ضيق الوقت!»..لقد شغلوا زمنهم بحفظ القرآن والسُّنَّةِ ومدارسة العلم، واستعانوا على ذلك كُلِّهِ بالصبر والصلاة!

قلت في نفسي: ما أعظمك يا مولاي وأنت تحيط عبادك ببطانة لطفك وعونك ورحمتك عند البلاء! وتذكرت كيف نشر الله سبحانه وتعالى رحمته لأهل الكهف وهم في ذلك المكان الضَّيِّقِ

والمخيف، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ [الكهف: ١٦]، ثُمَّ تذكرت كيف نَجَّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ من الظلمات الثلاث وهي ظلمات الليل والبحر والحوت، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وتذكرت أيضًا كيف أذهب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحزن والخوف عن رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن صاحبه وهما في ضيق الغار، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

بين الهلع والفزع

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧-١٨]، فسبحانك اللَّهُمَّ يا من تَقهَرُ ولَا تُقهَر، ويا من تَقدِرُ ولَا يُقدَرُ عليك، ويا من تُجِيرُ ولَا يُجَارُ عليك، فمن يَرُدُّ قَضَاءَكَ ومن يَصرِفُ بَلَاءَك؟ ومن له الفوقية على أمرك وأنت قَيُّومُ السماوات والأرض ومن فيهنَّ؟ إذا نزل قضاؤُك بطل دعاؤُنا، وإذا جاء أمرك بطل أمرنا، وإذا حلَّ غضبك على عبادك فليس لها من دونك كاشفةٌ، قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ﴾ [غافر: ٢٩]. إنَّها رسالةٌ لِكُلِّ من ظنَّ أنَّ الأرض في قبضته وأَنَّ العالم يسير بإرادته فيبطش بالناس كيف شاء وحيثما أراد. وهذا نداءٌ يبعثه الله سبحانه وتعالى لهؤلاء بل وللبشر جميعًا: «أَنَا الملك، أَينَ مُلُوكُ الأَرض؟»[١]، فَأَينَ الجَبَّارُونَ وأَينَ المتكبِّرون؟

سبحانك يا من قهرت الجبَّارين بأهون مخلوقاتك! هل نسي العالم أنَّ النَّمرود الذي كان قد ملك الأرض قد انتهى أمره بحشرةٍ صغيرةٍ أرسلها الله سبحانه وتعالى عليه فأصبح في لُجَجٍ من العذاب يتمنى الموت ولا يناله؟! وهل نسي العالم كيف أنهى الله سبحانه وتعالى سلطان طاغية الأرض فرعون وما كان يملك من قُوَّةٍ ضاربةٍ علا بها وبملكه في الأرض؟ كان ذلك بضربةٍ واحدةٍ من عصا موسى

---

[١] صحيح البخاري ج٥/ص٢٣٨٩ والحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم نَصُّهُ: «يَقبِضُ الله الأَرضَ وَيَطوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الملِكُ، أَينَ مُلُوكُ الأَرضِ؟».

عَلَيْهِ السَّلَامُ ما استغرقت من زمن الحياة إلَّا لحظةً واحدةً أَرَاهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها من هو الملك الحَقُّ والرَّبُّ الأعلى في الكون والوجود!؟

يا من أيَّدت ونصرت حبيبك المصطفى ﷺ في عتمة الغار-وهو في أوج ضعفه ومحنته- بجنودٍ لم يَرَهَا أَحَدٌ من عبادك؛ فعند فوهة الغار انتهى الأثر وعندها وقف الأقوياء من البشر حتَّى حار في الأمر أهل الرأي والنظر، فصرفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو صاحب القُوَى والقُدَر، قال تعالى:﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]. ومثل هذه الشواهد في التاريخ كثيرةٌ، لَكِنَّ الغافلين عنها أكثر، قال تعالى:﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

قد يبعث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جُندًا من جنوده لا يُرَى إِلَّا بأعقد المجاهر ليعبر القارات والمحيطات بلا مانعٍ ولا رادعٍ، لا يُوقِفُهُ بَشَرٌ ولا يمنعه عَسكَرٌ لأنَّ الذي أرسله هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قاهر الجبابرة من البشر! يختاره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليكون للنَّاس نذيرًا لِيُفِيقَهُم من غفلتهم ولِيُوقِظَهُم من سباتهم وليعلموا أنَّ وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَقٌّ، فأين من أنكر وجوده سبحانه فقط لأنَّ عيونهم لا تراه؟ فهل أنكروا وجود جنده لأن عيونهم المجرَّدة لا تستطيع أن تراهم!!

هي رسالةٌ للنَّاس من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مفادها: أنا موجودٌ بأمري وقدرتي، أنا موجودٌ بعظمتي، أنا موجودٌ بجنودي.

وهنا أضرب مثالًا واحدًا من واقعنا يكفي لأن يكون عبرةً لأهل النظر، ويتعلق الأمر بداء «فايروس كورونا» الذي ابتلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به أهل الأرض جميعًا حتَّى رأيناه يكتسح العالم بأسره ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرين. وإلى يومنا هذا، يقف العالم أمام هذا الدَّاء على حافَّة الهاوية، لقد أفلست إرادته وخانته قدرته ولم يجد سبيلًا يهتدي به لرفع البلاء وهو يعيش في محاضن الشقاء، فلا يُهدى إلى سبيل النجاة إلَّا بإذن مُسَبِّبِ الأسباب وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]. لقد أيقن أهل الأرض من قبل أَنَّهُم قادرون عليها فجاءهم أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي لم يحسبوا له حسابًا ولم يكتبوا له كتابًا فأخذهم بغتةً وهم لا يشعرون!!!

إنَّها رسالةٌ سماويةٌ مستعجلةٌ تلك التي ينقلها «فايروس كورونا» وهو جُندِيٌّ من جنود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يُحصِي جنود الله إلَّا هو سبحانه، قال تعالى:﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ٥٦ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾ [النجم: ٥٦-٦٢].

وللأسف، فَإِنَّ بعض إخواننا يريد أن يكون مَلَكِيًّا أكثر من الملك نفسه، فيعترض على من ينظر إلى المصيبة على أنَّها بلاءٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -للكفَّار بسبب أفعالهم وجبروتهم وللمسلمين بسبب غفلتهم وتفريطهم في جنب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- على اعتبار أَنَّ الإسلام دين سلامٍ ومحبَّةٍ ووئامٍ وعلى اعتبار أَنَّ المسلم لا ينبغي أن يتمنَّى الشَّرَّ لأحدٍ. وهذا كلامٌ جميلٌ في ظاهره ولا نختلف معه فيه، ولكنِّي أتساءل: أين أنت وحرمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بل وأَقدَسُ مُقَدَّسَاتِه تُنتَهَكُ في شعاب

الأرض ومناكبها؟ أين أنت والظالمون يتسلَّطون بِجَامِّ غضبهم على المستضعفين من أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها؟ هل نسيت الفساد الذي عمَّ في البَرِّ والبحر؟ فما من موقعٍ على وجه الأرض إلَّا ويشكو لخالقه ظُلمَ العباد وفسادهم وطغيان الطغاة وجبروتهم؟! وهل نسيت جنود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي أرسلها إلى أقوامٍ طواهم الزمن وبقيت لنا العِبرَةُ فيما أوقعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهم؟ لقد أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هؤلاء الأقوام من الأمم السابقة في كتابه فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝١٣٥ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣-١٣٦].

نحن لا نريد لِلشَّرِّ أن يغشى العالم، فَنَبِيُّنَا هو الرَّحمَةُ المهداة للنَّاس جميعًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. لكننا، وفي ذات الوقت، لا نريد للجاحدين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يسودوا هذا العالم، فما من موطئ قدمٍ على وجه الأرض إلَّا ولهم مردةٌ من شياطين الإِنس والجِنِّ يُمَهِّدُونَ لهم طريق الفساد ويُكمِلُونَ لهم مسيرة الشَّرِّ!!

ولا نريد أيضًا لمنهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكون ضيفًا أو عابر سبيلٍ علينا لا يجد في الأرض سَعَةً لِأَن يُكرَم؛ فهو منهج حياةٍ وعنوان نجاةٍ، بل إنَّ غاية خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده كانت تحقيق العبادة والعبودية له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال عزَّ من قائلٍ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. إن كُنَّا لا نغار على حرمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي انتهكها الظالمون والفاسقون فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغير مِنَّا عليها وعلى دينه وفي ضوء ذلك يتصرف مع خلقه كما يشاء ضمن ناموسه الذي لا يَتَغَيَّر ولا يَتَبَدَّل،

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦-٣٧].

وفي الختام أقول: لا يعلم ولا يحصي جنود ربنا سبحانه وتعالى إلَّا هو، ومن آسَفَ الله سبحانه وتعالى فقد حَقَّ عليه عَذَابُهُ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥-٥٦]، وقال عَزَّ من قائلٍ: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

بعيدا عن اليأس وانقطاع الأمل

اليأس هو أخطر شيءٍ قد يصيب حياتنا والأدهى منه هو انقطاع أملنا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فاليقين بوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو من صميم عقيدة الأنبياء، والصَّبرُ على البلاء هو من خُلُقِ أولي العزم من الرسل. وهنا أريد أن أُذَكِّرَ بحقائق قد يغفل عنها بعضنا إمَّا لشدة البلاء وطول الشَّقاء أو لانقطاع الرَّجاء، لَعَلِّي أبعث في نفوس المسلمين الأمل بإشراقة الخير في هذه الأُمَّةِ. ومن هذه الحقائق أَذكُرُ ما يلي:

أَوَّلًا: لقد رمي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في النَّار فظنَّ الناس بأنَّ عقيدة التوحيد ستحترق معه ولن يبقى منها إلَّا الرماد، وما احتاج الأمر أكثر من قول الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فماذا حدث بعد ذلك؟ لقد انهارت الأُمَّةُ التي رمت إبراهيم في النَّار وبقي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وجعله الله أُمَّةً بين النَّاس، قال تعالى:﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، فرَفَعَ الحَقُّ تعالى مقام إبراهيم وأهلك القوم الذين مكروا به، قال تعالى:﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

ثانيًا: لقد تَحَقَّقَت بطانة الحفظ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في طفولته، قال تعالى:﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٩]، فجبهة الحَقِّ واحدةٌ، ومن كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معه فلا يَضِلُّ هَديُهُ ولا يَخِيبُ سَعيُهُ ولا ينتهي أَمرُهُ، وحتَّى وإن فَنِيَت ذَاتُهُ فستبقى آثَارُهُ شُعلَةَ خَيرٍ تُنِيرُ طريق الأجيال المؤمنة من بعده.

ولَمَّا حاصر فرعون وجيشه الفئة المستضعفة في الأرض عند ساحل البحر، ظهر مستوى اليقين عند أصحاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ! قال تعالى:﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]؛ لقد غلب على ظَنِّ النَّاسِ يومئذٍ أَنَّهَا نهايةٌ حتميةٌ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه، فما احتاج الأمر أكثر

من أن يوحي الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ الكريم، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فماذا كانت النتيجة؟ قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٧].

ثالثًا: عندما أجمع عزيز مصر وزوجته على سجن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من أجل إنهاء أمره، جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من سجنه بابًا للتَّمكين له على أرض مصر وعلى حُكمِ شعبها.

رابعًا: في ليلة الأحزاب، ظَنَّ النَّاسُ بأنَّها ستكون القاضية على المسلمين، فعصم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من مؤامرةٍ كبيرةٍ اجتمع فيها أهل الكفر والجحود. وبعدها بسنواتٍ قليلةٍ، جاءَ النَّصرُ المبين، ففتحت مكة المكرمة وتهاوى الشِّركُ وأصنامه. ثُمَّ بعدها بزمنٍ فُتِحَت بلاد فارس والروم، فاندحر كسرى وقيصر وزال ملكهم، وبقي الإسلام عزيزًا شامخًا ينتشر ولا ينحصر!

خامسًا: هناك حقائق ثابتةٌ شهد لها التاريخ ونقلتها ذاكرة الأُمَّةِ، ونَذكُرُ منها:

- أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوفي وبقي الإسلام!!
- تُوفي الخلفاء الراشدون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وبقي الإسلام!!
- ذهبت الخلافة الأموية وبقي الإسلام!!
- ذهبت الخلافة العباسية وبقي الإسلام!!
- هجم هولاكو قائد التَّتارِ على بلاد المسلمين فأسقط الخلافة وأهلك الحرث والنَّسل، وبعدها بزمنٍ تعافت الأُمَّةُ وعاد إليها مجدها وتعاظمت مكانتها، وبقي الإسلام!!

- يقول أحد الكُتَّاب:«قبل خروج صلاح الدِّين، كان المسلمون ينتظرون قيام الساعة من شدة اليأس والضعف وقلة الأمل من صلاح الشعوب، وبعدها بأشهرٍ قام صلاح الدين بتحرير القدس، فأبشروا! فمن قلب الألم يولد الأمل»، ثُمَّ يقول:«لا تقلق على الإسلام، بل اقلق على موقعك منه!».

- ذهبت الخلافة العثمانية وبقي الإسلام!!

- وفي زماننا هذا، وبالرغم من تكالب الأمم على حرب الإسلام وتعاظم الخناق على منابع الدِّين والتنكيل بدعاة الحَقِّ في كُلِّ مكانٍ بين قتلٍ وسجنٍ وتشريدٍ وتكميمٍ للأفواه، لكنَّ الإسلام ينتشر ودعوة الحَقِّ تكبر، بل وفي كثيرٍ من بقاع الأرض يُسمَعُ من فوق المآذن نِدَاءُ «الله أكبر»..

وأخيرًا: فهذه رسالتنا إلى الذين يحاربون الإسلام: لو فني المسلمون عن بكرة أبيهم لبقي الإسلام! قال تعالى:﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وهذا لِأَنَّ الإسلام هو دين الله ﷻ الذي تعهَّد أن يُتِمَّهُ بِعِزِّ عزيزٍ أو بِذُلِّ ذليلٍ، والأرض أرضه يورثها من يشاء من عباده، قال تعالى:﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ويا من تحاربون الله ﷻ الذي فرض الإسلام على عباده، وَفِّرُوا على أنفسكم الجهد والعناء لأنَّ معركتم خاسرةٌ، قال تعالى:﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال أيضًا:﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. وتَمَامُ الأمر قادمٌ

بوعد الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

لمن تشكو ضعفك؟

كم من مَرَّةٍ ضاق صدرك وقَلَّ صبرك وعَظُمَ عليك هَمُّكَ فلم تجد أمامك إلَّا أن تلجأ إلى رُكنِ رَبِّكَ الشَّديد لتشكو له همَّك وحزنك وضعفك؟ لم يُذهب تلك الهموم إلَّا الله ﷻ، ولم تكن لها من دونه كاشفةٌ. وكم من مَرَّةٍ ضاقت عليك الأرض بما رحبت فما وجدت غير باب الكريم لتطرقه وعفو الغفور الرحيم لتقصده؟ فما خاب من استعان به وما ندم من توكل عليه سبحانه، ذلك لنعلم بِأَنَّ طريق الحَقِّ شَاقٌّ وطويلٌ وأَنَّ أهل الإيمان فيه هم أهل البلاء والمحن. ومن ظَنَّ غير ذلك فقد جَانَبَ الحَقَّ في فقه نواميس الله ﷻ، بل لم يُدرِك حقيقةً مَفَادُهَا أَنَّ البَلَاءَ رَدِيفُ الإيمان وأَنَّ سبيل التمكين يحتاج إلى صبرٍ ويقينٍ: صبر على قضاء الله ﷻ ويقين بوعده تعالى.

لقد أجرى الله ﷻ ناموس البلاء على أهل الإيمان بدايةً بالأنبياء والرسل ثُمَّ بأتباعهم ومن سَلَكَ هديهم إلى يوم الدِّين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال أيضًا: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

لقد كانت رحلة الطائف من أعظم محطات البلاء في حياة رسول الله ﷻ، فقد كانت حدثًا مليئًا بالمحن والشدائد خصوصًا بعد أن ضيَّقت قريشٌ الخناق عليه وعذَّبت أصحابه رضي الله عنهم بِأَشَدِّ أنواع العذاب، فما وجد من خيارٍ أمامه إلَّا الذهاب إلى الطائف ومحاولة توسيع جغرافية

دعوته، ومن ثَمَّ فك الطوق المضروب عليه من قِبَلِ صناديد قريش. ومع أَنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى لم يكتب لهذه الرحلة النَّجاح بالطريقة التي أرادها النَّبِيُّ ﷺ، لكنَّها حَوَت من العبر والعظات ما عَزَّزَ الهَدَفَ العَامَ لمسيرة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ومجمل مراحل الإعداد التربوي لرسول الله ﷺ، وذلك حتَّى يعيش التجربة ويذوق ألم النتيجة فيكون أقوى عُودًا وأَشَدَّ بأسًا في مواجهة الأحداث ومصاحبة المتغيرات. ولهذا فإنه لا ينبغي الحُكمُ على الأحداث استنادًا إلى ظاهرها المجرد عن الحكمة الإلهية منها، قال تعالى:﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فالمنح الإلهية تَربُو في أحضان المحن، قال تعالى:﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح: ٥-٦]. وعلى المؤمن الصابر المحتسب أَلَّا يستعجل الأقدار وأَلَّا يتسارع نحو النَّتائج، وليتيقن بِأَنَّ النَّصر والتمكين لا يكون في النهاية إِلَّا لأصحاب الحَقِّ، وهذا وعدٌ من الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

لقد واجه النبي ﷺ أسوأ معاملةٍ عند قدومه إلى الطائف لِأَنَّ كبراء ثقيفٍ أَسَاؤُوا استقباله وسَلَّطُوا عليه سفهاء القوم وصبيانهم ومجانينهم ليرجموه بالحجارة حتَّى أدموا قدميه الشريفتين. ويالها من مُفَارَقَةٍ غريبةٍ: نَبِيُّ الله ﷺ يدعوهم إلى النجاة من نارٍ وَقُودُهَا الناس والحجارة وهم يرجمونه بالحجارة!

وفي ختام رحلته آوى ﷺ إلى حائط بستانٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة حَتَّى تَسكُنَ جِرَاحُهُ وتَهدَأَ أَنفَاسُهُ ويستريح من عناء الرحلة التي كانت الأَشَدَّ كُربةً عليه. وهناك انطلق لِسَانُهُ الشريف ليهتف بنداءٍ دافئٍ وبلسانٍ ذاكرٍ وبقلبٍ رحيمٍ. لم يَشكُ كُربَتَهُ لقريبٍ أو حبيبٍ، لم يَشكُ أَمرَهُ

إلَّا لله وَحدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، العالم بأحوال عباده والمطَّلع على مصاب رسوله ﷺ والقادر على أن يجعل الأَرضَ كُلَّهَا رمادًا تحت أقدامه. لكنه سبحانه هو الحليم الغفور الصبور، فكما أَلهمَ نَبِيَّهُ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَن يَهتِفَ في محنته ويَبُثَّ شكواه إلى رَبِّهِ، قال تعالى مخبرًا عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، فقد ألهم رسوله محمدًا ﷺ لِأَن يَلهَجَ بدعاءٍ لم يكن من قبيل التَّضَجُّرِ من تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقضائه، وإنَّما كان خطاب القلب المتوهِّج بِحُبِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والمتوقِّد باليقين والثقة في وعده. لقد أراد الحبيب محمَّد ﷺ أن يرسل إلى رَبِّهِ تقريرًا صادقًا لما آلَ إليه حاله وما وصلت إليه دعوته كي يُخَفِّفَ عن كاهله عِبءَ المسؤولية وضخامة التكليف وهو يتلقى أمر الثَّبَاتِ على الحَقِّ، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]، وقال أيضًا: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وإذا بقلبه الشريف يشرق بقبسٍ من نور الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينسيه آلامه وجراحه فيستحيل منارةً مشرقةً بنور ربه مَوطِنُهَا الأَرضُ ومَدَدُهَا في السَّماء! ولولا المحن والشَّدائد لما احتاج صاحب الدعوة إلى صبرٍ وثباتٍ ويقينٍ.

كانت شَكوَاهُ ﷺ دليلًا على ضعف بشريته، ولهذا فقد أراد ﷺ أن يستمدَّ من ربه قَبَسًا من معيته فانطلق لسانه الشريف بهذه الكلمات الصادقة الدافئة: «اللَّهُمَّ إِلَيكَ أَشكُو ضَعفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ. يَا أَرحَمَ الرَّاحِمِين، أَنتَ رَبُّ المستضعَفِينَ وَأَنتَ رَبِّي، إِلَى مَن تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أَم إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكتَهُ أَمرِي؟ إِن لَم يَكُن بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوسَعُ

لِي. أَعُوذُ بِنُورِ وَجهِكَ الذِي أَشرَقَت بِهِ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيهِ أَمرُ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ مِن أَن يَنزِلَ بِي غَضَبُكَ أَو يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ العُتبَى حتَّى تَرضَى وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[١].

[١] انظر: مجمع الزوائد للهيثمي ٣٥/٦، والسيرة النبوية لابن هشام ٤١٩/١، وتاريخ الطبري ٣٤٤/٢-٣٤٦، ودلائل النبوة للبيهقي ٤١٥/٢-٤١٧.

إرث ورثناه أم ورّثناه

إنَّهُ لَحِملٌ ثَقِيلٌ أن نعيش حياتنا بِكُلِّ أثقالها لِنُسَدِّدَ فاتورة غيرنا ولنجعل إرث غيرنا كدرًا في حياتنا وغُصَّةً في طريق سعادتنا، فالمسؤولية الذاتية من سُنَنِ الله ﷻ، قال تعالى:﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]، وهذا هو العدل في قوانين الله ﷻ، فلا نُحَمِّلُ النَّاسَ تَبِعَاتِ الماضي ولا نسمح لأحدٍ أن يُحَمِّلَنَا تبعات غيرنا إن لم يكن لنا سببٌ أو أثرٌ في حدوثها.

ومنذ أن أبصرت عيوننا معالم الحياة، وجدنا بين تلك المعالم صرحًا عظيمًا أخذ بالأبصار وأذهل العقول، ووجدنا أنَّ الصرح يكبر كُلَّمَا كبرنا ويتعاظم أمره عبر السنين والأجيال، إنَّهُ وَاقِعُ الأُمَّةِ المرير الذي يحوي مصائب الأُمَّةِ التي جرحت المشاعر بآلامها وأدمت القلوب بأحزانها وفواجعها، سواءٌ تلك المصائب التي خلت أو تلك التي استمرت إلى يومنا هذا. لقد عشنا منذ الصغر في عسعسة ليلٍ مُظلِمٍ، كُلَّمَا أوقدنا فيه شعلةً لتكون قبس أملٍ لشروق شمس العزة والكرامة وجدنا هجمةً شرسةً من غزاة الحياة ليطفؤوا هذا النُّور حتَّى لا تعيش الأُمَّةُ الإسلامية كرامتها ولا تنهض من كبوتها ولا تعيد لحاضرها ما كان من قِيَمٍ صادقةٍ في ماضيها المشرق. وبما أَنَّنَا وُجِدنَا في هذا الواقع، فلا مناص من أن نواجه الحقيقة ونَتَحَمَّلَ تبعات الواقع، ولذلك يلزمنا أن نعيش معاناة الأُمَّةِ قبل معاناتنا وأن نستشعر آلامها وأحزانها قبل أن نستشعر آلامنا وأحزاننا لكي نَعبُرَ من ذواتنا إلى ذاتية الأُمَّةِ بمجموعها ولكي نتجاوز معاني الكلمات إلى واقعها الأليم، فآلَامُ الأُمَّةِ لا توازيها آلَامُ واصفٍ أو ناظرٍ لأحداثها.

لقد أضحت عيون العالم مُتَّجِهَةً إلى الأمام بينما اتجهت عيوننا إلى الوراء، فتعثرت خطانا نحو تحقيق عالمية هذا الدين وواقعيته. وكيف يكون لنا ذلك ونحن نعلم أَنَّ الباري ﷻ قد صرفنا

عن الانشغال بملابسات الماضي وسلبياته فقال:﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وقال أيضًا:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وهل صراعنا الحالي هو مع من ينصب لنا ولديننا العداء أم هو مع النَّواصب الذين اندثروا في صفحات التاريخ؟ لا أعني بذلك تجاوز أخطاء الماضي دون عِبرةٍ ولكني أعني تجاوز زمن الماضي لِأَنَّنَا سَنُسأَلُ يوم القيامة عن زماننا لا عن زمانهم، قال ﷺ:«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبدٍ يومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسألَ عَن عُمُرِهِ فِيمَا أَفناهُ..»[١]، سَنُسأَلُ إِذًا عن أعمارنا لا عن أعمار غيرنا ولهذا علينا أَلَّا نعيش أحزان الماضي وآلامه فتستمر حياتنا كَأَنَّهَا بيت عَزَاءٍ لا نهاية لمأتمه!

لا يسعنا ونحن في مسيرة التجديد أن نُجَدِّدَ العزاء في كُلِّ عامٍ على مقتل الإمام الحسين[٢] رضي الله عنه في الوقت الذي يَتَجَدَّدُ العزاء في أَيَّامنا بين الحين والآخر بمقتل أبناء الأمة وأصحاب الحَقِّ وأتباع الرسالة. إِنَّ الوفاء للحسين رضي الله عنه هو أن نُجَدِّدَ القِيَمَ والمبادئَ التي دعا إليها وجاهد من أجلها، وهي القِيَمُ ذاتها التي أخذها عن جَدِّهِ الحبيب المصطفى ﷺ حتَّى أكرمه الله سبحانه وتعالى بالشهادة. إِنَّ الأُمَّةَ بحاجةٍ إلى تصحيح المسيرة أكثر من حاجتها إلى سرد السيرة كي لا تعيش

[١] أخرجه الترمذي في سننه، وقال عنه: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، ج٤/ص٦١٢.

[٢] الحسين الشهيد، سِبطُ رسول الله ﷺ وريحانته ومحبوبه. كان مقتله حادثًا مُؤلمًا ومُصابًا عظيمًا. تُوفي شهيدًا في كربلاء بالعراق قرب الكوفة سنة ٦١ هـ (انظر ترجمته وحادثة استشهاده في: تاريخ الطبري ٣٤٧/٥، وتاريخ بغداد للخطيب ١٤١/١، وتاريخ الإسلام للذهبي ٣٤٠/٢، والبداية والنِّهاية لابن كثير ١٤٩/٨، والأعلام للزركلي ٢٤٣/٢).

تاريخًا من الآلام والأحزان، فالفصل فيما مضى من خلافاتٍ بين الأُمَّةِ هو من تَخَصُّصِ الله ﷻ يوم القيامة، فعنده ستلتقي الخُصُومُ وسَيُنصَبُ الميزان ليحكم بعدله بين أهل الحَقِ وأهل الباطل، وسينتصر رَبُّنَا للمظلوم على الظالم، قال تعالى:﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. ولا ينبغي أن نجعل من أنفسنا قضاةً على ماضينا، بل يَجِبُ أن نكون دعاةً لحاضرنا وأن نترك أمر الفصل والحساب لصاحب الأمر، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

نحن بحاجةٍ أيضًا لأن نتحسس محنة الإسلام ومصاب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أكثر من حاجتنا لأن نعيش محنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله[١] التي انقضت ومضت. أَمَّا محنة الإسلام فقد بقيت تلوح في كل مشرقٍ ولا يقترب لها مغربٌ إِلَّا ما شاء الله ﷻ. ليست هذه الكلمات تغريدة كاتبٍ أو مُؤَلِّفٍ بل هي الحقيقة التي واجهتنا، وكم تمنيت أن تكون صورة الواقع رؤيا في منامٍ ينتهي باليقظة، لكنَّها واقعٌ نعيشه في أُمَّتِنَا ونعانيه في حياتنا. ومع ذلك، فلا يَسَعُنَا أن نغالي في التشاؤم أو أن نبالغ في التفاؤل، بل لا بُدَّ من إقرار الحقيقة وإن كانت مُرَّةً، فهذا قَدَرُنَا ونحن راضون بقضاء الله ﷻ وقدره، والطريق طويلٌ والمسيرة شَاقَّةٌ، وينبغي لأعمالنا أن تكون أبلغ من أقوالنا، قال تعالى:﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ

[١] هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل، إمام المحدثين ومن الأئمة الأعلام. وُلِدَ بمرور سنة (١٦٤ هـ) وحُمِلَ إلى بغداد وهو رضيع، وكان رأسًا في الزُّهد والورع والصبر على البلاء. امتُحِنَ وابتُلِيَ عندما دُعِيَ إلى القول بخلق القرآن أَيَّامَ المعتصم، فَضُرِبَ وسُجِنَ وبقي في الحبس إلى أن مات المعتصم، فلمَّا ولي الواثق منعه من الخروج من داره. وعندما جاء المتوكل أكرمه ورفع المحنة. وكتابه في الحديث هو «المسند» (انظر ترجمته بالتفصيل في:سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧-٣٥٤، الطبعة ١٢).

إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. لقد آذَتنَا غثائية الفكر وهلامية التفكير وسطحية النظرة وما أسعفتنا قدراتنا الفكرية ولا إمكاناتنا الحضارية في أن نواكب عجلة الحياة أو أن نزاحم صنَّاع الحضارة في سُلَّمِ الارتقاء نحو المعالي، فضاق علينا العالم بما رَحُبَ ثُمَّ ولينا مدبرين في ميدان الصراع!

هل التطرف فينا أم دخيل علينا؟

لقد أصبح من الضروري أن يكون لنا موقعٌ بارزٌ في جبهة الدفاع عن قضايا الإسلام ونُصرةِ الحَقِّ حيثما كان، خصوصًا إذا علمنا أنَّ أعداء هذا الدِّينِ يتربَّصون بنا الدوائر ويَعُدُّونَ علينا السقطات بل ويحملوننا وزر الأحداث وإن كُنَّا منها أبرياء براءة الذِّئب من دم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فغايتهم هي إلصاق التهم لا إبراء الذمم! وأيًّا كانت الحقيقة، فعلينا ألَّا نُسَاقَ إلى حربٍ داخليةٍ أرادها لنا الأعداء ليحققوا من ورائها أهدافهم في تمزيق جسد الأُمَّةِ الإسلامية وإضعاف شأنها بين الأمم. نحن لا نريد لأبناء الأُمَّةِ أن يعيشوا حالة اللاَّوعي فتطول غفلتهم ثُمَّ يجدون أنفسهم في نهاية المطاف سلاحًا بيد أعدائهم.

نحن أُمَّةٌ لها خصوصيتها ومميِّزَاتُهَا، ونحن أقدر من غيرنا على إيجاد العلاج الشافي للأمراض التي تطفو على جسدنا، فقد زَوَّدَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكُلِّ الأحكام والتشريعات الكفيلة بتصحيح الخطأ. وعند وقوع التنازع لا يسعنا تحكيم غيرنا فبين أيدينا كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسُنَّةُ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]؛ وهكذا جعل رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَدَّ االأمر إلى أصله الدِّيني شرطًا في صحَّة الإيمان، بل ونفى -في موطنٍ آخر- الإيمان عَمَّن لا يُحَكِّمُ شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

ليس من الحكمة أن ننجر وراء كل ناعقٍ ومُضَلِّلٍ أو خلف كل من يريد أن يفسد علينا ديننا وآخرتنا، فسعادة الآخرة غاية مُرَادِنَا ونحن لا نريد أن نعيش سعادة دنيانا بشقاء آخرتنا، بل نريد أن نعيش حياتنا -وإن قست- بِعِزَّةٍ وكرامةٍ من أجل صلاح آخرتنا. والذي يفسد علينا آخرتنا فهو يسلب مِنَّا حياتنا وإن منحنا ظاهر نعيمها؛ فنحن ودنيانا قُربَةٌ لله سبحانه وتعالى ومَطِيَّةٌ لطاعته.

لقد حاول أهل الكيد والمكر أن يُدخِلُوا الوهم في عقول المسلمين لإقناعهم بِعَدُوٍّ قادمٍ من رَحِمِ الأُمَّةِ -لا يدركون غوره ولا يضبطون أصله ولا منشأه- حتَّى أصبح كثيرٌ منهم يتساءلون وهم في حيرةٍ من أمرهم: هل التَّطَرُّفُ مشكلةٌ إسلاميةٌ أصيلةٌ أم هي دسيسةٌ حاكها أعداء الإسلام لتشويه صورته ولِصَدِّ النَّاس عنه؟

إِنَّ الإسلامَ بريءٌ من التَّطَرُّفِ والغُلُوِّ لِأَنَّهُ دين وسطيةٍ واعتدالٍ، لكنَّ التَّطَرُّفَ كغيره من الآفات السلبية قد يظهر في ممارسات بعض المسلمين بسبب خروجهم عن استقامة الطريق ومجافاتهم لسمات وخصائص الشريعة الإسلامية السمحة. ولا يَسَعُنَا في مواجهتنا لهذه الظاهرة أن نَنجَرَّ إلى ميادين الصراعات الفكرية والسياسية أو أن نجعل من قضايا أُمَّتِنَا المصيرية سِلعَةً رخيصةً تُبَاعُ في سوق النخَّاسين!

نحن لا نَشُكُّ في أنَّ الإسلام -في أصله ومنهجه وغاياته- هو دين رحمةٍ ووسطيةٍ وتيسيرٍ، وهذه السمات والخصائص هي من أَهَمِّ ما دعت إليه ورسخته رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ فآثار الرحمة في الإسلام ليست قاصرةً على المسلمين فحسب، بل هي لِكُلِّ العالمين، قال الحَقُّ سبحانه وتعالى:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ولترسيخ هذه السِّمة الجليلة في القلوب

والأذهان، فقد افتُتِحَت كُلُّ سُوَرِ القرآن الكريم ما عدا سورة التوبة بقول:﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهذه هي البسملة التي تَجمَعُ بين اسمين عظيمين من أسماء الله ﷻ الحسنى، وكلا الاسمين مُشتَقٌّ من كلمة الرحمة، وفي ذلك دلالةٌ بالغةٌ على أهمية هذه السِّمة العظيمة وعلى مركزيتها في الإسلام. وكما هو معلومٌ، فإنَّ الرحمة صفةٌ كتبها الله ﷻ على نفسه، قال تعالى:﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وهي خُلُقٌ رَفِيعٌ يتفاضل به النَّاس. أَمَّا أجر هذا الخُلُقِ فَعَظِيمٌ عند الله ﷻ، يقول النبي ﷺ:«الرَّاحِمُونَ يَرحَمُهُم الرَّحمَنُ، ارحَمُوا مَن فِي الأَرضِ يَرحَمُكُم مَن فِي السَّمَاءِ»[١].

إِنَّ الوسطية من سمات ديننا الحنيف، وقد خَصَّ الله ﷻ بها الأُمَّةَ الإسلامية وبسببها جعلها شاهدةً على غيرها من الأمم، قال تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]. إِنَّ شريعة الإسلام مَنهجٌ وسطٌ في التصور والاعتقاد، وفي الأخلاق والسُّلوك، وفي العبادة والنُّسُك. وفي هذه الوسطية تَحقِيقٌ لمبدأ التوازن الذي قامت عليه سُنَّةُ الله ﷻ في خلقه وجُبِلَت عليه الفطرة السليمة التي فطر الله ﷻ الناس عليها، وهي أيضًا تنافي كُلَّ مفاهيم الشَّطَطِ والغُلُوِّ والتفريط، وفيها دعوةٌ أصيلةٌ إلى عمارة الأرض وفقًا لمراد الله ﷻ وتَبَعًا لمرضاته. فنحن مستخلفون في الأرض ولا يَسَعُنَا إِلَّا أن نمضي وفق منهج من استخلفنا بِتَوَسُّطٍ واعتدالٍ بعيدًا عن أَيِّ انحرافٍ أو تَطَرُّفٍ لِأَنَّ منهج الله ﷻ قد وُضِعَ لخير العباد.

---

[١] رواه الترمذي في السنن ج٤/ص٣٢٣، وقال عنه: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وترسيخًا لسمات الرحمة والوسطية، فقد جاء الإسلام بمنهج التيسير ورفع الحرج، وَخَصَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شريعته بهذا المنهج فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فكان رَفعُ الحرج عن الناس مقصدًا عظيمًا من مقاصد الشريعة، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨]. أَمَّا التَّطَرُّفُ فلا يختلف عاقلان على أنه يجلب المشقة والحرج.

يسروا ولا تعسروا

لقد يَسَّرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الناس في أمر الدين بما فتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم من صدق الاتباع. فَإِيَّاكَ أخي الكريم أن تحمل الناس على ما أنت عليه، فلا يكلف الله نفسًا إلَّا وسعها. وقد يكون ما وسعك من أمرٍ لا يتسع لكل الناس فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له. واحذر أن تظنَّ مطلق الحَقِّ فيما ترى، فلعلَّ غيرك يرى خلاف ماترى وقد يكون أظهر في الحَقِّ منك، وإن ضاق أمر الدِّينِ عندك فقد يَتَّسِعُ عند غيرك، فلا تحجر على النَّاس اجتهادهم. وإِيَّاكَ أن تجعل من نفسك زرقاء اليمامة فيما ترى، وكُن من أهل البصيرة قبل أن تكون من أهل البصر والنظر، واعلم بأنَّ أقرب الناس إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هم أرحمهم بخلقه، وإذا رأيت يومًا بأنَّك من أهل النظر والاجتهاد فقد ظلمت نفسك وأوقعتها في شِرَاكِ جهلك، وَرَحِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبدًا عرف قدر نفسه.

لا ينبغي على من يعمل في الحقل الإسلامي ترك الأخذ بما يَسَّرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده من الأحكام بسبب النظرة القاصرة عن إدراك المصالح، فقد جاءت الشريعة الإسلامية للتيسير والتخفيف، بل إِنَّ مبدأ التيسير هو من محبوبات الحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويَتَّفِقُ مع مراده، قال تعالى:﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولذلك فَإِنَّهُ لا ينبغي التعسير على العباد، بل يجب الأخذ بالتيسير ما أمكن وبالقدر الذي تتسع له الشريعة ويُحَقِّقُ المصلحة، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«إِنَّ الدِّينَ يُسرٌ وَلَن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبشِرُوا»[١]، وقال أيضًا:«إِنَّ الله

[١] صحيح البخاري ج١/ص ٢٣.

يُحِبُّ أَن تُؤتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَن تُؤتَى عَزَائِمُهُ»[١]. وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:«لَا تَعِب على من صام في السفر ولا على من أفطر، خذ بأيسرهما عليك». وعن تميمٍ الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:«خذ من دينك لنفسك ومن نفسك لدينك حتَّى يستقيم بك الأمر على عبادةٍ تُطِيقُهَا»[٢].

وكان التيسير على العباد من صميم هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:«مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَينَ أَمرَينِ أَحَدُهُمَا أَيسَرُ مِنَ الآخَرِ إِلَّا اختَارَ أَيسَرَهُمَا مَا لم يَكُن إِثمًا، فَإِن كَانَ إِثمًا كَانَ أَبعَدَ النَّاسِ منه»[٣]؛ فلا حرج في الدِّين على النَّاس، وإنَّمَا يَقَعُ الحرج بسبب سوء تطبيق الدِّين!

وتأكيدًا لمفهوم التيسير ورفع الحرج في الدِّينِ قال الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«إِنَّمَا بُعِثتُم مُيَسِّرِينَ ولم تُبعَثُوا مُعَسِّرِين»[٤]، وقال أيضًا:«يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا»[٥]، وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ:«لاينبغي لمن أفتى الناس أن يحملهم على مذهبه أو يُشَدِّدَ عليهم»[٦]، لأنه قد يجلب فيما ذهب إليه التعسير والمشقة على النَّاس.

---

[١] أخرجه البزار والطبراني وابن حبان (انظر: الدر المنثور ج١/ص٤٦٦)، وفي روايةٍ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَن تُؤتَى رُخَصُهُ كَمَا لَا يُحِبُّ أَن تُؤتَى مَعصِيَتُهُ»، المصدر السابق.

[٢] الدر المنثور ج١/ص٤٦٦.

[٣] صحيح البخاري ج٦/ص٢٤٩١، وصحيح مسلم ج٤/ص١٨١٣.

[٤] صحيح البخاري ج١/ص٨٩.

[٥] صحيح البخاري ج١/ص٣٨، ومسلم ج٣/ص١٣٥٩.

[٦] الآداب الشرعية ج٢/ص٦٢.

ويبدو أَنَّ هناك من الناس من لديه رغبةٌ جامحةٌ في توسيع مساحة المحرمات والتضييق على النَّاس ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولقد أسرف بعض المتشددين في القول بالتحريم ظنًّا منهم أنَّ ذلك من باب الأخذ بالأحوط والأحفظ للتدين. إنَّ القضية مرتبطةٌ في الأساس بمبدأ الحُكمِ لا بنوع الحكم، وقد نهى الله ﷻ عن القول بالتحريم أو التحليل إذا لم يكن للمرء عِلمٌ بِالحُكمِ أو نصيبٌ كافٍ من الاجتهاد[١]، وفي ذلك يقول الحَقُّ ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]. ولذلك فقد ذهب بعض العلماء إلى التحذير من إطلاق حُكمِ التحريم إِلَّا ما كان الجزم فيه حُكمًا تشريعيًّا، أَمَّا ما كان محل نظرٍ واجتهادٍ فلا يجزمون بتحريمه، وقد يضعونه في دائرة الكراهة أو التَّركِ عُمومًا.

ومع أنَّ الأخذ بالأيسر هو من سماحة ديننا الحنيف، إِلَّا أَنَّهُ لا ينبغي أن يستغل هذا الجانب عند ضعاف النفوس فيتلاعبون بالأحكام دون قيودٍ تحمي شريعة الله ﷻ. فلا بُدَّ إذًا من أن يحاط التكليف بسياج الخشية حتَّى يسلم القصد وتصدق النية. ولا بُدَّ أيضًا من أن يحاط الأداء بسياج الرحمة حتَّى يداوم العبد على طاعة ربه من غير كللٍ أو مللٍ.

---

[١] انظر: صفة الفتوى ج١/ص٦.

خطورة تغليب النزعة الانتمائية

لا يجب أن يكون الولاء المطلق إلَّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يَصِحُّ أن يكون الانتماء الحقيقي إلَّا لدينه الحنيف ولمن يُمَثِّلُهُ بصدقٍ من أهل الإيمان. ولا يَسَعُنَا أن نصرف ولاءنا وانتماءنا لغير ذلك سواءٌ تَعَلَّقَ الأمر بالأفراد أو الجماعات أو الطوائف أو الأحزاب، فالنزعة الانتمائية غالبًا ما تجعل أصحابها في موطن الشطط في الحُكمِ على غيرهم أو على من يخالفهم في الرأي والاجتهاد فلا يرون النَّجاة إلَّا لجماعتهم، ولا يُفَرِّقُونَ في ذلك بين الاختلاف في الحَقِّ والاختلاف على الحَقِّ، بل ويحكمون على غيرهم بالشَّقاء وعلى أنفسهم بالنَّجاة باعتبارهم -كما يعتقدون- الفرقة النَّاجية التي أخبر عنها النَّبي ﷺ[١].

وقد يحاول من يحمل هذه النزعة الحُكمَ على الجماعات الأخرى بالضلال أو بالكفر أحيانًا، حتَّى وإن كانت في الواقع أقرب إلى الحَقِّ من جماعته، وقد لا تكون جماعته على حَقٍّ وإنَّما وسمها بِالحَقِّ فقط لكونه عنصرًا منها، وهذا الأمر يحدث خللًا كبيرًا في أداء الأُمَّةِ الإسلامية ويُبعِدُ الجماعات الإسلامية المتناحرة عن أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولقد حَذَّرَنَا الباري من الفرقة في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

[١] انظر الحديث في سنن ابن ماجه ٢/١٣٢٢، وسنن أبي داود ٤/١٩٨.

لقد نهى النبي ﷺ عن الفرقة والتباغض فقال:«وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[١]. ومع ذلك فَإِنَّنا نجد أنَّ النزعة الانتمائية لدى المتأثرين ببعض المدارس الفكرية والفقهية قد تعاظمت وازدادت حِدَّتُها مع مرور الزمن حتى اضمحلَّت الغاية وضعف الهدف، فانتقلنا من أُمَّةِ ولاءٍ إلى أُمَّةِ عداءٍ ومن أتباعٍ لِلحَقِّ إلى أتباعٍ للخلق. وقد يبلغ تبجيل بعض المريدين لمشايخهم إلى حد التقديس ومن ثَمَّ الشعور بعصمتهم من الخطأ، فلا مجال عندها للنقاش فيما يقوله بعض المشايخ عند أتباعهم، فتضيع بذلك هيبة الحَقِّ ويغيب الحوار الهادئ الموصل إلى الصواب في الرأي والاجتهاد. لا بُدَّ إِذًا من تجاوز حالة الشعور بقدسية الأفراد تحقيقًا لشمولية المقاصد والمصالح؛ ومع أنَّ تقليد أهل الحَقِّ مطلوبٌ لأنهم أسوتنا في الحياة بعد رسول الله ﷺ، لكنَّ الذي نخشاه هو التقليد الأعمى الذي يُضعِفُ الحَقَّ.

لقد حاول بعض المقلدين أن يتصدروا واجهة الدعوة الإسلامية وأرادوا أن يحملوا الأُمَّةَ على ما يرون متأثرين في ذلك بمدارس فكريةٍ ومذهبيةٍ معينةٍ، بل ومُقَدِّسِينَ لرموز هذه المدارس والمذاهب، فنشأ الصراع والخلاف في أوساط المسلمين في الوقت الذي غابت فيه عن الأذهان حقيقةٌ مفادها أنَّ أسباب خلاف العلماء الذين قَلَّدُوهُم لا تستلزم أن تكون نفسها هي أسباب اختلافنا في زماننا هذا. لقد كان عامل التقوى ومخافة الله سبحانه وتعالى فاعلاً كبيرًا ومُؤَثِّرًا في حياة السَّلَفِ وفي تعاملاتهم، وكان حرصهم على وحدة الصف وتماسك أجزاء الأُمَّةِ شديدًا، ولهذا فقد عُرِفُوا

---

[١] صحيح البخاري ج٥/ص٢٢٥٣، وصحيح مسلم ج٤/ص١٩٨٥.

بالموضوعية والتَّجَرُّدِ وصدق اللهجة حتَّى مع مخالفيهم. أَمَّا عند الخلف، فقد برزت نزعة التعصب وتوسعت دَائِرَتُهَا حتَّى تَعَدَّى الأمر إلى النيل من علماء سلفنا الذين أسدوا ذلك العطاء الهائل.

وهناك من النَّاس من تحامل على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وبسبب طيشهم في الحُكمِ عليه فقد حَرَّمُوا على أنفسهم التعامل مع كل ما يَتَّصِلُ به، فكم كانت خسارتهم الفكرية والتربوية؟ أما كان بإمكانهم أن يستفيدوا مَثَلًا من كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» خصوصًا وأنَّ هذا الكتاب قد تَضَمَّنَ كثيرًا من القيم والمسائل المتنوعة التي تَهُمُّ المسلمين حتَّى في أَيَّامنا هذه؟ ألم يُبَيِّن هذا الكتاب الأدلة من الكتاب والسُّنَّةِ والإجماع على ضرورة مخالفة أهل الكفر والضَّلال؟ ألم يُفَصِّل في بعض العادات والبدع والضَّلالات التي جاء النهي عن التَّشَبُّهِ بغير المسلمين فيها أو عن متابعتهم في شيءٍ منها؟ ألسنا بحاجةٍ إلى مثل هذا الكتاب لرسم معالم وأبعاد الشَّخصية الإسلامية الثَّابتة ونحن نواجه موجات التَّبعية والذَّوبان والانحراف؟ إِنَّنَا فعلًا بحاجةٍ إلى الاستفادة من كُلِّ ذلك ومن بقية تراثه الهائل المتنوع.. ولو كانت الموضوعية تحكم حياتنا الفكرية لما وقع هؤلاء العلماء الأجلاء ضحية جهلنا وظلمنا في الحُكمِ عليهم.

ولقد تحامل آخرون على الإمام الغزالي رحمه الله وطعنوا في مؤلفاته وبالغوا في الانتقاص من كتابه «إحياء علوم الدين» وهو من جملة كتبه التي لقيت عنايةً كبيرةً لدى أهل العلم لأنه جمع فيه جوانب كثيرةً في الأخلاق والسلوك. نحن لا ننكر اختلاف أهل العلم حول هذا الكتاب، ولكننا ننكر الغُلُوَّ والابتعاد عن العدل في الحكم عليه؛ فهناك قومٌ غالوا في مدح الكتاب حتَّى قالوا:«من لم يقرأ الإِحيَاءَ فليس مِنَ الأَحيَاءِ»!! وهناك قومٌ آخرون ذَمُّوا الكتاب حتى أفتوا بحرقه

ومنعه وقالوا:«من قَرَأَ الإِحيَاءَ فليس مِنَ الأَحيَاءِ»!! ولَعَلَّ سبب الاختلاف حول هذا الكتاب يرجع إلى تَضَمُّنِهِ لبعض الأحاديث الضَّعيفة أو الموضوعة وبعض الإشكالات في أمور العقيدة خَاصَّةً في حديث الإمام الغزالي عن الصُّوفية والتَّصَوُّف. ولقد أنصف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا الكتاب حينما قال:«والإِحيَاءُ فيه فوائد كثيرةٌ لكن فيه بعض المواد المذمومة»، ثُمَّ ذكر أَنَّ الذي فيه مِمَّا يُوَافِقُ الكتاب والسُّنَّةَ أكثر من خلافه، ولهذا اختلف اجتهاد النَّاس وتنازعهم فيه[١]. وعَلَّقَ أيضًا الإمام الذهبي رحمه الله على كتاب الإحياء فقال:«أَمَّا الإِحيَاءُ ففيه من الأحاديث الباطلة جُملَةٌ، وفيه خيرٌ كثيرٌ لولا ما فيه من آدَابٍ ورسومٍ وزهدٍ من طرائق الحكماء ومنحرفي الصُّوفية، نسأل الله علمًا نافعًا»[٢].

أما كان بإمكاننا مَثَلًا أن نستفيد من هذا الكتاب بعد التخلي عن الروايات الضعيفة وعن الآراء التي اختلف فيها الباحثون في أمور العقائد؟ ولا ضرر في أن يشار إلى ذلك بمنهجيةٍ علميةٍ تُلبِسُنَا ثوب الموضوعية من غير قدحٍ أو تجريحٍ. علينا أَلَّا نتناسى كم في الإحياء من القيم والمعاني التربوية التي نحتاجها في بناء الشخصية الإسلامية وتحسين سلوكها التربوي وتقويم طريق عبادتها. ولذلك يلزمنا حسن الأدب مع علمائنا الأجلاء وحمل حصيلة عطائهم محملًا حسنًا حتى نكون خير خلفٍ لخير سلفٍ، فالعلاقة بين الخلف والسلف قد حَدَّدَ معالمها الحَقُّ سبحانه في قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

[١] انظر: مجموع الفتاوى ٥٥١/١٠.

[٢] انظر: سير أعلام النبلاء ٣٣٩/١٩.

ولا بُدَّ من التنبيه في هذا الموطن إلى ما وقع فيه بعض طلاب العلم من انتقاصٍ لبعض العلماء الأجلاء لما وقفوا عليه من أقوال الأقران فيهم، فتأثروا بكلام بعضهم على بعضٍ وانطلقوا يَبُثُّونَ الأحكام على جماعةٍ من العلماء بسبب الجهل بأحوالهم والتَّأَثُّرِ بأقوال أقرانهم فيهم، فلهؤلاء ما يقولون ولنا حسن الظَّن بعلمائنا من غير أن نكون طرفًا في خلافاتهم أو نزاعاتهم. يقول عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:«خذوا العلم حيث وجدتم، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعضٍ»[١].

وقد قَعَّدَ السلف لذلك قاعدةً عظيمةً مفادها أنَّ **كَلَامَ الأَقْرَانِ يُطوَى وَلَا يُروَى**، يقول الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ:«كلام الأقران بعضهم في بعضٍ لا يُعبَأُ به لا سيما إذا لاح لك أَنَّهُ لعداوةٍ أو لمذهبٍ أو لحسدٍ، وما ينجو منه إلَّا من عصمه الله وما علمت أَنَّ عصرًا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين»[٢].

---

[١] جامع بيان العلم وفضله ج٢/ص١٥١.

[٢] انظر: لسان الميزان ج١/ص٢٠١.

بين الفرد والجماعة

الجماعة أن تكون على الحَقِّ ولو كنت وحدك!

إِنَّ الحديث في دائرة المصالح إذا لم يكن منضبطًا قد يتحول إلى شبكةٍ يصطاد بها الشَّيطان! وقد تَتَحَوَّلُ مصلحة الدعوة الموهومة عند هؤلاء الذين يظنون أنفسهم على الحَقِّ إلى صنمٍ يَتَعَبَّدُ به الشَّيطان الدعاة من حيث يَعِزُّ عليه أن يأتيهم من جهة مصالحهم الخاصَّة. فنحن في زمنٍ غلبت فيه مصالحنا على دعوتنا وطغت فيه شهواتنا على هويتنا!!

وسيبقى الحَقُّ أكبر من حامله وأعظم من جماعته، والعبرة ليست في جماعة الحَقِّ وإِنَّمَا في منظومته التي صنع الله ﷻ منها الجماعة، فلا قدسية لفردٍ ولا لمجموعةٍ وليس لأحدٍ عُلُوُّ منزلةٍ على حساب كلمة الحق. وكثيرٌ مِمَّن يعتقدون أنفسهم على الحَقِّ تَوَهُّمًا تجدهم ينازعون ويخاصمون فيما يرونه حقًّا رغم بطلانه، ولا يتركون لأنفسهم فرصةً للمراجعة ومن ثَمَّ الرجوع إلى الحق، فيغلقون بذلك عليهم نصيحة الناصحين وتوجيه المخلصين.

وفي المقابل، فإذا انجلت عنك أخي الكريم غمامة الجهل وعرفت لِلحَقِّ قدرًا فلا تحد عنه لا سيما إذا كانت سقياك من مورد سلفنا الصَّالح وكان نهجك من نهجهم، فعن سعيد بن عامر الجمحي رضي الله عنه أَنَّهُ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:«إني أريد أن أوصيك يا عمر، قال: أجل فأوصني، قال: أوصيك أن تخشى الله في النَّاس ولا تخشى النَّاس في الله، ولا يختلف قولك وفعلك فإنَّ خير القول ما صَدَّقَهُ الفعل، ولا تقض في أمرٍ واحدٍ بقضاءين فيختلف عليك أمرك وتزيغ عن الحَقِّ»[١]. ويقول الإمام الأوزاعي رحمه الله:«عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإيَّاكَ وآراء

[١] كنز العمال ج١٢/ص٢٦٠، وتاريخ مدينة دمشق ج٢١/ص١٥٩.

الرجال وإن زخرفوها لك بالقول، فإنَّ الأمر ينجلي وأنت على طريقٍ مستقيمٍ»[١]. وإذا اختلفت مع الجماعة وأنت على الحَقِّ فأنت الجماعة، فالعبرة بمن يُمَثِّلُ الحَقَّ لا بكثرة مُدَّعيه، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الجماعة ما وافق الحَقَّ، ولو كنت وحدك»[٢].

ولنا عبرةٌ في سجن يوسف عليه السلام، فلا أستبعد أنَّ طول سجنه بزيادة السنين التي مكثها فيه قد كان ثمن الحَقِّ الذي أَخَلَّ بكماله عندما طلب من السَّاقي أن يذكره عند ربه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، فأبقاه الله سبحانه وتعالى في غيابات السجن ليستكمل طريق الوصول إلى أعلى مراتب الحَقِّ الذي أراده الله سبحانه وتعالى منه قبل خروجه، فانتقل يوسف عليه السلام بعدها من التماس النَّجاة من ملك مصر ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ إلى التعالي على ملكه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، وإلى التسامي بالحَقِّ فوق الهوى ومصلحة الذات. ولقد ظهر أثر ذلك جليًّا في شخصيته نتيجة استغراقه سنين التربية الربانية في السجن.

ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يخرج يوسف من السجن ويبقى الحَقُّ سجينًا لأنَّ الحَقَّ عند الله سبحانه وتعالى أغلى من العباد ولو كانوا من أنبيائه؛ ولقد أذن الله سبحانه وتعالى بخروج الحَقِّ وجلائه، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]. عندها فقط خرج يوسف عليه السلام حتَّى يكون الحَقُّ متبوعًا وليس تابعًا، والحَقُّ أَحَقُّ أن يُتَّبع.

---

[١] سنن الترمذي ٤/٤٦٧، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٢٠، ومشكاة المصابيح ١/٦١.

[٢] المصدر السابق.

وللحفاظ على عُلُوِّ كلمة الحَقِّ وتعظيم أمرها، فقد أخبر النَّبي ﷺ أَنَّ الذي يصدع بها ويُضَحِّي من أجلها يحصل على أجر شهيدٍ، بل على أجرٍ كأجر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه، قال ﷺ:«سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمزَةُ بنُ عَبدِ المطَّلِبِ وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[١]. إِنَّ مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي سِنَامُ الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وبها حمى رَبُّنَا الحَقَّ في دينه، وهي مهمة الأنبياء وأتباعهم.

وإذا كُنَّا من أصحاب الحَقِّ فعلينا أن نحترم من يمثله من النَّاس وأن نعرف الرجال بِالحَقِّ وليس بخلافه، ولقد سُئِلَ أمير المؤمنين علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه من أحد أصحابه:«أترانا نعتقد أَنَّكَ على الحَقِّ وأَنَّ طلحة والزُّبير على الباطل؟»، وفي السؤال إشارةٌ إلى الفتنة التي وقعت بين الصحابة في ذلك الوقت، فأجابه الخليفة علي رضي الله عنه بقوله:«اعرف الرِّجَالَ بِالحَقِّ ولا تَعرِف الحَقَّ بِالرِّجَالِ. اعرف الحَقَّ تعرف أَهلَهُ»[٢]، ويقول معاذ بن جبل رضي الله عنه:«اقبلوا الحَقَّ من كُلِّ من جاء به وإن كان كافرًا أو فاجرًا واحذروا زيغة الحكيم، قالوا :وكيف نعلم أَنَّ الكافر يقول الحَقَّ؟ قال: إِنَّ على الحَقِّ لَنُورًا»[٣]. ويقول أبو حامدٍ الغزالي رحمه الله:«من عَرَفَ الحَقَّ بالرجال حار في متاهات الضَّلال، اعرف الحَقَّ تَعرِف أَهلَهُ»[٤]. ويضع الإمام الزرعي رحمه الله قاعدةً مُهِمَّةً في الحُكمِ فيقول:«لسنا ممن يعرض الحَقَّ على آراء الخلق فما وافقه منها قَبِلَهُ وما خالفه رَدَّهُ، وإِنَّما نحن ممن

[١] المستدرك ج٣/ص٢١٥، والمعجم الأوسط ج٤/ص٢٣٨، وكنز العمال ج١١/ص٣١٠.

[٢] قواعد التحديث ج١/ص٢٩١، والفتاوى الفقهية الكبرى ج٢/ص٢١٦.

[٣] أقاويل الثقات ج١/ص٢٣٨، وطبقات الشافعية الكبرى ج٩/ص٨٤، والتراتيب الإدارية ج٢/ص٣٤٩.

[٤] إحياء علوم الدين ج١/ص٢٣.

يعرض آراء الرجال وأقوالهم على الدليل، فما وافقه منها اعتَدَّ به وقبله وما خالفه خالفه»[١].

وقيل إِنَّ الفيلسوف أرسطو قال عندما خالف أستاذه أفلاطون:«تَخَاصَمَ الحَقُّ وأفلاطون وكلاهما صديقٌ لي، والحَقُّ أَصدَقُ من أفلاطون»[٢]. وينبغي إذًا على أهل الحَقِّ أَلَّا يستوحشوا طريقه لقلة سالكيه، فَالحَقُّ كبيرٌ بذاته لا بعدد أتباعه، يقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ الله:«عليك بطريق الهدى وإن قَلَّ السالكون، واجتنب طريق الرَّدَى وإن كَثُرَ الهالكون»[٣].

وفي ظِلِّ الشُّحِ المتَّبع والهوى المطاع وإعجاب كُلِّ ذي رأيٍ برأيه، فَإِنَّ صاحب الحَقِّ يشعر بالوحشة والغربة! لكن ليعلم أهل الحَقِّ -وإن كانوا هم الأَقَلَّ عددًا- أَنَّهُم الأعظم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدرًا وأجرًا، وهم الأنفع لِلأُمَّةِ في دينها ودنياها. وما ضَرَّ الخليفة أبا بكرٍ رَضِيَ الله عَنْه يوم أن خالف الأُمَّةَ في حرب الردة، وما ضَرَّ الإمام أحمد رَحِمَهُ الله يوم أن خالف الأُمَّةَ في فتنة خلق القرآن، ولولا أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تعالى قد سَخَّرَ أبا بكرٍ يوم الردة والإمام أحمد يوم المحنة لَقُصِمَت أُمَّةُ الإسلام من ظهرها!

[١] الفروسية، لمحمد بن عبد الرحمن الزرعي ج١/ص٢٢٨.

[٢] قواعد التحديث ج١/ص٢٩١، وإيقاظ الهمم ج١/ص٨٩.

[٣] الاعتصام للشاطبي ١/٨٣، والمجموع للنووي ٨/٢٧٥.

يقول ابن القيم رحمه الله:«اعلم أَنَّ الإِجمَاعَ والحُجَّةَ والسَّوَادَ الأَعظَمَ هو العالم صَاحِبُ الحَقِّ وَإِن كَانَ وَحدَهُ وَإِن خَالَفَهُ أَهلُ الأرض. فإذا ظَفَرتَ بِرَجُلٍ واحدٍ من أولي العِلمِ طالبٍ للدليل مُحكِّمٍ لَهُ مُتَّبِعٍ لِلحَقِّ حَيثُ كَانَ وأَينَ كَانَ وَمَعَ مَن كَانَ زالت الوَحشَةُ وحصلت الأُلفَةُ»[١].

وقد يرى بعض الجهلة في انفراد أهل الحَقِّ عن عموم غيرهم أَنَّهُ خُرُوجٌ عن الجماعة، وقد يحكمون عليه بالشذوذ في ما ذهب إليه من الحق، فليعلموا بِأَنَّ الذي يَشِذُّ هو من خالف الحَقَّ ولو كان هذا المخالف أُمَّةً من النَّاس، وأَنَّ الجماعة هي من وافق الحَقَّ ولو كان فردًا، فالعبرة ليست بكثرة الخلق وإِنَّما بقوة الحَقِّ، وقد قال الله سبحانه وتعالى لحبيبه ﷺ:﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ويكون ذلك حتَّى على مستوى الجماعة المؤمنة، فقد خالف النبي ﷺ أصحابه في صلح الحديبية ولو أطاعهم يومها لما تَحَقَّقَ الفتح، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

قال نعيم بن حماد رحمه الله:«إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك فَإِنَّكَ أنت الجماعة حينئذٍ»[٢]. فأين أنتم يا أصحاب الحَقِّ؟ عليكم أَلَّا تَخشَوا في الحَقِّ لومة لائمٍ! ستواجهون طريقًا وعرًا مزدحمًا بالأشواك وسَتُحَارَبُون مِمَّن يُرَوِّجُونَ لحقهم المزعوم، وقد راجت سِلعَتُهُم في سوق النَّخاسين وانتشرت أحكامهم وأفكارهم في مجتمعٍ تزاحمت فيه أقدام الرويبضة وأتباعهم من الجهلة الذين باتوا كقطيع الغنم، تغدو وتروح خلف راعٍ واحدٍ يسوق من شَذَّ عنه بصوته أو بعصاه! وكما قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه:«أنتم في زمانٍ يَقُودُ فيه الحَقُّ

[١] إعلام الموقعين ٣/٣٩.

[٢] تهذيب الكمال ج٢٢/ص٢٦٥، تاريخ مدينة دمشق ج٤٦/ص٤٠٩.

الهوى، وسيأتي زمانٌ يَقُودُ فيه الهوى الحَقَّ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان»[١]. وها نحن في ذلك الزمان المشوَّه الذي علا فيه شأن الجهلة وانخفض فيه صوت العلماء الصادقين. وحتَّى على مستوى القيادات الإسلامية، فقد سُيِّسَ العمل الإسلامي قبل تأسيس العاملين فيه وغلبت شراهة الوصول إلى موقعٍ في الدولة على ضرورة تثبيت موقعنا في الدعوة! فمن باب الأدب مع الله ﷻ أن نقوم بتأسيس أنفسنا قبل تسييسها؛ فالأول هو الغاية والثاني هو الوسيلة، ولا ينبغي أن نغلب الوسائل على الغايات ولا النَّوافل على الفرائض!

وأخيرًا أقول: إنَّ نصرة أصحاب الحَقِّ ناموسٌ كتبه الله ﷻ لعباده المخلصين، قال تعالى:﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]؛ فَتَاجُ الحَقِّ بين الخلق هم الأنبياء والرسل، وكرامة الحَقِّ موصولةٌ بأتباعهم ولا تثريب على أهل الحَقِّ مهما تقلبت الأحوال، قال تعالى:﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

إنَّ الله ﷻ سيدافع عن المؤمنين وسيضع عنهم وزرهم الذي أنقض ظهرهم، قال ابن القَيِّم رحمه الله:«فإذا أصبح العبد وأمسى وليس هَمُّهُ إِلَّا الله وحده تَحَمَّلَ الله حوائجه كلها وحمل عنه كُلَّ ما أَهَمَّهُ، وفَرَّغَ قلبه لمحبته ولسانه لذكره وجوارحه لطاعته. وإذا أصبح وأمسى والدنيا هَمُّهُ، حَمَّلَهُ

[١] تفسير القرطبي ج١٩/ص٢٠٨.

الله همومها وغمومها وأنكادها ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق ولسانه عن ذكره بذكرهم وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره»[١].

[١] الفوائد للزرعي ج١/ص٨٤.

وقفة مع أحوال الأمة

ليست العبرة بزوال الظالم ولكنَّ العبرة بصدق المظلوم، وليس مطلب أبناء الأُمَّةِ هو تغيير وجوه الظلمة فحسب، بل تغيير حال المظلومين؛ نحن لا نريد استبدال ظالمٍ بمظلومٍ، وإنَّمَا استبدال ظالمٍ بعادلٍ. ولقد استبدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فرعون (الظالم) ببني إسرائيل (المظلومين)، فكيف كانت المسيرة بعد ذلك؟ ارجعوا إلى التاريخ وانظروا في نتائج الأحداث!!

وفي الوقت الذي نرفض فيه ظلم الظالمين، فإنه يلزمنا أيضًا أن نرفض ذُلَّ المظلومين، فما ساد فرعون إِلَّا باستخفافه لقومه، قال تعالى:﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، لقد أهانوا أنفسهم بفسقهم فأذلَّهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وستبقى العزة رديفة الإيمان وأهله، لا تحكمها الأحوال مهما تغيَّرت أو تبدَّلت، قال تعالى:﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وهذا الخطاب جاء بمناسبة هزيمة المسلمين يوم أُحُدٍ ليبين أنَّ الإيمان لا ينهزم في قلوب أهله حتَّى وإن انهزم أهل الإيمان في المعركة لسببٍ من الأسباب.

إنَّ الشعب الذي يركن إلى الظالم هو شعبٌ ذليلٌ لا أرى في أفق عالمه معالم العِزَّةِ؛ والمعاصي يرتع في ميدانها الأذلاء من النَّاس وما من معصيةٍ إِلَّا وأردفتها مَذَلَّةٌ، أمَّا الطاعات فهي مقام الأعزَّاءِ. وكم من شعبٍ حكم على نفسه بالموت قبل أجله ففنيت آمَالُهُ بأفعاله وفقد مَعِيَّةَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعاصيه، فباتت الهزيمة قَدَرًا من أقداره، لا أقول قدر قهرٍ وإِنَّمَا قدر اختيارٍ، قال تعالى:﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. ومن أجل ذلك، فإنه يلزمنا أن نعيش مظلة صدق الإيمان لنكون في بطانة حفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى:﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، ولكي نكون في حصن دفاعه، قال عَزَّ مِن قائلٍ:﴿إِنَّ

ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]. إِنَّ كيد الأعداء كبيرٌ وقد يفسد علينا مسيرتنا بمكره وخبثه، وعندها سنستفيق من نشوة فرحتنا فلا نجد إِلَّا سرابًا ولا نلقى إِلَّا نكالًا، فالحذر الحذر من أن نعيد زمن الغفلة والجهل، فمن استوى يوماه فهو مغبونٌ!

إِنَّنا بحاجةٍ إلى مَدَدٍ من عند الله ﷻ حتَّى نصون أنفسنا وحياتنا، وهذا لا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بحسن الصلة بالله ﷻ وبصدق العمل بمنهجه. نحن بحاجةٍ إلى أن ندرك أنَّ نواميس الله ﷻ وسُنَنَهُ ماضيةٌ في عباده من غير تبديلٍ ولا تحويلٍ، قال تعالى:﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، ولا ينصلح أمر هذه الأُمَّةِ إِلَّا بما صلح عليه أمر سلفها، والنتائج تعكس صدق المقدمات.

كان الكثير من أبناء الأُمَّةِ يظنون أنَّ سقوط بعض الطغاة سيعني أنَّ رأس الأفعى قد قُطِع، فاستبشروا خيرًا بذلك ثُمَّ أفاقوا على حقيقةٍ مُرَّةٍ! وجدوا أَنَّ الذي بُتِرَ هو ذيل الأفعى فقط، أَمَّا رأسها فباقٍ بِسُمِّهِ ولدغته. ولقد كشفت لنا مجريات الأحداث جانبًا من ذلك، والمؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ لا يُلدَغُ من جحرٍ مرتين، فالمعاناة التي عاشتها الأُمَّةُ فيما سبق كانت كفيلةً لأن تكون خير مثالٍ للعبرة والعظة، والعاقل من اعتبر، قال تعالى:﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

إِنَّ أعداء هذا الدين هم أعداء الأُمَّةِ وهذه حقيقةٌ لا يستطيع أحدٌ أن يُخفِيَ معالمها مهما خدع أو مكر خصوصًا إذا جعلنا القرآن الكريم مصدر وعينا وأساس فقهنا، قال تعالى:﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٩]. وها هي أَضغَانُهُم تظهر معالمها في الأزمات والشدائد، فَحَسَنَتُنَا تَسُوؤُهُم وسَيِّئَتُنَا تُفرِحُهُم! أعراسهم وأفراحهم تكون في

مصائبنا ونكباتنا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خير شاهدٍ على ما يُكِنُّونَ لنا، ولقد كشف لنا سترهم في قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

وقفة مع علماء الدين

هناك حقيقةٌ نطق بها أهل العزيمة من الثَّابتين على طريق الحَقِّ مفادها أَنَّهُ من عشق الحياة عاش ذليلًا ومن أَحَبَّ لقاء الله ﷻ ألبسه ربه ثوب العِزَّةِ والكرامة حتَّى يلقاه.

ورَحِمَ الله الإمام مالك حينما قال:«كُلٌّ يُؤخَذُ مِنهُ ويُرَدُّ عليه إِلَّا صاحب هذا القبر»[١]، يعني رسول الله ﷺ. أَمَّا اليوم، فالخلف يقولون بلسان حالهم:«كُلٌّ يُؤخَذُ مِنهُ ويُرَدُّ عليه إِلَّا صاحب هذا القصر»، في إشارةٍ إلى الحاكم! ولست أدري يا علماء الدِّين، هل ضيَّعتم الأُمَّةَ بتهاونكم أم ضاعت الأُمَّةُ بطول سكوتكم أو بتضليلكم فيما تقولون للنَّاس من باطلٍ قد ألبستم به الحَقَّ؟ لقد عَمَّيتُم على النَّاس أحكام الدين في هذا الوقت العصيب الذي تعيش فيه الأُمَّةُ محنتها وهي في أمسِّ الحاجة إلى قولتكم لِلحَقِّ دون تحريفٍ أو تزييفٍ.

لقد التبس الحَقُّ بالباطل على عموم المسلمين فساءت أخلاقهم وضاعت هيبتهم حتَّى صاح النَّاس: هذا من سكوت العلماء!!

لقد تساهل الناس في أحكام الدين وتعاظم الاستخفاف بقيمه حتَّى صاح النَّاس: هذا من غفلة العلماء!!

لقد تعاظم طغيان الظالمين واتسع ظلمهم لشعوبهم حتَّى صاح النَّاس: هذا من جبن العلماء!!

يا علماء الإسلام! لقد غشي الخيرين من أبناء الأمَّة الشعور بالأسى والحزن لما حَلَّ بأرض المسلمين من ضياعٍ ودمارٍ وعلت صرخاتهم أعالي السماء وهي تجأر إلى الله ﷻ من هول

---

[١] المقاصد الحسنة ١/٥١٣، وكشف الخفاء ٢/١٥٥، والبداية والنهاية ١٤/١٤٠.

الفاجعة، فأين أنتم من ذلك كله؟؟ أين أنتم يا ورثة الأنبياء؟؟ أين أنتم أيها الموقعون عن الله ﷻ؟؟ أين أنتم فلقد بلغ السيل الزبا وغلى المرجل ثُمَّ انفجر ولم يبق في قوس الصبر منزعٌ؟؟

يا علماء الإسلام! اعلموا بأنَّ الصراع قد احتدم بين فسطاطين: بين أهل الحَقِّ وأهل الباطل، فإيَّاكم أن تعيشوا خارج الميدان أو تُغَرِّدُوا خارج السِّرب، فَإِمَّا حياةٌ عزيزةٌ وإِمَّا موتٌ كريمٌ.

لقد أدركتم بعقولكم وأبصرتم بأعينكم ما نال الإسلام من مهانةٍ وما أصاب عقيدته من تضليلٍ وتحريفٍ، ولقد علمتم ما استَقَرَّ في قلوب المسلمين اليوم من شَكٍّ وريبٍ في أمر دينهم. إِنَّ الإسلام اليوم في أمسِّ الحاجة إلى مواقف رجالٍ لا تبعد عن مواقف أجدادكم من الرعيل الأول من السابقين الصَّادقين الذين عاشوا مراحل الصراع بين الحَقِّ والباطل حتَّى أَحَقَّ الله ﷻ الحَقَّ وقطع دابر الكافرين.

يا علماء الأُمَّة! هي كلمةٌ قالها أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه من قبل: «أَيَنقُصُ الدِّينُ وأَنَا حَيٌّ؟»، لقد حارب المرتدين وأعاد للإسلام هيبته ووحدة صفه، فما موقفكم ودين الله ﷻ ينتهك ليل نهارٍ وأنتم تنظرون بعيونكم وتسمعون بأبصاركم! أَعِدُّوا الجواب لسؤال الله ﷻ لكم يوم تلقونه، فالعبرة ليست بوجودكم بين النَّاس، بل بأفعالكم وثباتكم وصبركم، فلا تخشوا في الله ﷻ لومة لائمٍ لأنَّ قولة الحَقِّ لا تعجل موتًا ولا تمنع رزقًا.

يا علماء الدِّين! احذروا غواية الظالمين لكم، فقد جعلوا من بعضكم جسرًا يعبرون عليه من أجل إنزال الظلم بشعوبهم وانتهاك أعراضهم واستحلال دمائهم. وبسبب فتاويكم لهم وسكوتكم عن أفعالهم، لا أجد ما أنصحكم به في هذا المقام أبلغ من تحذير الله ﷻ لكم في

قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وزنوها بالقسطاس المستقيم

كنت فيما مضى أشفق على عموم العلماء من فتنة السلطان وشباكه، فلمّا بلغ علماء السُّوءِ منهم ذروة التلاعب بأحكام الله ﷻ وتحريف دلالات نصوص الدِّين، أصبحت أشفق على السلطان من غوايتهم، فمن حَقِّ ولاة الأمور أن يكون العلماء لهم مِرآةً نَقِيَّةً لا غشَّ فيها حتَّى يعكسوا لهم حقيقة أعمالهم لعلَّهم يكونوا أقرب إلى الصَّلاح والتغيير. وخير العلماء من قال قولة الحَقِّ وصَدَّقَ بها، وخير الحكام من أخذ بحقِّهَا واهتدى بهديها، فعن تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبي ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلنَا لمن؟ قَالَ للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المسلِمِينَ وَعَامَّتِهِم»[١].

إِنَّ نصح الحاكم واجبٌ شرعيٌّ وقولة الحَقِّ عنده لها أجرٌ عظيمٌ، قال النبي ﷺ: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمزَةُ بنُ عَبدِ المطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[٢]. يجب أن تكون عقيدتنا في الله ﷻ راسخةً، فالصَّدع بِالحَقِّ لا يمنع رزقًا ولا يقرب أجلًا لأنَّ الأرزاق والآجال بيد الله ﷻ وحده، وهو الغالب على أمره. ولأهميَّة صلاح الحاكم يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: «لو كانت لي دعوةٌ مستجابةٌ لم أجعلها إلَّا في إمامٍ لأنه إذا صلح الإمام أمن البلاد والعباد»[٣]،

[١] صحيح البخاري ١/٣٠، وصحيح مسلم ج١/ص٧٤ (واللفظ له).

[٢] رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج٣/ص٢١٥، وصححه الألباني.

[٣] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج٤/ص٤٨.

وقال: «لو كان دخولي على الخليفة كُلَّ يَومٍ لَكَلَّمتُهُ في علماء السوء، أقول: يا أمير المؤمنين، لا بُدَّ لِلنَّاسِ من رَاعٍ ولا بُدَّ للراعي من عالمٍ يشاوره ولا بُدَّ له من قاضٍ يَنظُرُ في أحكام المسلمين»[١].

والعلماء أساسٌ في إصلاح الحاكم، والأُمَّةُ قد فوضتهم في أداء هذه المهمَّة لأنَّهم الأقدر عليها. وليس من العدل أن يذهب العلماء إلى الاستفاضة في بيان حكم خروج الأُمَّةِ على الحاكم وينسوا حكم خروج الحاكم عليها! ومن أخذ بالأولى وترك الثانية فقد حاد عن الحَقِّ وكان كالطير الذي يريد أن يطير بجناحٍ واحدٍ لا يسعه التَّحليق في سماء الكون! لست أعني - في مقالتي هذه- الحكام الذين نشروا العدل ورعوا حقوق أمتهم ولم يقعوا في ظلم شعوبهم، بل أعني أولئك الذين حكموا شعوبهم بالقهر والظلم والاستبداد ونشروا الفساد بين العباد، وهم الذين لم يرعوا في أمتهم إِلًّا ولا ذمةً!

لقد أجهد علماء السلطان أنفسهم في البحث والتَّقَصِّي من أجل الوصول إلى حُكمٍ يعشقه سَيِّدُهم في تحريم خروج الأُمَّةِ عليه -بالرغم من ظلمه وجبروته- وساقوا جمهرةً كبيرةً من الآيات والنُّصوص والأقوال التي لو وُزِّعَت على الأُمَّةِ لَكَثُرَ فيها الفقهاء والعلماء!! وبسبب غفلتهم وسوء تقديرهم، أو بسبب سوء سريرتهم، فقد تَرَبَّعَ الظَّالم على كرسي الحُكمِ بلا منازعٍ ونام قرير العين بلا قلقٍ أو خوفٍ؛ فهناك جيوشٌ من العلماء اليوم مِمَّن يحسبون على الحاكم لا على الأُمَّةِ، وهم يحرسون كرسي حكمه حتَّى يدركه الموت!!

---

[١] تاريخ الإسلام ج١٢/ص٣٤٢.

نحن لسنا مع من يرى خروج الأُمَّةِ على الحاكم لما يَتَرَتَّبُ على ذلك من مفاسد، فَدَرءُ المفسدة أولى من جلب المصلحة، لكن لا ينبغي أن يصبح ذلك ذريعةً للحاكم الظَّالم أن يفعل بالرعية ما يشاء وأن يحكم بما يريد لنشر جوره وطغيانه من غير أن يردعه أو ينهاه أَحَدٌ، فالساكت عن الحَقِّ كشيطانٍ أخرسٍ.

إنَّ المشكلة ليست في النُّصوص الشَّرعية، بل هي في هوى علماء السُّوءِ الذين يُوَجِّهُونَهَا لتكون ألعوبةً يستهين بها الطغاة! فلماذا لا يبحث هؤلاء العلماء في مشكلة خروج السلطان على الأُمَّةِ وعلى أحكام دينها أو على قيمها وأخلاقها على الأقل من أجل إحداث التَّوازن في منظومة الحَقِّ من غير الوقوع فيما حَذَّرَ الله سبحانه وتعالى منه؟ قال تعالى:﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]. ولماذا يفتحون أبواقهم على كل من طالب بحقه المغتصب من السلطان؟ أَهُوَ إرضاءٌ لهوى الظالمين أم هو خشيةٌ منهم؟ وكيف يكون لهم ذلك والله سبحانه وتعالى قد خاطب أهل العلم في قوله:﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

قد تكون النُّصوص الشرعية لعنةً على الأُمَّةِ إذا باتت بأيدي علماء يُحَرِّفُونَ الحَقَّ عن مواضعه والدلالات عن مُؤَدَّاهَا، فهي سلاحٌ ذو حَدَّين: حَدٌّ يُنتَصَرُ فيه لِلحَقِّ وَحَدٌّ آخر يُنتَصَرُ فيه على الحَقِّ! ولا يجب بحالٍ أن يُفهم بأنَّ مشكلتنا في النصوص كما يظن بعض الجهلة من الناس، بل هي في اللصوص الذين سرقوا قداسة النصوص وفرغوها من محتواها الذي أراده الله سبحانه وتعالى فيها، ففتنوا الناس في دينهم حتَّى ظن كثيرٌ من العامة أنَّ هؤلاء الحكام هم فعلًا يحكمون

بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ! لقد أوقعوا العباد في فجوةٍ عظيمةٍ بينهم وبين ربهم وما رعوا دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَقَّ رعايته.

كم استشهد علماء السوء على وجوب طاعة الحاكم بهذه الآية:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، لكنَّهم أهملوا ضوابطها الشرعية وجعلوها أداةً لتركيع الشعوب الإسلامية لمراد الظالمين ولأهوائهم.

ومن أجل رفع اللبس عن دلالة هذه الآية الكريمة، يقول الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره:«إنَّ طاعة ولي الأمر مُلزِمَةٌ إن كانت من باطن طاعة الله وطاعة رسوله، وفي ذلك عصمةٌ للمجتمع الإيماني من الحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستذلوا الناس بقوله تعالى في نفس الآية:﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، لكن ولي الأمر هنا جاء معطوفًا على المطاع ولم يتكرر له أمر الطاعة، فَدَلَّ ذلك على أن طاعته واجبةٌ إن كانت من باطن الطاعتين، فإن لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة له لأن القاعدة الشرعية تقول:لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.. فالحاكم المسلم مطالبٌ أولًا بأداء الأمانة والعدل، ومطالبٌ أيضًا بأن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة رسوله. فإن لم تكن فيه هذه الشروط، فهو حاكمٌ متسلطٌ. ومن قوله تعالى:﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ نفهم أنَّ التنازع لا بُدَّ أن يكون في قضيةٍ داخلةٍ في نطاق مأمورات الطاعة ويجب أن يكون لها مَرَدٌّ ينهي هذا التنازع، قال تعالى:﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾. والذين يعرفون هذه الأحكام هم العلماء، فإن تنازع المحكوم مع الحاكم فيلزمنا أن نذهب إلى العلماء ليبينوا لنا حُكمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه المسألة. وإن أريد الحاكم باصطلاح

«أولي الأمر»، فعليه إذًا أن يتبع ما ثبت عن الله ورسوله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، والحُجَّةُ في ذلك هم العلماء المشتغلون بهذا الأمر، وهم الملاحظون لتنفيذ حُكمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يعرفونه عن الدين. والحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين يطلب منَّا ذلك يريد أن ينهي مسألة التنازع لأن التنازع يجعل حركات الحياة متضاربةً، هذا يقول بكذا وذاك يقول بكذا، فلا بُدَّ أن نَردَّهُ إلى مَردٍّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]. إنَّ المراد بأولي الأمر هم العلماء لأنَّ الآية تَخُصُّ أهل الاستنباط الذين يشرفون على أداء الدولة والحاكم، وهم الذين يُمثِّلُونَ السُّلطَةَ التشريعية الإيمانية.

وَيُنَبِّهُنَا الحَقُّ في ختام الآية في قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَنَّ في ذلك خَيرًا للحكام وللمحكومين معًا. وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي في الاستنباط لأنَّ العلماء سيأخذونه من منطلق مفهوم قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقول الرسول؛ وفهمهم الصحيح عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيمنعهم من الشَّطط والخطأ، أَمَّا غيرهم فسيأخذ الاستنباط والتأويل بهواه ومصلحته.

وإذا ما نظرنا إلى تاريخ الكثير من الحكام فسنجدهم قد أَمِنُوا على انتقادهم في حياتهم بما فرضوه من القهر والبطش، فلما ماتوا ظهرت العيوب وظهرت الحملات عليهم. إنَّ الواجب على من يحكم أن يعتبر بما سمع عَمَّن حكم قبله؛ فالذي حكم قبله كمَّم الأفواه وكسَّر الأقلام وبعدما انتهى طالت الألسنة وكتبت الأقلام. ينبغي علينا أن نحسن التأويل وأن ننظر إلى المرجع النهائي، فمن استطاع أن يحمي نفسه في حياته بسطوته وجبروته فلن يستطيع أن يحمي تاريخه وسمعته،

وبعد أن تنتهي السطوة والجبروت سيقال فيه ما يقال، ونحن مازلنا في الدنيا ولم نذهب إلى الآخرة بعد. فإذا كان هذا هو جزاء الخلق، فما شكل جزاء الحَقِّ إذًا؟»[١].

لقد استوقفني وعيد النبي ﷺ في أول من تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة حين قال: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ يَنزِلُ إِلَى العِبَادِ لِيَقضِيَ بَينَهُم وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَن يَدعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ القُرآنَ.. فَيَقُولُ اللهُ لِلقَارِئِ أَلَم أُعَلِّمكَ مَا أَنزَلتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ بَلَى يا رَبِّ، قَالَ فَمَاذَا عَمِلتَ فِيمَا عُلِّمتَ؟ قَالَ كُنتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيلِ وآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ كَذَبتَ وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ كَذَبتَ، وَيَقُولُ اللهُ بَل أَرَدتَ أَن يُقَالَ إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَد قِيلَ ذَاكَ..»[٢].

إنَّ الحقوق هي أساس الواجبات، ونحن حينما نطالب الشعوب بأداء ما عليها من واجباتٍ فيجب أولًا أن نعطيها ما لها من حقوقٍ وأن نحفظ لها كرامتها، ولا نريد من ولاة الأمور أن يكونوا من المطفِّفين الذين جاء فيهم الوعيد، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣].

هل نسي علماء السلطان جمهرة النصوص التي تأمرهم ببيان الحَقِّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وهل نسوا ما أنكره الحَقُّ سبحانه وتعالى على علماء بني إسرائيل؟ إليكم تذكيرٌ ببعض هذه النصوص:

-قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ

---

[١] تفسير الشيخ الشعراوي للآية رقم ٥٩ من سورة النساء (بتصرُّفٍ واختصارٍ).

[٢] رواه الترمذي في سننه ج٤/ص٥٩٢، ورواه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص١٣٦، وانظر المستدرك على الصحيحين ج١/ص٥٧٩.

وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]، فَبَيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ هؤلاء قد استحقوا اللعنة لأنَّهم كتموا الآيات والهدى وإن لم يتكلموا بالباطل.

–وقال تعالى:﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ۝٤١ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤١-٤٢]، وقد جاءت الآيتان في حَقِّ بني إسرائيل، وخصوصًا العلماء منهم.

– وقال في التحذير من خشية النَّاس على حساب خشيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

– وقال تعالى عن اليهود:﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]، وكلمة «**سَمَّاعُونَ**» دليلٌ على أَنَّهم سمعوا لكنهم لم يتكلموا أو ينكروا، ونفهم أيضًا من قوله تعالى:﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ﴾[المائدة: ٤٢] كأنَّهم أكلوا الحرام بإصغائهم للباطل وبسكوتهم عن قولة الحَقِّ فأغدق عليهم الظَّالم لسكوتهم عن منكراته وظلمه، ومعلومٌ أَنَّ هذا الإغداق يشمل المال والمنصب والجاه. ومن أنواع الأكل المندرج تحت الآية أن يسكت العالم عن المنكر حتَّى لا يغضب عليه السلطان ويقطع عنه المدد، فذلك من أكل السحت.

–وقال أيضًا:﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨١-٨٢]، فبكذبهم أكلوا المال الحرام وباعوا صدقهم بثمنٍ بخسٍ، وقد ينطبق هذا على كثيرٍ من العاملين في وسائل الإعلام التي يملكها الظالمون المتحكمون بعقول الناس ومصائرهم. يقول النبي

ﷺ:«مَن كتَمَ عِلمًا أَلجَمَهُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نَارٍ»[١]، وكتمان الحَقِّ عند العلماء شَبِيهٌ بقولة الباطل وبالتدليس والتلبيس الذي وقع فيه علماء بني إسرائيل؛ فمن أعظم الشر أن يسكت العلماء عن المنكر حتَّى يظن العامة أنَّ المنكر في الأُمَّةِ ليس بمنكرٍ!

قد يقول بعض العلماء: يسعني ألَّا أقول الحَقَّ حينما يستشري الباطل خوفًا على نفسي ورزقي، ولكنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يقول:﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. ولقد أنكر الله سبحانه وتعالى على علماء بني إسرائيل ما فعلوه بمنهجه، قال تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. ولمن خشي على نفسه أو ماله فلا أقل من أن يبين الأصل دون تعيين الأشخاص، وهذا أقل القليل.

ومن الغريب أن نجد من علماء السلطان من يزهد في طعامه وشرابه وسكنه ولكنه لا يزهد في جاهه ووظيفته، فتراه يمتنع عن قولة الحَقِّ خشية زوال جاهه وهذا ضلالٌ كبيرٌ. إنَّ الحَقَّ أغلى من الجاه، ولا جاه للعالم في تكريم سلطانٍ جائرٍ له. يقول الإمام سفيان الثوري رحمه الله:«تَجِدُ الرَّجُلَ يَزهَدُ في طعامه وشرابه، وأَمَّا في جاهه فيتناطح تناطح التيوس» وفي روايةٍ أَنَّهُ قال:«ما رأيت الزهد في شيءٍ أَقَلَّ منه في الرئاسة. ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإن نوزع الرئاسة حامى عليها وعادى»[٢].

---

[١] المستدرك على الصحيحين ج١/ص١٨٢، وصحيح ابن حبان ج١/ص٢٩.

[٢] سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٦٢/٧.

ويكون الجزاء من جنس العمل، فمن رأى هيبة الدِّينِ تنتهك ثُمَّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل أن يحافظ على مكانته وهيبته، أخذ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه بمقدار ما تساهل في منزلة وهيبة دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى:﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فَاللَّهُمَّ احفظ لنا ديننا بحفظ علمائنا، واجعل قولة الحَقِّ على لساننا ولا تجعلنا فتنةً لأمتنا، واكلأنا برعايتك حتَّى نلقاك غير فاتنين ولا مفتونين. اللَّهم آمين.

بين الدين والسياسة

إِنَّ الدين لله سبحانه وتعالى ويسع الكون كله، أَمَّا السياسة فهي من فعل البشر وحدودها مصلحة فردٍ أو جماعةٍ. ومن الظلم أن نجعل الدين جسرًا يعبر عليه السَّاسة من أجل قضاء مآربهم، فدين الله سبحانه وتعالى أعظم وأجل من ذلك. إنَّ الدين هو الغاية، وأَمَّا السياسة فوسيلةٌ للوصول إليها، ولا ينبغي أن نعكس المواقع بين الغاية والوسيلة فَتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها! ومن جعل السياسة أو الحكم غايةً فلن يجد عند الله سبحانه وتعالى وليًّا ولا نصيرًا.

نُقِلَ عن الإمام محمد متولي الشعراوي رحمه الله قوله:«إِنَّ الانتماء إلى حزبٍ دينِيٍّ أو ترشيح حزبٍ دينِيٍّ ليس من ركائز الإسلام، ولن ينقص إسلامي بشيءٍ إذا لم أنتمي إلى هذا الحزب أو أدعمه. أنا مسلمٌ قبل أن أعرفهم أو أعرف غيرهم، وأنا مسلمٌ قبل أن يكونوا حزبًا، وأنا مسلمٌ بعد زوالهم ولن يزول إسلامي بدونهم لأننا كلنا مسلمون، وليس وحدهم من أسلموا. إنَّني أرفض أن أرشح حزبًا يستعطفني مستندًا على وازعي الدِّيني قبل أن يخاطب عقلي، وأرفض أن يَتِمَّ تلخيص ديني في صندوق انتخابٍ. فديني هو صلةٌ بيني وبين خالقي سبحانه وتعالى»، ويختم قوله بهذه العبارة:«أتمنَّى أن يصل الدين إلى أهل السياسة، لا أن يصل أهل الدين إلى السياسة». ولأنَّ الدين أغلى من كل شيءٍ عند الله سبحانه وتعالى، فقد حَذَّرَ أَحَبَّ خلقه محمد صلى الله عليه وسلم من أن يتلاعب به، فقال في كتابه الكريم:﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٨]. ولا مجال لأن يفتن أهل الدين بدهاليز ومكر السَّاسة، فالمؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ، والوعي المبكر من سمات من أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالحكمة. ولهذا فقد كانت وتيرة الخطاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في هذا

الباب شديدة الحزم، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

وحتَّى لو كانت الفتنة في جزئيةٍ من الدين -مهما صَغُرَت- فلا مجال للمساومة فيها لأنَّ الحَقَّ لا يتقاطع مع الباطل ولأنَّ البراءة من الباطل أصلٌ في الإيمان وخُلُقٌ من أخلاق الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

إنَّ أهل الإيمان تَبَعٌ لرسولهم خير الأنام ﷺ، وقد نهاهم الله سبحانه وتعالى عن الركون إلى أهل الباطل؛ فالرضا بالواقع الفاسد هو جزءٌ منه، وفي مسايرة السَّاسة والسياسة في كل الأمور امتهانٌ لكرامة الدين وذهابٌ لماء الوجه عند المسلم. فإذا لبست ثوب الإسلام فحافظ على سماته، وإذا لبست ثوب الإيمان فحافظ على طهارته، يقول الحَقُّ سبحانه وتعالى في خطابه لأهل الإيمان وحملة الرسالة: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

إلى أين تتجه مسيرتنا السياسية في الغرب؟

يلزمنا تحديد الأهداف والمقاصد قبل الدخول في ميدان العمل السياسي، كما يلزمنا ضبط المسيرة بضوابط العقيدة أولًا ثُمَّ بأحكام الشريعة ثانيًا لكي لا نبعد بأبناء الجالية الإسلامية عن غاية وجودهم وأصل تكليفهم ولكي لا نَزُجَّ بهم في عالم الإغراءات. إننا جميعًا مُعَبَّدُونَ لله سبحانه وتعالى

ومحكومون بأوامره، ويبقى محراب الكون أوسع من محراب العبادة وإن كان مُتَّصِلًا به ومرتبطًا بغايته، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

إنَّ أساس مشكلتنا السياسية تكمن في سوء تحديد المنطلق والعتمة في رؤية معالم الطريق، فمعايشتنا للواقع تنسينا المقدمة في الغالب، والغوص في البحث ينسينا العنوان، وأزمتنا في التكوين والإعداد تَتَقَدَّمُ على أزمتنا في التمكين والظهور، ومشكلتنا في التأسيس تأتي قبل مشكلتنا في التسييس، وصناعة المستقبل للجالية الإسلامية تحتاج إلى رعايةٍ ربانيةٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى في رعايته لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصناعته له على عينه: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. إنَّ الأُمَّةَ التي لا تُصنَعُ على عين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ستخسر وعد حفظه وتمكينه وستفقد أمنها الإيماني، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وستبقى نواميس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثابتةً بوعده، لا تتغيَّر ولا تتبدَّل!

إنَّ وجهتنا في المشاركة السياسية في بلاد الغرب قائمةٌ على النظر في منظومة المصالح والمفاسد عمومًا، بعيدًا عن الخلافات في دائرة الأحكام التفصيلية، لأننا بخلافاتنا سنجعل الصدام في الأحكام مقدمةً للتصادم في المواقف! وسنزيد من مساحة النزاعات المقيتة القائمة على اختلاف وجهات النظر وقد ننتهي إلى تحكيم الهوى والمصالح الذاتية على حساب الثوابت العقدية والتشريعية في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وما زلنا نُؤَكِّدُ لإخواننا بأنَّ الانتخابات في بلاد الغرب هي حَقٌّ دستوريٌّ لكل مواطنٍ يحمل جنسية البلد الذي ينتمي إليه. وللمسلم الذي يمتلك هذا الحَقَّ أن يستخدم صوته لما يُحَقِّقُ

مصلحته بشكلٍ خاصٍ ويُحَقِّقُ مصلحة المسلمين عمومًا، ولا يَحِقُّ لنا أن نُوَظِّفَ الثوابت في أحكام العقيدة والشريعة لخدمة أيِّ اتجاهٍ في هذا الشأن خشية أن يُستَخدَمَ الدِّينُ كغطاءٍ أو جدارٍ يختفي وراءه المتاجرون بمصالحهم والمنتفعون بمواقعهم، لا سيما وأَنَّ الأحكام الشرعية أكرم من أن تُزَجَّ بصورةٍ مُشَوَّهَةٍ في أتون واقعٍ لا يحكمه شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو في ميادين يصعب فيها على كثيرٍ من المشايخ تقدير المصالح والمفاسد المترتبة على انتخاب شخصٍ بذاته أو حزبٍ بعينه. لقد كانت التجارب التي خضناها عبر السنين كفيلةً بأن تكون أداة تنويرٍ لمن ألقى السمع وهو شهيدٌ، خصوصًا وأَنَّ بعض العاملين في ميادين السياسة يستغلون بعض المشايخ لكسب أصوات العامة، فإذا ما تمكنوا لا يعبأ أحدهم بأن يحترق المشايخ أو تحترق العامَّة، وعندها يصدق فينا تحذير الشاعر حين قال:

كُنَّا لَكُم حَطَبًا في كُلِّ نازلةٍ

فلا تكونوا لنا حَمَّالةَ الحَطَبِ

أنا أدرك حجم المشاكل التي نعيشها في بلاد الغرب، فقد يصعب تصنيفها وتبويبها ناهيك عن علاجها. لكن أصعب ما يكون هو تحديد فقه الأولويات في واقعٍ باتت فيه القيادات الدينية الواعية عاجزةً في أن توصل صوتها لكثيرٍ من أبناء الجالية، وذلك بسبب تزاحم أبواق المتصدرين للمشهد الدِّيني والسياسي سواءٌ من أرباب المصالح أو من الجهلة أو من المغَرَّرِ بهم.

ليس هناك من مانعٍ في أن يمضي الناس في عالم المتغيرات (ومنها مسارب السياسة) ما داموا قد ارتبطوا بثوابت الدِّين لأنَّ هذه الثوابت ستحميهم بعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الانزلاق والانفلات. لكننا نخشى من تجاوزنا لثوابت ديننا ومن ثَمَّ مسارعتنا في عالم المتغيرات، فتجرفنا حينها سيول

السَّاسة إلى أمواج الضياع فلا نجد مرفأً لترسو عليه سفينة نجاتنا، فنبقى متخبطين في عالم المجهول، لا نجد لحالتنا من دون الله ﷻ كاشفةٌ!

إِنَّ زعزعة ثوابت الدِّينِ وتسطيح القيم الإسلامية أَضَرُّ علينا من المصالح السياسية المحتملة وما يصاحبها من الوعود المتوهمة التي تجعل البعض يَظُنُّ أَنَّهُم أقرب إلى تحقيق المصالح.. وأخشى في النهاية أن يُستَخدَمَ أبناء الجالية كَسُلَّمٍ وصولٍ لتحقيق مآرب شخصيةٍ أو ذاتيةٍ. والمؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ لا يلدغ من جحرٍ مرتين، والغافل مِنَّا هو من جرفه التيار وأخذته أمواج الجهل بحقيقة الواقع وهو يَظُنُّ أَنَّهُ من الذين يحسنون صنعًا.

لا مانع في أن يستخدم أيُّ مسلمٍ يعيش في الغرب حَقَّهُ الذي كفله له دستور البلد الذي يعيش فيه في ترشيح من يرى فيه الخير للمسلمين أو على الأقل من هو أَقَلُّ ضَرَرًا على المسلمين عند تَعَذُّرِ الأول في ضوء منظومة جلب المصالح ودرء المفاسد، ولكنَّ ذلك يجب أن يجري وفق الحدود المعقولة وبما يَتَّسِعُ له فقه الأولويات وتقديم المصالح حسب مراتبها، فإن تعذَّر تحقيق مراد الله ﷻ المشار إليه في قوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فلا نتجاوز مراده المشار إليه في قوله تعالى:﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وذلك من غير حاجةٍ لأن نركب موجة العواطف ونستغل ضعف الوعي لدى كثيرٍ من المسلمين فنفتنهم في دين الله ﷻ قبل أن نفتنهم بمكر السَّاسة ودهاليز السياسة.

إِنَّ بلاد المسلمين خير شاهدٍ على ما نحن فيه ولا تنقصنا المسميات الإسلامية، فحكامنا مسلمون كما يدَّعون، والدستور في معظم بلاد المسلمين هو الإسلام كما هو منصوصٌ عليه، ونحن أكثر أُمَّةٍ على وجه الأرض تمتلك دُورًا للعبادة وأعظم أُمَّةٍ تزاحمت فيها أقدام الحفاظ

والقُرَّاء.. ولكنَّ الحال الذي نحن فيه يحكي قصةً أخرى! إنَّ ميدان الإسلام هو ميدان القلوب قبل القوالب، والمعاني قبل المباني، والمخبر قبل المظهر؛ والصدق مع الله سبحانه وتعالى هو أساس النجاح والفلاح، فالأحوال لا تَتَغَيَّرُ بكثرة أدعياء الدين وإنَّما بصدق دعاته، وأحوال الجالية لا تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ المواقع وإنَّمَا بنواميس الله سبحانه وتعالى التي تَحكُمُ الواقع، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ [الرعد: ١١].

وأخيرًا أقول: هل نحن وَجَّهنَا المقاصد أم وُجِّهنَا نحن نحو المقاصد؟ لا نريد ظلم أنفسنا بأن نغامر في صعود الجبال بِأُمَّةٍ ألفت العيش بين الوديان، ولكن يلزمنا أن نسارع في إصلاح أنفسنا وفي إصلاح جاليتنا. ولا يجب أن نغتَرَّ بما نحن فيه فأعقل النَّاس من أبصر عيوبه قبل عيوب غيره وأصلح فساد ذاته قبل غيره. وإذا كُنَّا فعلًا صادقين في خدمة أمتنا الإسلامية، فلنسلك سبيل الصدق مع الله سبحانه وتعالى حتَّى تبقى ثوابت هذا الدين معين أدائنا في الحياة وحتَّى يبقى فقه المتغيرات معين أنوار مسيرتنا على أَلَّا نتجاوز في ذلك وصية الحَقِّ سبحانه وتعالى لرسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، لنحمي بذلك أنفسنا من هُوَّةِ الزيغ والانفلات ومن مخاطر السير خلف السراب! وخير ما أختم به مقالتي هذه وصية الله سبحانه وتعالى لعباده في قوله:﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٥-٩٦].

نظرة في العلمانية

لقد بدأت معالم المدِّ والجزر للفكر التربوي تلوح في الأفق في القرون المتاخمة لقرننا الحالي على وجه الخصوص، فكانت النهاية أن تُوِّجَت جهود الأعداء ودسائس الكائدين لدين الله ﷻ في إزالة المظلَّة الأخيرة للخلافة الإسلامية من خلال إسقاط الخلافة العثمانية. وعندها بدأ الاتجاه التغريبي يتنامى في ميادين التربية والتعليم حتَّى اتسعت دائرته إلى حَدٍّ مُخِيفٍ، فتفاقم الفكر العلماني وانتشر في أوساط الطبقة المثقفة كانتشار النار في الهشيم. ولقد سعى الاستعمار الغربي إلى وضع برامج ومخططاتٍ هدفت إلى محو معالم التربية الإسلامية، فعبث في مناهج التعليم وأدخل فيها ما يُحَقِّقُ أهدافه وغاياته، فكانت له السيطرة على مقدرات الأُمَّةِ ومفاصل السياسة والحُكمِ فيها، وكانت له الهيمنة على مناحي حياة المسلمين.

ودخل الفكر الإسلامي المعاصر أوج محنته بعد أن تظافرت جهود الأعداء نحو علمنة الحياة الثقافية والفكرية في عالمنا الإسلامي، فوضع الاستعمار برامج ومخططاتٍ هدفت إلى محو معالم الفكر الإسلامي وذلك من أجل أن تَسهُلَ عليه قيادة المجتمع المسلم المتجرد من أسباب قوته وشهوده الحضاري. لقد شهد واقعنا المعاصر موجةً رهيبةً من العولمة والحداثة التي ساد فيها فكر الأقوى وهيمن في ظلالها سلطان الأقدر حتى أصبحت قيم الأُمَّةِ الإسلامية حبيسة الضعفاء والمقهورين وأسيرة واقعٍ استأثر بالنزعة نحو التغريب، فباتت الخشية على أبناء الأُمَّةِ من مستقبلٍ مُظلمٍ -لا يُقَدِّرُ عَتمَتَهُ إلَّا الله ﷻ- ومن أعوامٍ قادمةٍ حبلى بالمفاجآت التي قد تطرق أخبارها أسماع الأمة بنبأٍ عظيمٍ يصير فيه الحليم حيرانًا!

إِنَّ الثورة العلمانية التي شَنَّهَا المجتمع الغربي ضد الدين عندهم لم تكن وليدة ميلٍ عارٍ عن المؤثرات أو رغبةٍ جامحةٍ في التخلص من الدين، وإنَّما كانت انعكاسًا للواقع الديني الذي انحرفت قياداته في المنهج والأداء، فتزحزحت أركانه وتصدعت جدرانه وعظمت فيه معاناة الناس من ظلم الكنيسة وأفعال رجالها. وفي هذه الظروف تهيأت الأجواء لأن يجد الفكر العلماني طريقه إلى حياة الناس من خلال تحقيق تطلعاتهم في التخلص من ذلك الواقع الدِّيني الذي خنق أنفاسهم وكدَّر عيشهم.

ولم تكن العلمانية هي مطلب الشعوب الراغبة في التَّحَرُّرِ من الواقع المختنق، بل كانت البديل الوحيد المتاح لديهم آنذاك، خصوصًا وأَنَّهَا دعت إلى تجريد حياة الناس من كل العادات والتقاليد التي التصقت بالدين، فكان وهم الخلاص هو المهيمن على عقولهم. لكنَّ الحقيقة المريرة التي آلَت إليها الشعوب المتحررة من قيود الأديان جعلتهم يقفون على حافة الهاوية، لا بسبب إفلاسهم في عالم المادَّة، بل بسبب إفلاسهم في عالم القيم والأخلاق، فكان مثلهم كمثل المستجير من الرمضاء بالنَّار!

لقد حاول العلمانيون في مجتمعنا المسلم قطع حبال المودَّة بين المسلمين وأصالتهم بدعوى أنَّ الأخذ عن القديم يعني العيش فيه، مدعين بذلك أنَّ الأُمَّةَ ستكون قطعةً من ماضيها. إِنَّهم تجاهلوا الفرق بين القيم الإسلامية باعتبار خصائصها الذاتية وبين انعكاسها على واقع حياة النَّاس الذين يتفاعلون معها. فالقيم الإسلامية هي الأصل والمصدر، وأمَّا ممارسات الناس فهي التجربة والخبرة والمعرفة. ولكل مجتمعٍ نصيبٌ مما كسب على شرط أن تبقى بصائر أهل الإيمان أداة غربلةٍ وتمحيصٍ بين الخطأ والصواب، وبين الغث والسمين، وبين الحَقِّ والباطل، قال

تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ثُمَّ علينا أن ندرك حقيقة الدعوى التي حرص العلمانيون على إثارتها باستمرارٍ -والتي استهوت الجهلة أو المغفَّلين أو المغرضين من أبناء الأُمَّة- المتمثلة في أنَّ الغرب قد نهض في جميع مجالات الحياة بسبب خلعه لثوب الدين واتجاهه نحو علمنة الحياة. لقد نسي هؤلاء التفريق بين واقع الأُمَّةِ الإسلامية المحكوم بِسُنَنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشرعية التي ترتبط فيها المصالح بالغاية الأساسية التي ذكرها رَبُّنَا في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبين واقع غير المسلمين المبني على المصالح والمنافع والمحكوم بسُنَنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكونية عمومًا، وليس له من غايةٍ فاعلةٍ تصل دنيا الناس بأخراهم. إنَّ مسيرة غير المسلمين تَنصَبُّ -في جُلِّهَا- في تحقيق مصلحةٍ آنيةٍ أو عَرَضٍ قريبٍ لأنَّ الحَقَّ سبحانه وتعالى لا يشغل حَيِّزًا في حياتهم أو في غاياتهم وأهدافهم.

ونحن نؤمن بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحكم خلقه عمومًا بنواميسه الكونية العامة، فمن جدَّ وجد ومن زرع حصد، والقوي يغلب الضعيف والكثرة تغلب القلة، ومن أتقن عمله واجتهد وصل، إلى غير ذلك من القوانين الإلهية العامَّة. أَمَّا من انتسب للدين وقال «إنَّني من المسلمين» فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحكمه بقوانينه الشرعية التي تعيش الأمة في ظلالها. وليس للأمة أن تقيس نفسها على الغرب لتدخل في سياق نواميس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكونية التي أخضع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها غير المسلمين. فلكل أُمَّةٍ

منظومتها التي قسمها الله ﷻ لها ولا مجال هنالك للتقابل والقياس، فالمنطلقات متفارقةٌ والسمات والصفات متباينةٌ.

لقد نصر الله ﷻ المسلمين يوم بدرٍ وهم أقل عددًا وأضعف عُدَّةً، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، مع أنَّ ذلك لا يمكن أن يكون في ظلال النَّاموس العام غير الشرعي، فكان لهم النصر لتحقيقهم لشرط الجندية بصرف النظر عن أسباب النصر الظاهرة أو العامَّة، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، بينما وقعت لهم الهزيمة في الجولة الثانية يوم أُحُدٍ لاختلال شرط الجندية حينما خالفوا أمر النبي ﷺ، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢-١٥٣]. فالقَدَرُ قَدَرُ الله ﷻ والبلاء المشار إليه في الآية الكريمة هو اختبارٌ من عنده تعالى.

وكذلك يوم حنينٍ حين اهتزَّت أركان الجندية عند الصحابة الكرام بسبب إعجابهم بكثرة عددهم وعتادهم وتفوقهم على عدوهم، قال تعالى:﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ولهذا لم يَتَحقَّق لهم مرادهم في بداية المعركة لأنَّ الله ﷻ أخضعهم وقهرهم بناموسه الشرعي الذي لا يَتَغيَّرُ ولا يَتَبَدَّل!

وليست النزعة إلى حب المخالفة في حَدِّ ذاتها من سمات أتباع هذا الدين، وإنَّما هي الرغبة الشديدة في استقلالية الذات وتأكيد مقوماتها ومن ثَمَّ تحريرها من عبودية التبعية والتغريب، بعيدًا عن أيِّ توجهٍ يدعو إلى الانسلاخ عن أصالة الأُمَّةِ ونكران ماضيها كما يرغب في تحقيق ذلك كثيرٌ من دعاة العلمنة. إنَّ الجهود الساعية إلى إيجاد قطيعةٍ موهومةٍ بين الخالق والمخلوق وبين الدِّين وأتباعه ستكون وبالًا على الشعوب لأنها تسعى إلى اجتثاث شجرة الحياة وفصلها عن أصلها! فالإيمان الصحيح بالله ﷻ هو قبسٌ من نورٍ لا ينطفئ، قال تعالى:﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وكتاب الله ﷻ هو الأنيس الذي يقي الناس وحشة الزمن ويحمي ذواتهم من أن تتلاشى في رحى طاحونة الحياة.

وفي ظلال منهج الله ﷻ القويم تكون الاستقامة من غير اعوجاجٍ، ويكون الاعتدال من غير انحناءٍ، والتوسط من غير تطرفٍ، والشموخ من غير تجبرٍ وغرورٍ؛ فأهل الإيمان –باتباعهم لمنهج الله ﷻ– لا يغالون عند التعالي ولا يسرفون عند الهبوط، قويهم يقوى بعدله وضعيفهم يقوى بعدل قويهم، قال تعالى:﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي خضمِّ هذا الصراع الفكري والعقدي، فإننا لا نرغب في أن نكون طرف عصا بعد أن كان غيرنا طرفها الآخر فنحمل بذلك الناس على عشق ماضينا لمجرد قدمه، وإنَّما نلتمس العدالة

والموضوعية في أن يحكم أهل العدل والإنصاف على القيم التي نتجت عن تفاعل منهج الله ﷻ مع واقع الحياة، خصوصًا إذا أخذنا الوجه الإيجابي الذي شهد به الأعداء قبل الأصدقاء. أَمَّا الممارسات الخاطئة التي سلكها بعض أتباع الدين الإسلامي عبر التاريخ، فهي تُرَدُّ على أصحابها ولا تحسب على ديننا. فهناك فرقٌ بين دعوة الدين وبين ما يقوله الأدعياء، قال تعالى:﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨-٢٩]. إِنَّ منهج الله ﷻ هو المنطلق، وأمَّا وجود الخلل في الممارسات فلا يعني الخلل في المنطلق، وقد يُبَدِّلُ الله ﷻ في الناس متى يشاء من أجل أن يصون دينه ومنهجه، قال تعالى:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال أيضًا:﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ما هي العلمانية؟

العلمانية «حركةٌ اجتماعيةٌ تهدف إلى صرف الناس عن الدين وعن الاهتمام بعالم الآخرة وذلك من أجل توجيههم نحو الدنيا وحاجياتها وتنمية النزعة الإنسانية. ولقد بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون إعجابهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية وبإمكانية تحقيق مطامحهم في

حياتهم الدنيا، وظَلَّ الاتجاه إلى العلمانية (أو ما يعرف باللغة الإنجليزية بمصطلح:Secularism) يتطور باستمرارٍ خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركةً مضادةً للدين»[١].

ولقد حُدِّدَ مفهوم العلمانية في أحد المؤتمرات الخاصة المعنية بها على أنها نظرةٌ شاملةٌ للعالم -أي للإنسانية جمعاء- وللكون كله، وهي تؤكد على استقلالية العالم تجاه الدين بكل مقوماته وأبعاده وقيمه. وتعني أيضًا «الحِيَادَ التَّامَ للعالم تجاه الأديان المختلفة، فهي ليست ضد الدين ولا معه، ولذلك فإنَّ العدائية للدين ليست من العلمانية بل هي ضد العلمانية، فإذا اتَّخذت شكلًا عدائيًّا في بعض البلدان كفرنسا أو تركيا في فترةٍ من التاريخ، فما كان هذا إلَّا انحرافًا ومرضًا يمكن تسميته:(العلمانوية)»[٢]. ولقد ضَمَّ هذا المؤتمر ممثلين عن جمعياتٍ وأحزابٍ وأفرادٍ لعقائد دينيةٍ وسياسيةٍ مختلفةٍ، وفيه أصدرت وثيقة (العلمنة) لتكون -كما يأمل العلمانيون- مشروعًا متكاملًا يشمل جميع مناحي الحياة.

وجاء في المادَّة الأولى من هذه الوثيقة بأنَّ المدرسة العلمانية هي«كل فكرٍ أو اتجاهٍ أو موقفٍ لا يعتبر الدين جُزءًا من مشروعه النهضوي أو فكره السياسي سواءٌ كان هذا الموقف رافضًا للدين معاديًا له أو كان معترفًا به متقبلًا له كتراثٍ أو واقعٍ تاريخيٍّ، ولكن ليس له علاقةٌ بالدولة ولا بشؤون الإنسان المدنية؛ فالفكر الماركسي حسب هذا التعريف هو فكرٌ علمانيٌّ، والفكر القومي هو فكرٌ علمانيٌّ كذلك»[٣].

---

[١] التعريف مقتبسٌ من موقع دائرة المعارف البريطانية.

[٢] عُقِدَ هذا المؤتمر العام الدائم للتيار العلماني في بيروت في خريف ١٩٨٢م، وعَبَّرَ عن حقيقة العلمانية الجديدة المتطوّرة، وضَمَّ ممثلين عن جمعيات وأحزاب وأفراد لهم عقائد دينية.

[٣] انظر: من الفكر الحر إلى العلمنة، عاطف علبئ، ص ١٢٢.

تيارات الفكر العلماني:

يمكن تقسيم الفكر العلماني إلى قسمين:

الأوَّل: وهو قسمٌ يرفض الدين ويعاديه ويحاربه، وهو لا يكتفي بإبعاد الدين عن الدولة والسياسة فحسب، بل ويسعى إلى محاربته بدعوى أنه سببٌ للتخلف والركود وعائقٌ للتطور والتقدم، بل ويعزو أسباب انتكاسات الأُمَّةِ وهزائمها للدين والتدين[١]. ويزعم هؤلاء أننا إذا أردنا أن نحقق القوة والانتصار فلا بد أن نتخلص من صبغة الدين والتدين في حياة الناس.

الثاني: وهو قسمٌ يقبل بوجود الدين -ولو على استحياءٍ- لكن بشرط أن يبقى الدين والتدين في المحراب ولا يتعديان المسجد أو البيت. ويرفض هذا التيار أن يكون للدين أيُّ شأنٍ في الحياة أو أن يتدخل في أيِّ مسربٍ من مساربها، ويزعم أصحابه ألَّا حاكمية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حياة الناس؛ فالحياة -حسب زعمهم- لها قوانين يضعها الناس وفق اجتهادهم وضمن مصالحهم ولا دخل للدين فيها.

وسواءٌ ما كان من هذه التيارات ضد الدين أو خلافه فإنَّ النتيجة واحدةٌ: فالغاية هي تنحية الدين عن قيادة الحياة واستبعاد نظمه وقوانينه وأحكامه عن واقع الناس. وفي ضوء ذلك، فلا يمكن تحقيق المواءمة والمجانسة بين الإسلام والعلمانية في أيِّ حالٍ من الأحوال، فنحن لا نريد أن ننتقل من العلماني الملحد إلى العلماني المسلم، فكلاهما شَرٌّ مستطيرٌ، وذلك لأنَّ مجمل حركة الإنسان في الحياة يجب أن تنضوي تحت الغاية التي حَدَّدَهَا لنا رب الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذه الغاية تشمل في ظلالها جميع أجزاء

---

[١] صَرَّحَ بذلك مؤلِّف كتاب: النقد الذاتي بعد الهزيمة (يقصد هزيمة العرب في حزيران سنة ١٩٦٧م).

الحياة، قال تعالى:﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ومن الغفلة لدى المسلمين أن يرددوا ما يقوله أعداء الدين «لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة» بدعوى أَنَّ السياسة تبرر الوسيلة مهما كانت وبدعوى تحقيق الغايات، فقد يدخل في هذه الوسائل المكر والكيد والخداع والكذب، وهذا ما يمنعه الدين والخلق القويم! وهل نسي الناس أنَّ الأمر والحكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى:﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال أيضًا:﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

إِنَّ الإسلام هو منهج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للناس، يحكم حياتهم ويقودهم إلى تحقيق الحاكمية المطلقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى:﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. ولا يمكن أن تنعكس نتائج وثمار قيادة الإسلام للحياة في واقع مجتمعٍ مكوّنٍ من تياراتٍ مختلفةٍ وممارساتٍ هابطةٍ، بل وسلوكياتٍ غايرت الأخلاق والقيم التي يزرعها الإسلام في أتباعه! وهؤلاء المروِّجون للفكر العلماني ممن ينتسبون للمسلمين في ظاهرهم يضمرون المكائد وهم في حقيقتهم منحرفون فكريًّا وعقديًّا، وهم كالأفعى التي تغرز أنيابها في جسد أمتنا. وفي النهاية ينظر هؤلاء إلى الدين بغرابةٍ واستهجانٍ واستخفافٍ فلا يرون فيه أيَّة مقوماتٍ لأن يعيش حضارة اليوم، فضلًا عن أن يقودها كما يزعمون!!

إِنَّ الإسلام وحدةٌ متكاملةٌ ولا يصلح أن يقود واقعًا كواقعنا بما فيه من تيَّاراتٍ وتناقضاتٍ، فهو منهجٌ يربط بين الخالق والمخلوق وبين أحكام الدين والمؤمنين بهذه الأحكام الذين خضعوا

بها لحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولم يجمعوا بين حاكميتين: حاكمية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحاكميةٍ أخرى أيًّا كانت، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وأمَّا ما يروجه العلمانيون في وسائل الإعلام من نظرياتٍ ووعودٍ فهو سرابٌ لا يروي ظمأ أُمَّةٍ أتعبها طول المسيرة حتَّى باتت مسرحًا لتجارب القاصي والدَّاني!!

نظرة في الغزو الفكري

إنَّ الغزو الفكري مصطلحٌ جديدٌ لم يكن معروفًا في قرون الخلافة الإسلامية، فالله ﷻ حمى أُمَّةَ الإسلام بسور منهجه الذي صانها من التأثر بالفكر المستورد على حساب الثقافة الإسلامية الأصيلة. ويتصل مصطلح الغزو الفكري بمجموعة الجهود التي بذلها الغرب المستعمر بعد انسحابه عسكريًّا من أجل تغيير معالم الثقافة الإسلامية في حياة المسلمين ومن أجل توجيه الأجيال إلى ما يريده عبر إخضاعهم لمراده من غير أن تكون له خسائر ماديةٌ أو عسكريةٌ.

يُعَدُّ الغزو الفكري من أَشَدِّ الأمراض التي فتكت بأبناء المسلمين، حيث عُوِّمَت بسببه سمات الشخصية الإسلامية فتزعزعت قيمها وضعفت أصالتها في نظر أبنائها! فهو كالسرطان الذي يسري في الجسد لا يحسُّ صاحبه به إلَّا في مراحل يصعب فيها علاجه أو القضاء عليه. والغزو الفكري أخطر من الغزو العسكري لما يترتب عليه من نتائج وخيمةٍ على مستقبل الأجيال من خلال تحويل ثوابت الأُمَّةِ إلى متغيراتٍ تعصف بها الحضارة المعاصرة فتحركها في كل اتجاهٍ.

ويهدف هذا الغزو إلى إخضاع أبنائنا لما يريده الغرب من خلال الهيمنة على مقدرات الأُمَّة بعد إخضاع العقول والأفهام لثقافته حتَّى تكون تابعةً له، وذلك بعيدًا عن الشعور بالاستقلالية أو الاعتزاز بالذات. وبهذا سيصبح الميل نحو التغريب نابعًا من قناعة الأجيال ومن رغبتهم الجامحة للانفتاح على ما عند غيرهم وإن كان بعيدًا عن الدين أو التدين، فالعلمنة في الحياة الغربية قد سرت في الفكر والثَّقافة وغَيَّرت معالم الحياة فيهما بكل تفصيلاتها إلى صورةٍ مبتورةٍ عن الدين والقيم المتصلة به. وعلى هذا الأساس، فإنَّ الغزو الفكري ينتهج نهجًا مخالفًا للغزو العسكري الذي قهر الشعوب بسطوته وحَقَّقَ للمستعمر ما يريد دون رغبة الشعوب، ممَّا

جعل مقاومة الشعوب التي خضعت لقهر المستعمر ولغزوه العسكري أعنف وجعل رغبتها في التَّحَرُّرِ منه أقوى وأصلب.

إنَّ من أبرز القضايا الهامَّة التي يحاول أعداء الإسلام تنفيذها هو إبعاد المسلمين عن مصادر قوتهم ومنعتهم وتهيئة كل الأجواء الكفيلة باستمرار ذلك. لقد جاء الغزو الفكري ليضرب أطنابه في الواقع الثقافي للأمة الإسلامية ولتهيمن أهدافه ومناهجه على المؤسسات التعليمية فيها، ولهذا فقد تفاقمت وجهة التغريب وتعاظم الاقتباس من الفكر الغربي حتَّى أصبحت الأمة رهينة السياسات التربوية الدخيلة والبعيدة عن روح الإسلام وعقيدته وأحكامه. لقد شهد الواقع عجزًا كبيرًا في معالجة مشكلات النَّاس، ولم تكن مخرجات الفكر الغربي –سواءٌ داخل أرضه ومحيطه أو في الدول التي تأثرت به– وليدة الصدفة، بل كانت نتيجةً حتميةً لمنطلقاتٍ لم يكن للقيادات الواعية نصيبٌ فيها. إِنَّ الفكر الغربي في مجمله فكرٌ إلحاديٌّ أو فكرٌ دينيٌّ منحرفٌ عن أصوله السماوية، قد مُحِيَت فيه معالم العقيدة السليمة وباتت فيه الأخلاق على حافةٍ هاويةٍ، ولهذا فقد أصبحت أجيال المجتمع الغربي تقدس المادة وتعبد المصالح. وكان قد أحدث ما دعا إليه من قبل جان جاك روسو وجون ديوي وغيرهما من أصحاب الفلسفة العلمانية هَزَّةً في المجتمعات التي تأثَّرت بهم، فمنهم من جعل الأهواء والعواطف والحواس قائدةً في الحياة، ومنهم من جعل الإيمان بالغيب خرافةً وجَرَّدَ الأخلاق من قيمها الثابتة. وكانت النزعة المادية المجردة عن الإيمان بالله ﷻ أو المجردة عن عالم الغيب والآخرة من خصائص وسمات النظريات التي دعوا إليها ونافحوا من أجلها، ولم يدَّخر من جاء بعدهم وسعًا في مواصلة هيمنة هذا الفكر الغربي على المؤسسات الفكرية والثقافية.

وبسبب تفاقم وجهة التبعية والتغريب في أمتنا ومن ثَمَّ هيمنة الفكر الغربي، فقد ذابت الشخصية التربوية لأبناء الأمة وضعفت إرادتها، فشهد الواقع التربوي صدق إخبار النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم شِبرًا بِشِبرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَو دَخَلُوا جُحرَ ضَبٍّ تَبِعتُمُوهُم»، وفي روايةٍ عن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى تَأخُذَ أُمَّتِي بِأَخذِ القُرُونِ قَبلَهَا شِبرًا بِشِبرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، فَقِيلَ يا رَسُولَ الله: كَفَارِسَ وَالرُّومِ، فَقَالَ: وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟»[١].

لقد تعاظمت مكائد الأعداء على أُمَّةِ الإسلام، وتمثلت هذه المكائد بشكلٍ جليٍّ في الهجمات الشَّرسة التي شنَّها الاحتلال العسكري من أجل إخضاع الشعوب المسلمة ونهب ثرواتها، فَعَمَّ الخراب والدمار في أرض المسلمين. وبعد مُضيِّ عقودٍ من الزمن، استطاعت الشعوب الإسلامية أن تنال استقلالها من الاستعمار الغازي. أمَّا سياسة الاستعمار في الهيمنة على مقدرات الأُمَّةِ الاقتصادية منها والثقافية، فما زالت جذورها ضاربةً في عروق الأُمَّةِ حتَّى أنها شملت الدول التي لم تخضع للاستعمار العسكري.

إنَّ روح العداء تشتد يومًا بعد يومٍ لأنَّ العدو أدرك أثر القوة الروحية والعقائدية التي حركت أبناء الأُمَّةِ للوقوف أمام كيدهم زمنًا طويلًا. فبالرغم من كل المحاولات العسكرية التي لجأ إليها المستعمر من أجل كسر شوكة الأُمَّةِ، إلَّا أنها باءت بالفشل والخيبة. ولهذا فقد دأب الأعداء على البحث عن سلاحٍ آخر، فكان الغزو الفكري لأمتنا أمضى سلاحًا من غيره في فرض السيطرة والهيمنة.

---

[١] صحيح البخاري ج٦/ص٢٦٦٩، كتاب الفتن والملاحم، بَابُ قَولِ النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم».

لقد أدرك الأعداء حجم الخسارة المادية والبشرية المترتبة على الغزو العسكري، فكان مخططهم القادم هو الغزو الفكري إيمانًا منهم بالفكرة القائلة:«إذا لم يكن السيف قادرًا على السيطرة على المسلمين فليكن ذلك عن طريق الكلمة». وكان هذا المخطط يهدف إلى إزاحة تأثير الفكر الإسلامي من عقول المسلمين. وفي هذا الشأن، يقول الشاعر الإسلامي أكبر أبادي: «يَا لِغَبَاءِ فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات وقد كان ذلك أسهل طريقٍ لقتل الأولاد! ولو فعل ذلك لم يلحقه العار ولا سوء الأحدوثة في التاريخ»[١]. وجاء بعده الشاعر محمد إقبال ليحذر الشباب المسلم من الانزلاقة في مكائد الغرب فيقول:«إِيَّاكَ وأن تكون آمِنًا من العلم الذي تدرسه، فإنَّه يستطيع أن يقتل روح أُمَّةٍ بأسرها»، ويُعَبِّرُ عن ذلك الانقلاب الهائل والتحول الجذري الذي يحدثه نظام التربية الحديثة فيقول:«إنَّ التَّعلِيمَ هو الحامض الذي يُذِيبُ شخصية الكائن الحَيِّ ثُمَّ يُكَوِّنُهَا كما يشاء. إنَّ هذا الحامض هو أَشَدُّ قُوَّةً وتأثيرًا من أَيِّ مَادَّةٍ كيميائيةٍ، وهو الذي يستطيع أن يُحَوِّلَ جَبَلًا شامخًا إلى كَومَةِ تُرَابٍ»[٢].

تصريحات الأعداء بضرورة الغزو الفكري في التعليم:

تنبه أعداء الإسلام منذ عقودٍ من الزمن إلى ضرورة ترسيخ السياسة الاستعمارية في الهيمنة على المقدرات الثقافية للأمة الإسلامية، وقد صَرَّحَ جب هـ.ا.ر في كتابه «إلى أين يتجه الإسلام؟ دراسةٌ استقصائيةٌ للحركات الحديثة في العالم الإسلامي» بقوله:«وَالسَّبِيلُ الحقيقي لِلحُكمِ على

[١] الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة، ص ٢٤.

[٢] المرجع السابق ص ٢٤-٢٥.

مدى التغريب أو الفرنجة هو أن نَتَبَيَّنَ إلى أَيِّ حَدٍّ يَجرِي التَّعلِيمُ على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي.. هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره. وقد رأينا المراحل التي مَرَّ بها تَطَبُّعُ التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليلٍ من الزعماء الدينيين»[١]. ويقول المبشر جون تكلي: «يَجِبُ أن نُشَجِّعَ التعليم الغربي على وجه الخصوص. إنَّ كثيرًا من المسلمين قد زُعزِعَ اعتِقَادُهُم حينما تعلموا اللغة الإنجليزية؛ إنَّ الكُتُبَ المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتابٍ شرقيٍّ أمرًا صعبًا جِدًّا»[٢].

وصَرَّحَ القائد الفرنسي الجنرال بيركلير عن وسائل التأثير الفرنسي في الشام قبل احتلاله فقال: «التربية الوطنية كانت بكاملها تقريبًا في أيدينا. وفي بداية حرب ١٩١٤م، كان أكثر من اثنين وخمسين ألف تلميذٍ يتلقون دروسهم في مدارسنا، وكان من بين هؤلاء فتيانٌ وفتياتٌ ينتمون إلى عائلاتٍ إسلاميةٍ عريقةٍ. إنَّ مؤسستنا تعمل دون مللٍ لتغذية النفوذ الفرنسي في القاهرة والقدس والموصل وغيرها من الأقطار العربية»[٣].

ويقول مستر بنروز: «لقد بَرهَنَ التَّعلِيمُ على أَنَّهُ أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجؤوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان»[٤]. وقال المبشر جون موط: «إنَّ وجود التعليم في يَدِ

---

[١] في كتابه: «Whither Islam? A survey of Modern Movements in the Moslem World»

ص ٣٢٩-٣٣٤، وانظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد حسين ص ٢١٦- ٢١٧.

[٢] التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الخالدي وعمرو فروخ ص/٨٨.

[٣] الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد حسنين ص ٢٦٤ (نقلًا عن كتاب: القضية العربية في نظر الغربي لبيير).

[٤] التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الخالدي وعمرو فروخ ص/٤٦.

المسيحيين لَا يَزَالُ وسيلةً من أحسن الوسائل للوصول إلى المسلمين. ومن أجل ذلك تَقَرَّرَ أن يختار رئيس الكلية البروستانتية الإنجيلية في الجامعة الأمريكية من مبشري الإرساليات السورية»[١].

وقالت المبشرة آنا ميلغان:«في صفوف كلية البنات في القاهرة بناتٌ آباؤهنَّ باشواتٌ وبكواتٌ. وليس هناك مكانٌ آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وليس هناك طريقٌ إلى حصن الإسلام أقصر مسافةً من هذه المدرسة»[٢].

ولهذا فإنَّ الغزو الفكري يُعَدُّ أكثر خطورةً من الغزو العسكري، فهو المرض الذي ينهش في أجساد الأمم ويلغي شخصيتها ويخفي معالم الأصالة والقوة فيها لأنه يهدف بالدَّرجة الأولى إلى احتلال العقل وليس الأرض، فيتَّخذ من أجل ذلك أسلوباً خفيًّا متجمِّلًا بما يتماشى مع أهواء الإنسان.

ويذهب بعض الباحثين إلى تحديد جملةٍ من الوسائل التي يستخدمها الغرب لترويج الفكر السائد في بلدانهم ونقله إلى أوساط الأُمَّةِ الإسلامية، نلخص أهمها فيما يلي:

أَوَّلًا: ترسيخ المفاهيم الغربية في عقول أبناء المسلمين حتَّى يصل بهم الأمر إلى الاعتقاد بأفضلية ما عند الغرب على من سواهم. ولقد امتَدَّ هذا الخطر إلى خصوصيات الأُمَّةِ سواءٌ في دينها أو عقيدتها أو فيما تميَّزت به من عاداتٍ وتقاليد حسنةٍ.

ثانيًا: تشجيع البعثات التعليمية لإعداد فِئَةٍ من أبناء الأُمَّةِ وتغذية الولاء المطلق فيهم للغرب ولكل ما هو غربِيٌّ مع تخصيص برامج تربويةٍ وتعليميةٍ تخدم هذا الاتجاه سواءٌ داخل المؤسسات

---

[١] المرجع السابق ص ٦٧- ٦٨.

[٢] المرجع السابق ص ٨٧، وانظر: التربية الإسلامية لمحمد مرسي ص١٧٢- ١٧٣.

التعليمية الخاصَّة أو المؤسسات التربوية الموازية، حتى إذا ما تَشَرَّبَ هؤلاء بالأفكار الغربية وعادوا إلى بلادهم أحيطوا بهالةٍ عظيمةٍ من المدح والثناء وتسلموا المناصب والقيادات في بلدانهم، وبذلك يروجون للأفكار الغربية وينشؤون المؤسسات التعليمية المسايرة للمنهج الغربي أو الخاضعة له.

ثالثًا: التركيز على أهمية تعلم اللغات الأجنبية لتزاحم لغة المسلمين في ديارهم، وخاصةً لغة القرآن الكريم التي يَتَعَبَّدُ بها المسلمون ربهم في الصلاة والحج والأذكار وغيرها. ويسهل هذا السعي من خلال تشجيع الدعوات الهدامة التي تحارب اللغة العربية وتحاول إضعاف التمسك بها في ديار الإسلام عبر الدعوة إلى اللهجات العامية وإلى التمسك بالأدب الشعبي والتراث القومي.

رابعًا: العمل على إنشاء الجامعات الغربية والمدارس التبشيرية ودور الحضانة ورياض الأطفال والمستشفيات والمستوصفات في بلاد المسلمين والحرص على إغراء أبناء الخاصَّة للدراسة فيها، ومساعدتهم بعد ذلك على تسلم المراكز القيادية والوظائف الكبيرة في الدولة حتى يكونوا عونًا لأساتذتهم في تحقيق مآربهم.

خامسًا: محاولة السيطرة على مناهج التعليم ورسم سياستها إمَّا بطريقٍ مباشرٍ بتحديد من يقوم بالمهمَّة كما حصل في بعض بلاد الإسلام حينما تولى دنلوب القسيس تلك المهمة فيها، أو بطريقٍ غير مباشرٍ عندما يؤدي المهمة نفسها تلاميذ ناجحون درسوا في مدارس دنلوب وتخرجوا فيها فأصبح معظمهم معول هدمٍ في بلاده وسلاحًا فَتَّاكًا من أسلحة العدو يعمل جاهدًا على توجيه التعليم توجيهًا علمانيًّا لا يرتكز على الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والتصديق برسوله، وإِنَّما يسير نحو الإلحاد ويدعو إلى الفساد.

سادسًا: قيام بعض المستشرقين من أتباع الديانات الأخرى بدراسة الإسلام واللغة العربية وتأليف الكتب وصياغة مناهج التعليم في المدارس والجامعات، وذلك مع تولي كراسي التدريس في المؤسسات التعليمية مِمَّا أحدث فتنةً كبيرةً في ميدان الفكر التربوي الإسلامي خصوصًا بين أبناء الطبقة المثقفة، فاتسعت دائرة الشُّبَهِ والتشكيك حتَّى طالت الثوابت في الدين الإسلامي وتولدت الجرأة لدى قادة الفكر التربوي على أصالة الأمة وثوابتها، فَشُوِّهَ التاريخ الإسلامي وبات الدفاع عن القيم ودفع الشبهات هَمَّ المصلحين وشغلهم الشاغل وعاشت الأمة في صراعٍ ثقافيٍّ وفكريٍّ مريرٍ. وللأسف، فإننا نجد أنَّ المنتصر في مثل هذا الصراع في أغلب الأحيان هو من يملك القوة والمال والحكم.

سابعًا: العمل الدؤوب على تكثيف البعثات التبشيرية حتَّى شملت جُلَّ بلاد المسلمين، فقد أعدَّ أعداء الدين لها جيوشًا من المبشرين ووَفَّرُوا لها أضخم الميزانيات وذَلَّلُوا لها جميع العقبات. كل ذلك كان بدعمٍ من دولٍ غربيةٍ تملك ترسانةً عظيمةً من المال والسلاح.

ثامنًا: الدعوة المتواصلة إلى المساواة بين الرجل والمرأة والتأكيد على حَقِّ المرأة في مزاحمة الرجل في جميع ميادين الحياة. لقد عملت هذه الدعوات على التأكيد على ظلم الإسلام للمرأة وهظم حقوقها ومن ثَمَّ تصويرها على أنها خادمةٌ للرجل أو أَمَةٌ يستعبدها المجتمع وينتقص من قدرها. وكان الهدف من ذلك هو إفساد لحمتنا الاجتماعية المبنية على الأخلاق السامية وتفكيك أواصر الأسرة المسلمة من خلال العمل على إخراج المرأة من حصنها الحصين لتعيش حياة الغرب بكل تفاصيلها: من لباسٍ وانحلالٍ واختلاطٍ وتمرُّدٍ على قيم الفضيلة التي أرساها ديننا الحنيف[١].

[١] انظر: الموسوعة الحرة (وكيبيديا) الصفحة الإلكترونية، موضوع الغزو الفكري.

لقد سعت كل هذه الوسائل والأساليب إلى إخراج المسلمين من دينهم أو ربطهم باسمه دون مضمونه، حتَّى لا يبقى للإسلام أيُّ تأثيرٍ في حياتهم!

المواطنة بين الحقيقة والخديعة

أريد التَّأكيد -في بداية حديثي- على أنني لا أعني بلدًا ولا وطنًا بعينه، بل أتحدث عن حالةٍ تعيشها بعض شعوب العالم الإسلامي، فإن كانت في بلدٍ مُعَيَّنٍ فنسأل الله ﷻ له العفو والعافية، وإن لم تكن فيه فعلى أهله أن يشكروا الله ﷻ على ما هم عليه من نعمةٍ ويسألوه حفظها ودوامها.

لقد كانت خديعة فرعون في حربه مع موسى عليه السلام أن اتهمه بالسحر من أجل إخراج قومه من أرضهم، قال تعالى مخبرًا عن ذلك: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥]، وبمكره وطغيانه أَضَلَّ فرعون قومه حتَّى أوردهم الهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦-٩٩]. وانظروا ماذا فعل غيره من الطغاة بشعوبهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

ولغة الطغاة هذه تتكرر كثيرًا على أفواههم باسم الوطن والمواطن من أجل تصفية خصومهم والحفاظ على عروشهم وسلطانهم.. وينادي الطغاة شعوبهم في كل يومٍ عن طريق إعلامهم الموجه وأبواقهم الكاذبة، يقولون لهم: لا تُفَرِّطُوا بأوطانكم ولا تبيعوا أرضكم، موتوا وضَحُّوا من أجل وطنكم! ونسيت الشعوب أنَّ وجود بعض الطغاة في الحُكمِ هو جزءٌ من مخطط دمار الأوطان وهلاك الشعوب.

نحن لا نريد أن نستبدل عبادة الأوثان بعبادة الأوطان! فالدين أغلى من الوطن، وتبقى جنسية المسلم عقيدته ويبقى وطنه الأرض التي يُحكَمُ بها بشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وبسبب المغالاة في الدعوة إلى الوطنية وحب الوطن، فقد برزت العصبية البغيضة النتنة وتعصَّب كل شعبٍ لوطنه واحتقر ما عداه، بل ونسي أمته وأخوة الإيمان التي قامت على أساسها. وسَطَّرَ الإعلام المخادع ملاحم البطولة والمجد للوطن ولمن جثم على كرسي حكمه، فلا معبود عند هؤلاء سوى الوطن ولا إله عندهم غير حاكمه وكأننا نعيش زمن فرعون! قال تعالى:﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. لقد قالها فرعون تصريحًا لا تلميحًا، أَمَّا بعض طغاة اليوم، فعملهم جارٍ بها وإن لم يعلنوها كما أعلنها فرعون فقط لأنَّهم لا يملكون جرأته وقوته!

وماذا قَدَّمَ دعاة الوطنية لأوطانهم سوى الأنانية وحب الذات ودمار الأوطان وخراب العباد؟ بل وماذا قَدَّمَ دعاة القومية العربية لأمتهم غير الصراخ الكاذب والعويل المخادع؟ لقد أصبحت وعودهم وتهديداتهم مصدر طمأنينةٍ لأعداء الأُمَّة لأنَّ الأعداء يعلمون بأنَّ هؤلاء جزءٌ من مخطط التدمير والتمرير لا التحرير والتنوير كما يزعمون! فقد باتت شعاراتهم من المهازل التي يستحي منها عقلاء النَّاس!!

قالوا:«الدين لله والوطن للجميع» لِيُفَرِّقُوا بين الولاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والولاء للوطن، ونسوا بأنَّ الأرض كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

لقد استُبدِلَت وجهة الموت في سبيل الله ﷻ بوجهة الشهادة من أجل الوطن وترابه! بل لَو سُبَّ الدين أو الرَّبُّ الجليل ﷻ عند كثيرٍ من النَّاس فقد لا تجد لديهم بسبب تأثير الإعلام الموجَّهِ ردة فعلٍ أو حميةً لدينهم كما تجدها عندهم حينما تذكر وطنهم بسوءٍ أو بنقدٍ، وقد عانينا من ذلك الكثير من خلال خلطتنا بالناس من شتَّى الأصول والمنابت.

نحن لا ننكر بأنَّ الوطن من نعم الله ﷻ على ساكنيه خصوصًا إذا شعروا فيه بالأمن والأمان، وحُبُّنَا له مُرتبطٌ بعطائه لنا. ولكن ما معنى حب الوطن وما هي قيمة المواطن حينما يعبث به العابثون ويكون الوطن هو سبب دمارنا وتشردنا وفيه تُهْضَمُ حقوقنا وتزداد آلَامُنَا؟ إننا سنعيش أكذوبةً يتاجر بها الطغاة ليستمر حكمهم ولتدوم مصالحهم وليتعاظم طغيانهم!!

منذ سنين عديدةٍ، اضطرَّت ظروف القهر والظلم كثيرًا من أبناء الأُمَّةِ إلى أن يهجروا أوطانهم ويركبوا أهوال الاغتراب وآلام البعد، بل وقد يصبح كابوس أحدهم الأعظم حينما يرى نفسه في المنام أنه عاد إلى وطنه!! فيا للعجب كيف وصل بنا الحال وآل بنا المآل!

يا حماة الديار! ما هكذا تورد الإبل وما هكذا تقاد الشعوب! لا تفتخروا بعدد أبناء شعبكم قبل أن تفكروا بعدد أسئلة الدَّيان ﷻ لكم يوم تقفون عند الميزان. كيف تبرؤون الذمم يوم القيامة عند تزاحم الأمم؟ يومها ستجدون كل مظلومٍ يريد أن ينتزع منكم حَقَّهُ الذي سلبتموه ودمه الذي أهدرتموه وماله الذي اغتصبتموه! أسألكم بالله ﷻ: كيف يعشق المسلم وطنًا -لا أعني بالوطن هنا الأرض والتراب- كان هو سبب غربته وتشريده وإحساسه بضياع هويته؟ لقد تحكَّم الطغاة بمصير شعوبهم وتصرفوا بمقدرات أوطانهم ونهبوا ثرواتها ودَمَّرُوا مقوماتها.

إنَّ أحرار الأُمَّةِ لا يريدون أن ينتزعوا إنسانيتهم من أجل وطنهم ولا أن يهدروا كرامتهم من أجل أوطانهم ولا يرضون أن يكونوا عبيدًا لأسيادٍ اغتصبوا أوطانهم، بل يريدون كرامة وطنٍ وعزة شعبٍ واستقلال إرادةٍ؛ يريدون أن يسمعوا صوت الحَقِّ ونداء الصِّدقِ في أوطانهم. لقد سئمنا ذكر فرعون لطغيانه، وسئمنا ذكر مسيلمة لكذبه، وكرهنا ذكر أبي رغالٍ لغدره، وكرهنا ذكر الشيطان لمكره وغوايته!! فكيف إذا اجتمع الجميع في بعض أرض المسلمين وأوطانهم؟! قالوا لنا منذ الصغر بأنَّ «حب الوطن من الإيمان» حتى أصبحنا اليوم نخشى على الإيمان من حب الأوطان! وقالوا لنا بأن هذا النص هو حديثٌ للنبي ﷺ فقلت: كذبتم على نبيكم كما كذبتم على شعوبكم وعبثتم بالأديان كما عبثتم بالأوطان!!

وأخيرًا أسأل: من الذي رسم حدود أوطاننا وفرَّق جمع أمتنا حتَّى أقدس فعله وأنصر مكره وكيده وأتلف حياتي من أجل أن ينعم عدوي بأرضي وهو دخيلٌ عليها؟ أليس هذا من تخطيط الأعداء لتمزيق وحدة الأُمَّةِ وتقطيع جسدها الواحد؟! إنَّ عزائي فيما تعانيه أُمَّتِي هو أملي في أن تستيقظ من غفلتها وتصحو من نومتها وتلجأ إلى بارئها، وهو أمرٌ قادمٌ لا محالة لأنَّ الإيمان بهذا هو خميرة الوعد القادم بإذن الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. فمن سُنَنِ الله سبحانه وتعالى أنَّ الباطل لا يدوم وإن عظم وأنَّ الحَقَّ لا ينتهي وإن صغر، ولهذا فإنَّ الأمل بالله سبحانه وتعالى لا ينقطع وإن ضعف واليقين بوعده لا يزول وإن تزعزع، والله سبحانه وتعالى غالبٌ على أمره وهو سبحانه قاهرٌ فوق عباده.

بين الداء والدواء

انقسم الناس حول أمورٍ كثيرةٍ تَتَعَلَّقُ بموضوع الطب النبوي بين مصدقٍ ومشككٍ ومكذبٍ. لقد أشكلت على كثيرٍ من الناس طريقة العامة في استخدام الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كوسيلة علاجٍ لجميع الأمراض. ومن شدة مبالغة بعضهم في نجاعتها وقوة مفعولها فقد أساؤوا فهمها وتوجيهها حتى بدأنا نقارب أسلوب أهل الشعوذة في إيهام الناس واستغفالهم، ولهذا فإنَّ المسألة تحتاج إلى بيانٍ وتوضيحٍ. وأرجو أَلَّا يفهم من حديثي التقليل من فاعلية الآثار القرآنية والنبوية، فمعاذ الله ﷻ! وإنَّما غرابتي من الذين يقودون الناس إلى الشك بدينهم إمَّا بجهلٍ أو بسوء نيةٍ.

وكما نعلم فإنَّ الإسلام لا يتجزأ، فالدين لم يأمر به الله ﷻ ليخضع للانتقاء والاختيار حسب حاجاتنا وأهوائنا.. نأخذ منه ما نريد وندع ما لا نرغب فيه حتَّى نجعل التدين في حياتنا كالثوب الممزق أو كالقميص المرقَّع! لقد فعل البعض ما يقوله الشيوخ في الأخذ بأسباب الشفاء الإيمانية وحين لم يجد أثر شفاءٍ أو نجاعة دواءٍ بات بين متحيرٍ أو متشككٍ!! فأين تكمن المشكلة؟

إنَّ جميع الأخبار الصحيحة التي وردت بخصوص الشفاء -سواءٌ في القرآن أو في سُنَّةِ خير الأنام- هي جُزءٌ من منظومةٍ إيمانيةٍ متكاملةٍ تنساب في حياتنا بانسيابنا مع أمر الله ﷻ ونهيه، وهي فاعلةٌ فينا بقدر تفاعل حياتنا مع دين الله ﷻ. وكل أمرٍ عطلناه في ديننا فالله ﷻ يؤخر رحمته على عباده بسببه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فرعاية الله ﷻ لنا هي بقدر

رعايتنا لدينه وشرعه، والكرامة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكل أنواعها لا تكون إلَّا في حاضنة أهل الإيمان والتقوى وليس في أدعيائها من المتاجرين بالدين الغَاشِّينَ للعباد أو الذين يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على حرفٍ، وما أكثرهم في هذه الأُمَّة!!

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأدعية والتَّعوذات بمنزلة السِّلاحِ، والسِّلاحُ بِضَارِبِهِ لا بِحَدِّهِ فقط؛ فمتى كَانَ السِّلَاحُ سِلَاحًا تامًّا لَا آفةَ بِهِ وكانَ السَّاعِدُ سَاعِدًا قَوِيًّا وكانَ المانِعُ مفقودًا، حَصَلَت بِهِ النِّكَايَةُ فِي العَدُوِّ، وَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِن هَذِهِ الثَّلَاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأثِير»[١]. إنَّ مَثَلَ النصوص الشرعية المتعلقة بالداء والدواء كمثل الغيث النازل من السماء، قال الحَقُّ تعالى عن قرآنه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال عن المطر النازل من السماء بأمره: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. لقد جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المطر سببًا للخير وإنبات الزرع، لكنه قد ينفع في أرضٍ فينبت فيها الخير، وفي نفس الوقت قد لا يكون له مفعولٌ في أرضٍ أخرى لا بسببه وإنما لعدم صلاحية الأرض التي هطل عليها، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

فحينما نكون صالحين لأن نستقبل الدواء اللازم لدائنا، فالشفاء سينبت في أجسادنا وسيغشى قلوبنا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وعندما نكون خلاف ذلك، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكرم من أن يكتب لنا

---

[١] كتاب: الداء والدواء ص٣٥.

الشفاء النازل من عنده ومعاصينا قد بلغت عنان السماء!! فالشفاء موجودٌ لأهله فيما أخبر الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم ﷺ، فهل نحن ممن يستحق كرامته حتَّى ينال خيره؟

إنَّ المسألة تحتاج إلى تأملٍ وتدبرٍ!! قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فاللهم نسألك الشفاء لمرضانا ومرضى المؤمنين.

الخاتمـة

لقد انتهيت من وضع اللمسات الأخيرة في تأليفي لكتاب «آفاق في الفكر الإسلامي» لأقدمه بين أيدي إخواني الكرام، وهو باكورة جهدٍ لمسيرةٍ طويلةٍ في مجال الفكر، بل هو عصارة خبرةٍ طويلةٍ نتجت عن تعانق ثمار فهمي لمنهج الله ﷻ مع تجاربي ومسيرتي في مناكب الحياة. ويغلب على ظني أنَّ موضوعات الكتاب جاءت موافقةً لحاجيات أهل الفكر والرأي من المصلحين من أبناء الأمة الإسلامية في ما يَخُصُّ تصويب المسيرة وإيضاح طريق الدعوة للسائرين على خطى الحَقِّ حتَّى نصل جميعًا إلى غايتنا المنشودة، قال تعالى:﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وفي الختام، فكلي أملٌ بالله ﷻ أن أكون قد وفقت في وضع لبنةٍ طيبةٍ في بناء صرح الفكر الإسلامي لأكون ممن ساهم في تعزيز مسيرة الإصلاح من أجل النهوض بالأمة الإسلامية من واقعها المؤلم إلى ما هو مطلوبٌ في ميدان الحَقِّ، كي تعود لأمتنا -إن هي حَقَّقَت شرط الله ﷻ منها- الريادة في مسيرة الحضارة الإنسانية، فهي الهدية التي منحها الله ﷻ لخير تَجَمُّعٍ بشريٍّ حتَّى تقوم الساعة، قال تعالى:﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهرس المصادر والمراجع

(لايدخل في الترتيب لفظ «أبو» أو لفظ «ابن» أو لفظ لام التعريف:«ال»)

- الإتقان في علوم القرآن/ المؤلف جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.- مصر: طبعة الهيئة المصرية (وبهامشها كتاب إعجاز القرآن للباقلاني)، ١٩٧٤م.

- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر/ المؤلف محمد محمد حسين.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٣م.- السابعة.

- الإحكام في أصول الأحكام/ المؤلف علي بن أحمد المعروف بابن حزم (ت ٤٥٦هـ).- القاهرة: المكتب الإسلامي، ١٩٦٢م.

- أحكام القرآن/ المؤلف أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠هـ).- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٧٠هـ.

- إحياء علوم الدين/ المؤلف أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ).- بيروت: دار المعرفة.

- أدب الاختلاف في الإسلام/ المؤلف طه جابر العلواني.- قطر: كتاب الأمة.

- الأدب المفرد/ المؤلف الإمام محمد بن اسماعيل البخاري.- بيروت: عالم الكتب.

- أضواء البيان/ المؤلف محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي. تحقيق مكتب البحوث والدراسات.- بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م.

- أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي/ المؤلف علي محمد جريسة والشيخ محمد شريف الزيبق.- القاهرة: دار الاعتصام، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

- الإسلام والوعي الحضاري/ المؤلف أكرم ضياء العمري.- جدة: دار المنارة، ١٤٠٧هـ.

- الاعتصام/ المؤلف أبو اسحاق الشاطبي.- مصر: المكتبة التجارية الكبرى.

- الأعلام/ المؤلف خير الدين الزركلي.- بيروت: دار العلم، ١٩٨٤م.- السادسة.

- إعلام الموقعين عن رب العالمين/ المؤلف ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ). تحقيق طه عبد الرؤوف سعد.- بيروت: دار الجيل، ١٩٧٣م.

- أهداف التربية الإسلامية وغايتها/ المؤلف مقداد ياجن.- الرياض: دار عالم الكتب، ٢٠٠٣م.- الأولى.

- الأهداف الأساسية للتربية الإسلامية/ المؤلف عباس محجوب/من مجموعة محاضرات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٣٩٩هـ.

- الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف/ المؤلف عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ). تحقيق محمد رضوان الداية.- بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ.- الثانية.

- البداية والنهاية/ المؤلف أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤م).- بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٧م.- الثانية.

- البرهان في علوم القرآن/ المؤلف محمد بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ). تحقيق محمد إبراهيم.- بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ.

- تاج العروس/ المؤلف محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني المعروف بالزبيدي (ت ١٢٠٥هـ).- بيروت: دار صادر.

- تاريخ الإسلام/ المؤلف شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ). تحقيق عمر عبد السلام تدمري.- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.- الأولى.

- تاريخ بغداد/ المؤلف أحمد بن علي بن ثابت البغدادي (ت ٤٦٣هـ).- المدينة المنورة: المكتبة السلفية.

- تاريخ مدينة دمشق/ المؤلف علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ).- بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م.

- تاريخ الطبري/ المؤلف محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ).-بيروت: دار الكتب العلمية.

- التبشير والاستعمار في البلاد العربية/ المؤلف مصطفى خالدي وعمر فروخ .- بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧٣م.- الخامسة.

- تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة/ المؤلف جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ).- حيدر أباد، ١٣٣٤هـ.

- تجديد الفكر الإٍسلامي/ المؤلف محمد ابراهيم الكتاني وآخرون.

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي/ المؤلف أبو العلا محمد عبد الرحمن المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ).- بيروت: دار الكتب.

- تذكرة الحافظ/ المؤلف أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ).- بيروت: دار إحياء التراث العربي.- طبعة الهند.

- التراث والمعاصرة/ المؤلف أكرم ضياء العمري.- الكويت: مجلة الأمة، ١٤٠٥هـ.- الأولى.

- التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة/ المؤلف اسحاق فرحان.- عمان: دار الفرقان، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.- الثانية.

- التربية الإسلامية (أصولها وتطورها في البلاد العربية) / المؤلف محمد منير مرسي.- القاهرة: عالم الشعب، ١٩٧٧م.

- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) / المؤلف شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ). تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.- القاهرة: دار الكتب، ١٣٨٤هـ -١٩٦٤م.- الثانية.

- تفسير ابن كثير/ المؤلف أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ).- بيروت، ١٤٠١هـ.

- التعليم في عصر السيرة والراشدين/ المؤلف أكرم العمري.- عمان: بحث منشور في (المؤسسات والممارسات) المجلد الأول.

- جامع بيان العلم وفضله/ المؤلف يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ).- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ.

- جامع الترمذي/ المؤلف محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ).- دمشق: دار الفكر، ١٩٧٨م.- الثالثة.

- جامع العلوم والحكم/ المؤلف عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحنبلي (ت ٧٩٥هـ). تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.- السابعة.

- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)/ المؤلف محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ).- رملة بولاق: دار الكتب المصرية، ١٣٨٧هـ-١٩٧٧م.- الثالثة.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ المؤلف أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ).- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.- الرابعة.

- دائرة المعارف الإسلامية/ المؤلف شركة بريل الهولندية.- مصر: صدرت بالعربية في مصر في الستينات وأعيد طبعها بالشارقة ١٩٩٨م.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور/ المؤلف جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).- بيروت: دار الفكر.

- دور الطلبة في بناء مستقبل العالم، المودودي.

- رسالة المسترشدين /المؤلف الحارث المحاسبي. تحقيق عبد الفتاح أبو غدة.- حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية.- الثانية.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم/ المؤلف شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ). تحقيق علي عبد الباري عطية.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.- الأولى.

- زاد المعاد في هدي خير العباد/ المؤلف ابن قيم الجوزية.- مصر: طبعة الحلبي.

- سلسلة الأحاديث الصحيحة/ المؤلف محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ).- الرياض: مكتبة المعارف.

- سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية/ المؤلف أنور الجندي.- بيروت: دار الجيل ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.- الثانية.

- سنن البيهقي الكبرى/ المؤلف أحمد بن الحسين الخراساني أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ). تحقيق محمد عبد القادر عطا.- مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ١٩٩٤م.

- سنن الترمذي (الجامع الصحيح): / المؤلف محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ). تحقيق أحمد شاكر وآخرون.- بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- سنن الدارمي/ المؤلف عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام الدارمي السمرقندي (ت ٢٥٥هـ). تحقيق فواز زمرلي وخالد العلمي.- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.- الأولى.

- سنن أبي داود/ المؤلف سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ). تحقيق محمد محيي الدين.- دمشق: دار الفكر.

- سنن ابن ماجه/ المؤلف محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (ت ٢٧٥هـ). تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.- بيروت: دار الفكر.

- سنن النسائي الكبرى/ المؤلف أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ). تحقيق عبد الغفور البنداري وسيد كسروي.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١م. الأولى.

- سير أعلام النبلاء/ المؤلف شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ). تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ.- التاسعة.

- السيرة النبوية/ المؤلف عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ). تحقيق طه عبد الرؤوف سعد.- بيروت: دار الجبل، ١٤١١هـ.- الأولى.

- شرح العقيدة الطحاوية/ المؤلف عبد الرحمن بن ناصر البراك.- بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ.- الرابعة.

- شرح النووي على صحيح مسلم/ المؤلف أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٦١هـ). تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.- بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.- الثانية.

- الفكر الإسلامي تقويمه وتجديده، أو (في عنوانه الجديد) تجديد الفكر الإسلامي/ المؤلف محسن عبد الحميد.- الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي في أمريكا.

- فلسفة التربية الإسلامية/ المؤلف ماجد عرسان الكيلاني.- جدة: دار المنارة.

- قواعد الأحكام في مصالح الأنام/ المؤلف العزّ بن عبد السلام.- بيروت: دار الكتب العلمية.

- صحيح الإمام مسلم مع شرح الإمام النووي.- بيروت: دار الفكر.

- صحيح البخاري/ المؤلف محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ). تحقيق مصطفى البغا.- بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.- الثالثة.

- صحيح الجامع الصغير/ المؤلف الشيخ محمد ناصر الألباني.- بيروت: المكتب الإسلامي.

- صحيح ابن حبان/ المؤلف محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ). تحقيق شعيب الأرنؤوط.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.- الثانية.

- طبقات الشافعية الكبرى/ المؤلف تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ). تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو .- القاهرة: هجر للطباعة ١٤١٣هـ.- الثانية.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري/ المؤلف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ). تحقيق محب الدين الخطيب.- بيروت: دار المعرفة.

- فتح القدير/ المؤلف محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ).- بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ .

- في ظلال القرآن/ المؤلف سيد قطب (ت ١٣٨٥هـ).- بيروت: دار الشروق، ١٤١٢هـ.- السابعة عشر.

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس/ المؤلف إسماعيل بن محمد العجلوني. تحقيق أحمد القلاش.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ.- الرابعة.

- كنز العمال/ المؤلف علاء الدين علي المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ). تحقيق محمود الدمياطي.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.- الأولى.

- لسان العرب/ المؤلف محمد بن مكرم بن منظور.- بيروت: دار صادر.

- مجمع الزوائد/ المؤلف علي بن أبي بكر الهيتمي (ت ٨٠٧هـ).- القاهرة: دار الريان، ١٤٠٧هـ.

- مجموع الفتاوى/ المؤلف أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ٧٢٨هـ). تحقيق عبد الرحمن النجدي.- القاهرة: مكتبة ابن تيمية.- الثانية.

- مجموعة محاضرات/ المؤلف العوامل التي تنخر في الكيان الإسلامي: عبد الحميد الهاشمي.- وزارة الحج والأوقاف في السعودية لسنة ١٣٩٢هـ.

- مختار الصحاح/ المؤلف محمد الرازي.- القاهرة: دار المعارف ١٩٧٣م.

- المفردات في غريب القرآن/ المؤلف الحسين بن محمد. تحقيق محمد سيد كيلاني.- بيروت: دار المعرفة.

- مقدمة ابن خلدون/ المؤلف عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ).- بيروت: دار القلم ١٩٨٤م.- الخامسة.

- المستدرك على الصحيحين/ المؤلف محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ). تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.- الأولى.

- مسند أحمد بن حنبل/ المؤلف الإمام أحمد ابن حنبل (ت ٢٤١هـ).- بيروت: دار صادر.

- المعجم الكبير/ المؤلف سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ). تحقيق حمدي بن عبد المجيد.- الموصل: مكتبة الزهراء، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.- الثانية.

- المغني/ المؤلف عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الدمشقي المقدسي (ت ٦٢٠هـ).- بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ.- الأولى.

- منتخب كنز العمال/ المؤلف علي بن حسام الدين.- القاهرة: المطبعة الميمنية (في هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل).- الأولى.

- الموافقات/ المؤلف إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي (ت ٧٩٠هـ). تحقيق عبد الله دراز.- بيروت: دار المعرفة.

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال/ المؤلف محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ). تحقيق علي محمد وعادل أحمد عبد الموجود.- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.- الأولى.

- نحو منهج إسلامي في التربية/ المؤلف عباس محجوب.- المدينة المنورة: مجلة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

- نيل الأوطار/ المؤلف محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٥هـ).- بيروت: دار الجبل، ١٩٧٣م.

- وصية الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (إلى تلميذه يوسف بن خالد السمتي البصري)/ راجعها وعلق عليها ابراهيم مختار أحمد الجبري.- القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٥هـ -١٩٣٦م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ المؤلف أحمد بن محمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ). تحقيق إحسان عباس.- لبنان: دار الثقافة.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٣
مفهوم الفكر التربوي ٥
نظرة عامة في مسيرة الفكر التربوي ٩
تعزيز فقه الواقع في ضوء الفكر التربوي الإسلامي ١٨
بين الأصالة والتأصيل ٢٤
التجديد بين الرغبة والضرورة ٣٠
نظرة في التراث الإسلامي ٣٩
بين عطاء الماضي وحاجة الحاضر ٤٧
بين التربية والتعليم ٥٠
نظرة في دراسة السيرة النبوية ٥٤
أثر العقيدة في جيل الصحابة ٥٩
النظرة الواقعية لجيل الصحابة ٦٤
أهمية دراسة السنن الإلهية ٦٨
التفسير المادي للتاريخ ٧٨
نظرة في خلاف العلماء ٨٣
نظرة في وصايا العلماء ٩٣
بين الاتباع والابتداع ٩٦

فقه الأولويات ١٠٢
عقيدة التوكل والاستعانة ١٠٥
بين القضاء والقدر وضرورة الأخذ بالأسباب ١١٢
بين الرحمة وسببها ١١٧
بين الناموس الكوني والشرعي ١٢١
بين التكوين والتمكين ١٢٤
بين المحنة والمنحة ١٣٣
بين الهلع والفزع ١٣٦
بعيدا عن اليأس وانقطاع الأمل ١٤١
لمن تشكو ضعفك؟ ١٤٥
إرث ورثناه أم ورَّثناه ١٤٩
هل التطرف فينا أم دخيل علينا؟ ١٥٣
يسروا ولا تعسروا ١٥٧
خطورة تغليب النزعة الانتمائية ١٦٠
بين الفرد والجماعة ١٦٥
وقفة مع أحوال الأمة ١٧٢
وقفة مع علماء الدين ١٧٥
وزنوها بالقسطاس المستقيم ١٧٨

بين الدين والسياسة.. ١٨٧
نظرة في العلمانية ١٩٣
نظرة في الغزو الفكري ٢٠٣
المواطنة بين الحقيقة والخديعة.. ٢١٢
بين الداء والدواء ٢١٦
الخاتمـة ٢١٩
فهرس المصادر والمراجع ٢٢٠
فهرس الموضوعات.. ٢٣٠

- مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور الشيخ فاروق عبد المجيد حمود السامرائي ، من مدينة سامرّاء في العراق . ولد سنة 1957م ، وأكمل دراسته الجامعيّة في الدعوة وأصول الدين، وحصل على شهادة الماجستير في الدعوة والعقيدة الإسلامية ، ثمّ شهادة الدكتوراه في الدعوة والتربية الإسلامية بتقدير مرتبة الشرف الأولى. وكانت جميع مراحل الدراسة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

- عمل في سلك التدريس الجامعي منذ سنة 1989م وإلى الآن (2020م) في جامعات عدّة وأشرف على عدد كبير من الرسائل العلميّة (الماجستير والدكتوراه) وهو الآن على رأس عمله رئيساً لجامعة الإسراء (الجامعة الإسلاميّة سابقا) في ولاية منيسوتا الأمريكيّة ، وكذلك رئيسا وإماما في المركز الإسلامي (مسجد الإسراء) ورئيسا للمجلس الفقهي في نفس الولاية.

- له عدّة بحوث ومؤلفات في مجال الدراسات الإسلاميّة ، وله مشاركات في برامج تلفزيونيّة وفي مؤتمرات ونشاطات المراكز الإسلاميّة في أمريكا الشماليّة.

- حصل على وسام المملكة الأردنيّة الهاشميّة للعطاء المتميّز من الدرجة الأولى، وذلك في عام 1997م.